الطريق إلى مملكة النهايات

السيد زهير طالب الأعرجي

الكتاب الفائز بجائزة مسابقة الإمام المهدي (ع)
العتبة الحسينية المباركة – كربلاء سنة 2017 م

الطريق إلى مملكة النهايات

دراسة حول أحوال الإنسان والإمام
المهدي (ع) في عصر الغيبة

السيد زهير طالب الاعرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)[1]، وقال أيضاً: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...)[2].

وورد عن رسول الله (ص) قوله: (المهدي رجلٌ من عترتي، يقاتلُ على سنتي كما قاتلتُ أنا على الوحي)[3].

وعن الإمام الصادق (ع): (لو بقيت الأرضُ بغير إمامٍ لساخت)[4]، و(أن الأرض لن تخلو إلا وفيها عالمٌ، كلما زاد المؤمنون شيئاً ردهم إلى الحق، وإن نقّصوا شيئاً أتمّه لهم)[5].

---

[1] سورة القصص: الآية 5.

[2] سورة النور: الآية 55.

[3] الفتن – ابن حماد ج 1 ص 371.

[4] بصائر الدرجات – الصفار القمي ص 488.

[5] بصائر الدرجات ص 332.

الكتاب: الطريق إلى مملكة النهايات

(دراسة حول أحوال الإنسان والإمام المهدي (ع) في عصر الغيبة)

المؤلف: د. زهير طالب الأعرجي

1438 هـ - 2017 م

Title: The Road to Kingdom of Finales
(Imam Mohammad Almahdi)
Author: Dr. Zuhair Talib Araji

بسم الله الرحيم الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله حمد الشاكرين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما هو أهله، وصلى الله على محمد المصطفى نبي الرحمة خاتم النبيين (ص) وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاةً دائمةً زاكيةً إلى قيام يوم الدين.

قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. إِنَّ فِي هَـذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[6].

أن البحث عن أحوال الإمام المهدي (ع) يعدُّ من أروع النشاطات الفكرية التي يختبرها المفكر الإسلامي، ذلك لأن الفكرة المتعلقة بإمام العدل والقسط في آخر الزمان هي فكرة مستقبلية متجددة، لا يبليها الزمان، ولا يردعها الظالم، ولا ييأس منها المظلوم؛ بل لا تدع تلك الفكرة مكاناً للظالم كي يتستر على ظلمه. فقد باتت فكرة الإمام المهدي (ع) بغيبته وظهوره قصة العدالة الواقعية، وحكاية الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالإمام المؤمَّل.

وإنسانٌ مبرأٌ من الذنوب، معصومٌ عن المعاصي، طاهرٌ من الدنس، منزهٌ عن اللُبس، من خزان العلم ومستودَع الحكمة، مؤيدٌ بالدلائل هو شخصٌ قادرٌ على التعامل مع النفس البشرية بما ألهمها الله سبحانه من

---

[6] سورة الأنبياء: الآية 105- 107.

تقوى أو فجور، كما أشار تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[7].

تَصوَّرْ إنساناً بالمواصفات الراقية التالية: مطيعٌ للهَ تعالى طاعةً مطلقةً ولم يقع في معصيةٍ أبداً طول حياته الممتدة في أعماق الزمن، يمتلكُ الكمال في المعرفة والعلم بالدين فيصبح علمُه موجباً لرسوخ طاعته لله؛ مبرّأٌ من العيوب العقلية كالاضطراب، وشرود الذهن، وخلط الحقائق بالأوهام، والكآبة؛ ومبرّأٌ من العيوب النفسية كالطمع بما في أيدي الناس وحب التملك، والحسد وتمني زوال نعمة الغير، والغضب وعدم تمالك الأعصاب، والشعور بالذنب، والشك في نوايا الناس، وعدم الثقة بالآخرين؛ طاهرٌ من الدنس أي طاهرٌ من كل ما يلوّث الروح والعقل من أدران الدنيا الفكرية والمادية، فقد تنزّه عن الخلاعة، وتنزّه من الفجور والفسق.

وبكلمة، ذلك الإنسانٌ الطاهرٌ في جوهره ومعدنه، تصوراً ومصداقاً، قد وصفه تعالى مع أهل بيته (ع) بقوله: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[8]؛ وإنما أخلاقه هي الحكمةُ بعينها، فهي المعرفة التي تترجم إلى عمل وسلوك؛ منزَّهٌ عن اللُبْس فهو ممن لا يلتبس عليه أمرُ الدين، ولا يلتبس عليه الحلال من الحرام، أو الحق من الباطل، ولا تشتبه عليه الأشياء فتختلط الحقائق بالأوهام، كما أشار قول الإمام أمير المؤمنين (ع) في الشبهة، فقال: (إنما سُميت الشبهة شبهة

---

[7] سورة الشمس: الآية 7-8.

[8] سورة الأحزاب: الآية 33.

لأنها تشبه الحق. وأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين)"[9]، بل يُدرِك الآيات المحكمات والمتشابهات إدراكاً تاماً، ويقدر على تأويلها تأويلاً صحيحاً؛ من خزّان العلم فعندهُ علمٌ مستودَعٌ تلقاه مشافهةً أباً عن جد متصلاً برسول الله (ص)، والخِزانةُ حرفةُ الخازن التي تقتضي الأمانة. فهو حافظٌ للعلم، وناشره دون زيادة أو نقصان، وهو خازنٌ لعلوم القرآن، وحافظٌ لسنّة رسول الله (ص) كاملة، وهو مستودَعٌ للحكمة يحفظها كي لا تصلها يد التلاعب والأهواء. تلك هي صفات الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع)، الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت (ع)، من وِلْدِ فاطمة الزهراء (ع) بنت محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين (ص).

وصفاتٌ كتلك التي خصّت الإمام (ع) تقتضي أن يكون المأموم على درجة راقية بحيث يستحق قائداً كالمهدي (ع)، فما هي خصائص الإنسان الموالي له في زمن غيبته؟

استقراءً لثقافة أهل البيت (ع) نستنتج أن الإمام (ع) يتوقع من الموالين له أن يرتقوا إلى درجة عليا في الفهم والإدراك لمفردات الدين، وأن يصلوا إلى اليقين بوجوده حيّاً غائباً منتَظِراً أمر الله تعالى، وأن يلتزموا بعباداتهم ومعاملاتهم كما رسمها لهم الدين، وأن يتحلوا بأخلاقٍ فاضلةٍ نبيلةٍ. ولا يتم ذلك إلا عبر: الورع، والإجتهاد، والطمأنينة، والإنتظار لظهوره، كما عبّر عن ذلك أئمة أهل البيت (ع). والإنتظار هو الترقب الذهني لمجيء الموعود؛ بل هو نتيجة لمقدمة عقلية وهي العلم بشخصية

---

[9] المصباح المنير ج 1 ص 358.

المنتظَر، فلا يمكن للإنسان أن ينتظر شخصاً وهو يجهل ماهيته أو طبيعته!

إذن، فالانتظار فترة زمنية لتهيئة عقل الإنسان بقبول فكرة المهدي (ع)، والإيمان بها، والإعداد لها بتهيئة النفس، وتربيتها على المصاعب والمشاق التي تحملها شروط الإنتظار.

يأمل الإمام (ع) في مواليه نفوساً مطمئنة بقضاء الله تعالى وقدره، وهي نفوس تتربى على اليقين، وتتعود على الفضائل بحيث تكون قادرة على التعامل الأخلاقي، والعقلي مع الله عزوجل، ومع المجتمع زمن الغيبة وزمن الظهور.

فالقدرة على اختراق النفس الإنسانية، وتهذيبها، وتربيتها بحيث تتحرك نحو هدفها المرسوم في اليقين والإطمئنان والسعادة بوجود المهدي (ع) هو أفضل ما يستطيع أن يفعله المؤمن في عصر الغيبة.

وإذا رُفع مستوى الإنسان من كائن حيواني يفكر بمصلحته فقط إلى كائن أسمى يفكر بمصلحة الآخرين، ارتفعت عندئذٍ أغلب مشاكل البشرية، وتبددت معضلاتها. ومن هنا فإن المجتمع الإنساني لا يمكن أن يعيش بسلام وسعادة إلا إذا ارتقى المؤمن زمن غيبة الإمام (ع) إلى التفكير بمصلحة الأمة الواسعة الكبيرة.

ذلك أن سعادة العقل من أعلى درجات السعادة، لأن فيها إشباع العقل بلذة العلم والمعرفة. فالعلم الذي يفضي إلى معرفة الله تعالى، ومعرفة النفس، وتشخيص الفضيلة، ونفع الآخرين إنما يمنح الإنسان الرتبة العليا في السعادة.

ولاشك أن السعادة الحقيقية التي ينبغي أن يشعر بها الإنسان زمن الغيبة هي السعادة الفاضلة بوجود الإمام المنتظَر، وهي المتعلقة بالنفس عن طريق السلوك الفاضل: كالرضا بقضاء الله تعالى، والإطمئنان بصحة المعتَقد، واليقين بالمهدي (ع)، وإشباع ما تريده الروح لا ما يريده الجسد فحسب.

وتلك السعادة ثمرة من ثمرات التفكر بصاحب الزمان (ع)، والإقتداء بسلوكه بما فيه من تقوى، وبُعدٍ عن المعاصي، وطاعة تامة لتعاليم الدين الحنيف.

وهذا الكتاب ثمرة من ثمرات التفكر في أحوال الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع)، الإمام الصابر، الغريب، الوحيد، العابد، الزاهد، الذي ينتظر أمر ربه تعالى في الخروج.

ولابد أن نشير إلى أن هذا الكتاب يبحث عن زمن غيبة الإمام المهدي (ع)، ولذلك أسميناه بـ (الطريق إلى مملكة النهايات). أما طبيعة زمن الإمام (ع) فله كتابٌ آخر هو (مملكة النهايات).

اللهم إنك تعلم انني لم ابذل هذا الجهد إلا ابتغاء وجهك الكريم، ومرضاتك في الدارين. فاسألك يا ربي الكريم، ان تتقبله بقبولٍ حسنٍ، وان تجعله ذخراً لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من اتى الله بقلبٍ سليمٍ.

المؤلف

الأول من ذي القعدة 1438 هـ

محتويات الكتاب:

الفصل الأول: اليقين في الإمام محمد بن الحسن (ع)
الفصل الثاني: معرفة صفات الإمام المهدي (ع)
الفصل الثالث: في معاني الولاء للإمام (ع)
الفصل الرابع: الإنسان في عصر الغيبة
الفصل الخامس: النتائج المستخلَصة من بحوث الكتاب
مصادر التوثيق

الفصل الاول

عصر الغيبة:
اليقين في الإمام مُحَمَّد بن الحسن المهدي (ع)

اليقين في ألفاظ الإمام المهدي (ع). اليقين
بوجوده (ع) غائباً. أنواع اليقين. من موارد اليقين.
نقض الشكوك المُثارة. النصوص المتواترة التي تُحكِم
اليقين. من شروط اليقين في وجود الإمام المنتَظر (ع).

اليقين في ألفاظ الإمام المهدي (ع)

روي أن جماعة – في حدود القرن الرابع الهجري – قد تشاجروا في أمر الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع)، فكتبوا إليه حول شكوكهم، وأرسلوا ما كتبوه عن طريق أحد سفرائه، فورد جواب كتابهم بخطه يقول:

(بسم الله الرحمن الرحيم. عافانا الله وإياكم من الفتن، ووهب لنا ولكم روح اليقين، وأجارنا وإياكم من سوء المنقلب، أنه أنهي إليَّ ارتياب جماعة منكم في الدين، وما دخلهم من الشك والحيرة في ولاة أمرهم، فغمّنا ذلك لكم لا لنا، وساءنا فيكم لا فينا، لأن الله معنا فلا فاقة بنا إلى غيره، والحق معنا فلن يوحشنا من قعد عنا، ونحن صنايع ربنا، والخلق بعد صنايعنا.

يا هؤلاء ما لكم في الريب تترددون، وفي الحيرة تنعكسون، أو ما سمعتم الله يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...)[10]، أو ما علمتم ما جاءت به الآثار مما يكون ويحدث في أئمتكم، على الماضين والباقين منهم عليهم السلام؟ أو ما رأيتم كيف جعل الله لكم معاقل تأوون إليها، وأعلاماً تهتدون بها، من لدن آدم (ع) إلى أن ظهر الماضي (ع)، كلما غاب علمٌ بدا علم، وإذا أفل نجمٌ طلع نجم، فلما قبضه الله إليه ظننتم: أن الله أبطل دينه، وقطع السبب بينه وبين خلقه، كلا ما كان ذلك ولا يكون، حتى تقوم الساعة ويظهر أمر الله وهم كارهون، وإنَّ الماضي (ع) مضى سعيداً فقيداً على منهاج آبائه (ع)، حذو النعل

[10] سورة النساء: الآية 59.

بالنعل، وفينا وصيته وعلمه، ومنه خلفه ومن يسد مسده، ولا ينازعنا موضعه إلا ظالم آثم، ولا يدعيه دوننا إلا كافر جاحد. ولولا أن أمر الله لا يغلب، وسره لا يظهر ولا يعلن، لظهر لكم من حقنا ما تبتز منه عقولكم، ويزيل شكوكم ولكنه ما شاء الله كان، ولكل أجل كتاب، فاتقوا الله وسلموا لنا، وردوا الأمر إلينا، فعلينا الإصدار كما كان منا الإيراد ولا تحاولوا كشف ما غطي عنكم، ولا تميلوا عن اليمين وتعدلوا إلى اليسار، واجعلوا قصدكم إلينا بالمودة على السنّة الواضحة فقد نصحتُ لكم، والله شاهدٌ عليَّ وعليكم...)[11].

الدلالات:

هذا الخطاب من الإمام محمد بن الحسن (ع) يعكس جزءً من الحالة العقائدية السائدة في القرن الرابع الهجري، وما كان في البعض من الناس من شكٍ وحيرةٍ من أمر الإمام (ع) وغيبته. فالخطاب يؤكد على جملة من الموارد، هي:

الأولى: قضية الشك واليقين في مسألة الإمامة والغيبة، والتي يعبّر عنها الإمام (ع) بالقول: (... وما دخلهم من الشك والحيرة في ولاة أمرهم...)[12]،

---

[11] بحار الأنوار – المجلسي ج 53 ص 179.

[12] بحار الأنوار ج 53 ص 179.

وتلك قضية مهمة تترتب عليها مسائل متعلقة بالاعتقاد بإمامة المهدي (ع) بالخصوص، والاعتقاد بأصول الدين عموماً.

وقد ورد عن أهل البيت (ع) ما يشير إلى هذا الموضوع بتعابير مختلفة، وفي أزمان متغايرة كلها تصبُّ في معنى مشترك، وهو وجوب معرفة إمام الزمان (ع) في حياة الإنسان، كما هو المشهور عن رسول الله (ص): (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية)[13]. ونفس المعنى عن الإمام الصادق (ع) قوله: (من باتَ ليلةً لا يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهليةً)[14]. بمعنى أن الشك في قضية الإمام الغائب (ع) والجهل بمعرفته تنزل الإنسان من نور الإسلام وهدايته إلى ظلام الجاهلية وضلالها. وهذا المعنى من أخطر مباني أصول الدين بعد التوحيد، والنبوة.

ومن ذلك أيضاً رواية الإمام الصادق (ع) عن رسول الله (ص): (من أنكر القائم من ولدي فقد أنكرني)[15]، و(من أقرَّ بجميع الأئمة، وجحد المهدي كان كمن أقرّ بجميع الأنبياء (ع) وجحد محمداً (ص) نبوته)[16]. ومفادُ الروايتين أن إنكار الفرع كإنكار الأصل، وإنكار الأخير كإنكار الأول. وتلك المقدمة تفضي بنا إلى نتيجة مهمة وهي أن بذور الشك لو نمت، فقد تؤدي إلى إنكار الفكرة من أصلها.

---

[13] وسائل الشيعة – الحر العاملي ج 20 ص 287.

[14] كتاب الغيبة – النعماني ص 127.

[15] بحار الأنوار ج 51 ص 73.

[16] كمال الدين وتمام النعمة – الشيخ الصدوق ص 333.

الثانية: أن الريبة والشك زمن الغيبة تضر المكلفين من الناس أنفسهم بالدرجة الأولى، ولا تضر الإمام (ع)، لأن ظهوره مرتبطٌ بإرادة الله تعالى لا بإرادة الناس ولا برغبتهم. وهو يعلم أن ثبات الناس على أمر الإمامة والغيبة الطويلة أمر صعب، لا يحتمله إلا من رسخ في قلبه الإيمان، واستحكم في وجدانه اليقين.

وإلى هذا المعنى يشير الإمام أمير المؤمنين (ع) مخاطباً ابنه الحسين (ع) بشأن غيبة المهدي: (... أي والذي بعث محمداً بالنبوة واصطفاه على جميع البرية، [يظهر] ولكن بعد غيبة وحيرة، ولا يثبت فيها على دينه إلا المخلصون المباشرون لروح اليقين، الذين أخذ الله ميثاقهم بولايتنا، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروحٍ منه)[17].

أي أن الذين أدركوا معاني غيبة الإمام (ع) هم مَنْ رسخ اليقين في عقولهم، والإطمئنان في قلوبهم، ذلك لاعتقادهم بأن المهدي (ع) مأمورٌ بأمر الله تعالى. فأمرُ الخروج أو الظهور بيد الله تعالى، لا بيده.

وقد مثَّلَ الإمام الرضا (ع) ظهورَ المهدي (ع) بقيام الساعة، فقال: (مَثَلهُ مثلُ الساعةِ): (... لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً)[18]. والشاّك في أمر الساعة لا يجني إلا خراب الفكر، واضطراب الإيمان، وعذاب النفس، وهكذا مع الشك في أمر المهدي (ع).

---

[17] كمال الدين وتمام النعمة ص 304.

[18] سورة الأعراف: الآية 187. عيون أخبار الرضا (ع) – الشيخ الصدوق ج 1 ص 297.

الثالثة: أن قضية الشك والريبة قضية متكررة تاريخياً تحصل عند موت نبي (ص) أو إمام (ع)، وقد حصل ذلك عند وفاة رسول الله (ص) حيث قال القائل: (لا أسمعن أحداً يقول أن محمداً قد مات ...)[19]، و(من قال أن محمداً قد مات قتلته بسيفي هذا وإنما رفع إلى السماء كما رفع عيسى عليه السلام)[20]، وتلك عادة البعض حينما يختلط الشك باليقين في تفكيرهم.

وكان زمن الإمام الصادق (ع) مكتضاً بمن وصل به الأمر من الشك إلى الجحود بمصاديق الإمامة عن أهل البيت (ع) كأبي الجارود، وأبي منصور العجلي، والمغيرة بن سعيد، وبزيع، وأبي الحطاب محمد بن أبي زينب الأجدع وغيرهم[21]. وقد أدانهم الإمام الصادق (ع) بعد أن حاول إرجاعهم إلى طريق اليقين فلم يذعنوا إلى ذلك.

الرابعة: أن الله تعالى لا يقطع السبب بينه وبين خلقه، فالنبوة والإمامة أسبابٌ بين الله تعالى وبين عباده. والإمام المهدي (ع) هو آخر أئمة أهل البيت (ع)، وهو آخر الأسباب التامة بين الله عزوجل وبين خلقه، فهو باقٍ – بإرادته تعالى – ما بقيَّ إنسانٌ على وجه الأرض! وتلك سنّة الله في خلقه.

---

[19] الطبقات الكبرى – ابن سعد ج 2 ص 57.

[20] الملل والنحل – الشهرستاني ج 1 ص 23.

[21] الفهرست – ابن النديم ص 227. وفرق الشيعة – النوبختي ص 45.

ولم يفُتْ الإمام أمير المؤمنين (ع) أن ينوّه إلى ذلك بقوله: (اللهم لابد لك من حجج في أرضك، حجة بعد حجة على خلقك، يهدونهم إلى دينك، ويُعلّمونهم علمك، كيلا يتفرق أتباعُ أوليائك، ظاهرٌ غير مُطاع، أو متكتّم يترقّب، إن غاب عن الناس شخصهم في حال هدنتهم فلم يغب عنهم قديم مثبوت علمهم، وآدابهم في قلوب المؤمنين مثبتة، فهم بها عاملون)[22]. بمعنى أن شخص الإمام (ع) قد يغيب عن ناظريه في زمن ما، ولكن تبقى أفكاره شاخصة لهم، ترافقهم طول حياتهم.

وقوله (ع) أيضاً: (اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحجةٍ. إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تَبطُل حججُ اللهِ وبيناته. وكم ذا؟ وأين أولئك؟ [23] أولئك والله الأقلّون عدداً، والأعظمون عند اللهِ قدراً، يحفظ اللهُ بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلمُ على حقيقة البصيرة، وباشروا روحَ اليقين، واستلانوا ما استوعره المترَفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقةٌ بالمحلِّ الأعلى، أولئك خلفاءُ اللهِ في أرضه، والدعاةُ إلى دينه ...)[24].

فالأصل هنا، في موضوع الإمام المهدي (ع): غياب الشخص، وثبوت الشاخص أي ثبوت علمه بين الناس. وطالما كان الهدف من

---

[22] وسائل الشيعة ج 18 ص 64.

[23] كم ذا؟ استفهام عن عدد القائمين لله بحجته، وأين أولئك؟ استفهام عن أمكنتهم، وتنبيه على خفائها.

[24] شرح نهج البلاغة – محمد عبده ج 4 ص 37.

الرسالة الدينية إيصال العلم الآلهي إلى الناس، تباينت الوسائل المؤدية إلى ذلك. فكان غياب الإمام بشخصه، وثبوت العلم عند مريديه أمراً طبيعياً صممته الإرادة الآلهية، فكما لا يُستغرب غياب موسى (ع) عن قومه، لا يُستغرب غياب المهدي (ع) عن أمته أيضاً.

إخراج الظن والجهل المركّب:

والمأثور عن رسول الله (ص) قوله: (من أنكر القائمَ من ولْدي فقد أنكرني)[25]، إنما يعبّر عن (اليقين) الذي يتمكن من قلب المؤمن في وجود القائم المهدي (ع) من ذرية محمد المصطفى (ص)، والذي ينطبق عليه تعريف علماء المنطق بأنه " اعتقاد الشيء بأنه كذا، مع اعتقاده بأنه لا يمكن أن يكون إلا كذا، اعتقاداً مطابِقاً لنفس الأمر، غير ممكن الزوال"[26].

وذلك تعريفٌ دقيقٌ، فقد قالوا: (اعتقاد) وأخرجوا به (الظن) من التعريف، وقالوا: (...مطابقاً لنفس الأمر) فأخرجوا به الجهل المركّب، الذي هو اعتقاد جازم غير مطابق للواقع[27].

وفي تفسير ذلك قيل أن المعتقِد لما التفت إلى الأمر فقد وصل إلى طريقين، الأول: أن اعتقاده كان مطابقاً للواقع، والثاني: أن اعتقاده لم يكن مطابقاً للواقع. فهو – واقعاً – "لم يعتقد إلا المطابقة، ولم يحتمل

---

[25] بحار الأنوار ج 51 ص 73.

[26] تحرير القواعد المنطقية – قطب الدين الراوندي ص 166، 167.

[27] التعريفات – الجرجاني ص 71.

عدمها"[28]، وبكلمة أخرى أن المؤمن بالقائم (ع) كان في حالة ذهنية "بحيث لو خطر النقيض بالبال لحَكَمَ بامتناعه"[29].

وحتى لا يخرج الأمر عن دائرة اليقين قرأنا تحذير رسول الله (ص) بعدم إنكار الإمام القائم (ع) من ولْدِهِ، وبيّن أنّ من أنكر المهدي (ع) فقد أنكر الإسلام ومات ميتة الجاهلية. ذلك إن الإعتقاد بالمهدي من ذرية محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء (ص) اعتقادٌ مطابقٌ لرسالة النبوة في ضرورة وجود الهادي الذي يرشد الناس إلى الهداية والصلاح بعد وفاة النبي (ص)، كما هو مصداق قوله تعالى: (...إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)[30].

وهذا هو اليقين الحقيقي، فالمتيقِن بوجود المهدي (ع) حيّاً غائباً إنما يؤمن إيماناً جازماً بأن ما يعتقده هو مطابقٌ للواقع، ولا يمكن أن يخطر بباله شيء آخر إلا المطابقة الحقيقية.

يردُ سؤالٌ في هذا المقام، وهو: ما هو الشك الذي راودهم في قضية الإمام المهدي؟ وما هي طبيعته في قوله: (يا هؤلاء ما لكم في الريب تترددون، وفي الحيرة تنعكسون؟...)[31]. وما هو اليقين الذي دعا الله تعالى لهم به في قوله: (عافانا الله وإياكم من الفتن، ووهب لنا ولكم روح اليقين...)[32] ؟

---

[28] كشاف اصطلاحات الفنون ص 1537.

[29] الكليات – الكفوي ص 980.

[30] سورة الرعد: الآية 7.

[31] بحار الأنوار ج 53 ص 179.

[32] بحار الأنوار ج 53 ص 179.

نبحث في ثنايا هذا الفصل معاني الشك واليقين من النواحي اللغوية والاصطلاحية، ومعرفة الفارق بين اليقين المنطقي واليقين الفقهي.

بين اليقين المنطقي واليقين الفقهي:

ومن أجل رفع الاشتباه لابد أن نشير إلى مسألة لها علاقة بموضوعنا، وهي مسألة التباين بين اليقين المنطقي واليقين الفقهي. فاليقين المنطقي يشمل القَطْع كما بُحِثَ في مباحث أصول الفقه، بينما يشمل اليقين الفقهي: الظن.

وحجية القَطْع ليست على نمطٍ واحد، فقد تكون حجية ذاتية، فيمثَّلُ لها بالنار والحرارة المنبعثة منها. فكما أننا لا نستطيع التفكيك بين النار والحرارة المنبعثة منها كذلك لا نستطيع التفكيك بين القَطْع وحجيته الذاتية. وهذا هو اليقين في بحوث علم المنطق.

وقد تكون حجية القَطْع حجية مجعولة من قبل الله تعالى، فلو أمَرَنا الله تعالى باتباع الظن في مورد البينّة واليقين، فقد جَعَلَ تعالى الحجيةَ لليمين والبينّة مع أنهما لا توجبان القَطْع، ولكن الله عزّوجلّ ألغى احتمال الخلاف، وتمّم الكشف الناقص على الطريقة التعبدية.

"واعلم أنهم [أي الفقهاء] يطلقون العلم واليقين ويريدون بهما الظن الظاهر، لا حقيقة العلم واليقين، فإنّ اليقين هو الاعتقاد الجازم، وليس ذلك بشرط في هذه المسألة ونظائرها... فلو أخبره ثقة بنجاسة الماء الذي توضأ به، فحكمه حكم اليقين في وجوب [إعادة] غسل ما أصابه، وإعادة الصلاة. وإنما يحصل بقول الثقة ظنّ، لا علم ويقين. ولكنه نصٌّ يجب العمل به،

ولا يجوز العمل بالاجتهاد، مع وجوده، وينقض حكم المجتهد فيه، إذا بانَ خلاف النص..."[33].

ولا يمكننا أن نطبق المنهج الفقهي في هذا البحث، حيث تتوسع دائرة اليقين عند الفقهاء، فتشمل ما هو مظنون. فالأحكام الشرعية أحكام ظاهرية أي تُبنى على الظاهر، فيكون الأمر عند الشرع يقيناً، لكن العقل يجوّز أن يكون الواقع خلاف ذلك، كشهادة الشهود وهو بيّنة شرعية، فإنها في نظر الشرع يقين، لكنها في الواقع خبر آحاد يجوّز العقل فيها مخالفة الواقع كالسهو أو إنكار الحقيقة.

والأصل أن الأحكام الشرعية لا تُبنى إلا على العلم لقوله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)[34]، ولكن الضرورة دعت إلى العمل بالظن لأنه طريق موصل، لتعذر العلم في الكثير من الموارد الشرعية.

وعلى أية حال، فإنه لا يمكننا أخذ اليقين في الأحكام الشرعية عند الفقهاء في مناقشة اليقين بوجود الإمام المهدي لأنها قد تعني الظن، بل نأخذ اليقين عند المناطقة في الأمور الاعتقادية، ومنها غيبة الإمام المهدي (ع)، ووجوده الفعلي، لأنها تعني القَطْع الذاتي.

---

[33] المجموع – النووي ج 1 ص 187.

[34] سورة الإسراء: الآية 36.

اليقين بالحقيقة:

فاليقين إذن هو قبول الحقيقة دون أدنى شك؛ وفعلياً هو الوثوق بصحة ذلك الجزء من المعرفة، ودقته. وكلما استحكم اليقين في أذهاننا وقلوبنا قلّت فرصُ طرق الشك لأبواب عقولنا من جديد. قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)[35]، (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[36].

وكيف يحصل اليقين؟ يحصل اليقين عندما تتضافر وسائل المعرفة، من مقدمات وشروط وعلل، في الوصول إلى الحقيقة اليقينية. وعندها تضيق مساحة الشك حتى تُطرد نهائياً.

والقاعدة في الفكر الإنساني هي أن الدين بُني على أساس اليقين في الإيمان بالغيب والشهادة، فما لم يكن المؤمنُ متيقناً في الإعتقاد بالغيب فإنه لا يستطيع أن يدعي إكتمال إيمانه. وربما نفسر، مع إقرارنا بجهل علل الشريعة وأحكامها، بأن تكرار أداء العبادات من قبل المكلّف في اليوم والليلة هو محاولة إيصاله إلى درجة اليقين الكامل بوجود الله تعالى، وبقدرته، وتدبيره، وحسابه يوم القيامة، والله أعلم. وإذا صحت تلك النتيجة، كان التكرار من أعظم ثمرات العبادة.

ونقصد بتكرار العبادة هو أداء الصلوات اليومية الخمس، والصلاة المستحبة في الليل والنهار، وصلاة العيدين والجمعة، والصلاة على

---

[35] سورة الذاريات: الآية 20.

[36] سورة الأنعام: الآية 75.

الميت، وصلاة الإستخارة، وصلاة الزيارة ونحوها. فيكون تكرار ركعات الصلاة بهذا العدد الهائل في حياة الإنسان هو إيصاله إلى اليقين بالله سبحانه.

يقول تعالى: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)[37]، (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)[38]. واليقين في الدين لا ينحصر في قضايا التوحيد، بل يشمل النبوة والإمامة أيضاً. فنحن لم نرَ النبي (ص) في حياتنا، بل حصل لنا اليقين بآثاره، وصدقه بنقل القرآن الكريم إلينا مصاناً كاملاً. وكذلك ينطبق أمر اليقين على أئمة أهل البيت (ع).

ولكن من آثار اليقين في مسألة الإمام المهدي (ع) هو شعورنا باليقين الاخلاقي، حيث يدعونا هذا اليقين إلى بناء شخصياتنا بموجب التكليف الديني في الحلال والحرام: الواجبات، والمستحبات، والنواهي، والمكروهات، والمباحات. هذا اليقين يجعل أفكارنا وأعمالنا أقرب إلى روح الإسلام وتعاليمه. وبمعنى ثالث أن اليقين بوجود الإمام المهدي يؤدي بنا إلى الدقة والإخلاص في تحصيل العلم الديني، وحسن تأدية العبادات والمعاملات على الوجه الصحيح، حتى نكون من مناصريه المخلصين حقاً.

---

[37] سورة لقمان: الآية 4.

[38] سورة السجدة: الآية 24.

ونذهب إلى خصوصية أخرى في هذا البحث، فنحن لا نتحدث عن اليقين النسبي الخاص بالإنسان فيما يتعلق بحاجاته الخاصة، فقد يتيقن من حصول ملكية الشيء إذا دفع ثمنه مثلاً. بل نتحدث في أمر الإمام المهدي (ع) عن اليقين المعرفي، وهو اليقين المستند على أسس عقلية معرفية.

أن تأكيد الروايات المتواترة عن الإمام (ع) من قبل رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع) جعلت للعقل الشيعي مناعة دائمية ضد الشك في قضية وجوده، ووضعت لذلك العقل ضوابط للتعامل الديني والأخلاقي مع غيبته.

فجعلت الأدعية وسيلة من وسائل الارتباط بالإمام الغائب (ع). ومن ذلك:

1 – يعلّم الإمام الصادق (ع) الموالين بالدعاء للمهدي: (اللهم لابد لأرضك من حجةٍ على خلقك، يهديهم إلى دينك، ويعلّمهم علمك، لئلا تبطُلَ حجتك، ولا يضل أتباعُ أوليائك، بعد إذ هديتهم، ظاهراً وليس بالمُطاع، أو مُكتِّماً مُترقِّباً إن غاب عن الناس شخصُهُ في حالِ هدنةٍ، لم يغب عنهم مثبوتُ علمهِ، فآدابُهُ في قلوب المؤمنين مثبتة، فهم به عاملون)[39].

في هذا الحديث يربي الإمام الصادق (ع) العقل الشيعي على ضرورة استشعار وجود المهدي (ع) في حياة الإنسان كي تستمر الهداية

[39] منتخب الأثر ص 272 عن إثبات الوصية.

الدينية، حتى لو كان غائباً بشخصه. فإن الإستشعار بوجوده حياً يثبت الحجة المُقامة على الناس يوم القيامة.

2 – دعاء الإمام الصادق (ع): (اللهُمَّ عرِّفني نفسَكَ، فإنك إن لم تُعَرِّفنِي نفسَكَ لم أعرف نبِيَّكَ، اللهم عرِّفني رسُولَكَ فإنك إنْ لم تعرِّفني رسُولَكَ لم أعرف حُجَّتَكَ، اللهم عرِّفني حُجَتَكَ فإنك إن لم تعرفني حُجَّتَكَ ضللتُ عن ديني)[40]. ومنطوق هذا الدعاء مشابهٌ في المعنى لمنطوق الدعاء الأول.

3 – وعن الإمام الصادق (ع): (ستُصيبكم شبهةٌ فتبقون بلا علمٍ يُرى ولا إمامِ هُدىً، ولا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق، قلتُ: كيف دعاءُ الغريق؟ قال: يقول: يا اللهُ يا رحمنُ يا رحيمُ، يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبِّت قلبي على دينِكَ. فقلتُ: يا اللهُ يا رحمنُ يا رحيمُ يا مقلِّبَ القلوبِ والأبصار ثبت قلبي على دينك. قال: إن الله تعالى مُقلِّبُ القلوبِ والأبصارِ، ولكن قل كما أقولُ لك: يا مقلبَ القلوبِ ثبت قلبي على دينك)[41].

وفي الحديث لفتة مهمة وهي التفريق بين القلب والبصيرة، فربما تغير القلب لشكٍ أو ريبةٍ، بينما تبقى البصيرة صاحبة اليقين ثابتة بيقينها، ولا نفهم كلمة (الأبصار) هنا بمعنى البصر، إذ لا معنى للبصر هنا. بينما نفهم منه البصيرة. ذلك أنك ترى بالبصر ظاهر الأشياء في الخارج، بينما تنظر بالبصيرة إلى حقائق الأشياء. وفي اللغة: البصيرة هي قوة الإدراك والفطنة. وجمعها: بصائر، وبصار.

---

[40] الكافي ج 1 ص 337.

[41] كمال الدين ج 2 ص 351– 352.

4 – وعن الإمام الصادق (ع): (اللهُ أعدلُ من أن يترك الأرض بلا عالمٍ يدُلُّ على الله عزوجل)[42]. و(أن القائم تمتد غيبته ليصحر الحق عن محضه[43]، ويصفو الإيمان من الكدر[44] بارتداد من كانت طينته خبيثةً من الشيعة الذين يُخشى عليهم النفاقُ إذا أحسوا بالاستخلاف والتمكين والأمن المنتشر في عهد القائم (ع)، (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا...)[45])[46].

بمعنى أن غيبة المهدي القائم (ع)، خلال حقبة زمنية طويلة، هو امتحانٌ لجميع المسلمين، فبها تصفو القلّة المنتَخبة التي ارتقت في فهمها إلى درجة اليقين.

---

[42] كمال الدين ص 136 – 137.

[43] يصحر الحق عن محضه: المحض: الخالص الذي لا يشوبه ما يخالطه، وصحر الأرض الخصبة: بوّرها. وظاهر المعنى: أن الغيبة ومحنها تستخلص القلّة النادرة من أهل اليقين عن غيرهم.

[44] الكدر: الراسب في أسفل الإناء.

[45] سورة يوسف: الآية 110.

[46] كمال الدين ص 355.

اليقين بوجود الإمام (ع) غائباً

ومعنى اليقين لغةً هو: العلم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر[47]، وقد يَقِن الأمر تَيَقُّن من باب تَعِب إذا ثبت ووضح[48]، ويُقال: يقن الماء في الحوض إذا استقرَّ فيه[49].

فاليقين اذن هو الثبوت والاستقرار، وسكون النفس، وطمأنينة القلب على حقيقة الشيء. ولا يدخل اليقين إلى قلب الإنسان وعقله إلا بعد علمٍ ناتجٍ عن نظرٍ واستدلالٍ.

وبطبيعة الحال فإن اليقين ثمرة من ثمرات العلم والدليل، فقد جعل العلماءُ اليقينَ أعلى رتب المعرفة والدراية، وما تعلق بهما من أفكار. فيقال علم اليقين ولا يقال معرفة اليقين. وهو سكون النفس مع إثبات الحكم. واليقين أبلغ علم وأوكده، لا يكون معه مجال عناد، ولا احتمال زوال[50].

ولذلك قال الإمام المهدي (ع): (عافانا الله وإياكم من الفتن، ووهبَ لنا ولكم روح اليقين)[51]. فهو يدعو لهم ليهبهم الله الاستقرار والثبات في قضية الإمامة وبالخصوص قضية غيبته، ويدعو لهم بسكون النفس، وطمأنينة القلب بوجوده، حاضراً في وجدانهم وعقولهم، غائباً عن أنظارهم،

---

[47] لسان العرب ج 13 ص 457 مادة يقن.

[48] معجم مقاييس اللغة ج 6 ص 157.

[49] غمز عيون البصائر ج 1 ص 193.

[50] المفردات في غريب القرآن – الراغب الاصفهاني ج 1 ص 552.

[51] بحار الأنوار ج 53 ص 179.

كما قال: (... إن غاب عن الناس شخصهم في حال هدنتهم فلم يغب عنهم قديم مثبوت علمهم ...)[52].

أنواع اليقين

ولليقين المنطقي بوجود المهدي (ع) أربعة أنواع مستقرأة من النصوص. فربما يتحقق اليقين برؤية الواقع الخارجي بالعين المجردة، وربما يتحقق بالتصديق بإزالة الشكوك، وربما يتحقق بالبصيرة وهي رؤية القلب رؤية داخلية، وربما يتحقق بالإيمان بالغيب، وأكثر عقائد الدين قضايا غيبية يصدّقها الوجدان وتكشفها البصيرة.

فمن أنواع اليقين:

أولاً: اليقين عن طريق رؤية العين بالمشاهدة: دلّ القرآن الكريم على العلم الواقعي بالشهادة، قال تعالى: (... إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[53]، فلابد للإنسان من التيقن بما رأى أو سمع عند الإدلاء بشهادته، وإلا فلا يشهد فيما لم يره ولم يسمعه. وحديث رسول الله (ص): (ألا ترى الشمس، على مثلها فاشهد أو دعْ)[54]، أفضل دليل على وضوح فكرة الشهادة على ضوء الدليل الحسي.

---

[52] وسائل الشيعة ج 18 ص 64.

[53] سورة الزخرف: الآية 86.

[54] الشرح الكبير – ابن قدامة ج 12 ص 7.

وأول دلائل اليقين في الإمام المهدي (ع) أنه ولد بعد منتصف القرن الثالث الهجري. وإقرار الأبوين بولادته كافٍ في الشهادة الحسية، إضافة إلى شهادة السيدة حكيمة عمة الإمام العسكري (ع) بولادته، ثم شهادة الأصحاب برؤيته وهو صبي قبل وفاة والده، كما سيأتي.

وولادة المهدي (ع) في ظروف قاهرة، وتحت سلطان ظالم لم تكن الحادثة الأولى من نوعها في التاريخ، فقد سبقتها ولادات مشابهة لأنبياء (ع) في ظل طواغيت، كما حصل عند ولادة موسى (ع) زمن فرعون. وولادة محمد بن الحسن المهدي (ع) وظروفها مشابهة لظروف ولادة النبي موسى بن عمران (ع). فقد كان فرعون يقضي بذبح كل وليد يولد لأسرة يهودية، وكانت الظروف الملازِمة لولادة الإمام المهدي (ع) صعبة للغاية لأن السلطة العباسية كانت تعتقد يقيناً أن ولادةَ ابنٍ للإمام العسكري (ع) يعني أنه هو التاسع من ولد الإمام الحسين (ع)، وهو الذي تضافرت النصوص النبوية المتواترة على ولادته، وأن اسمه يطابق اسم خاتم الأنبياء محمد (ص) الذي تناولته أحاديث رسول الله (ص).

وإذا أردنا اليقين عن هذا الطريق، وهو طريق رؤية العين بالمشاهدة، فقد كانت ولادة الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع) في الخامس عشر من شهر شعبان سنة 255 هـ، أحد مصاديق ذلك اليقين. فقد ثبّت الإمام العسكري (ع) ولادة ابنه، وتلك شهادة لوحدها تورث اليقين من إمام صادق كُتبت له العصمة والطهارة من آل محمد (ص)، وكذلك شهادة السيدة

حكيمة بنت الإمام الجواد (ع) التي حضرت ولادته، وحاولت إخفاء مولده أيضاً[55].

ولم يقتصر ذلك اليقين على الولادة فحسب، بل اجتمعت طائفة من الثقات إلى الإمام العسكري (ع)، قُدّرت بأربعين رجلاً، يسألونه عن الإمام المهدي (ع) فأخرجه إليهم، فلما رأوه قالوا: "فإذا غلامٌ كأنه قطعة قمر، أشبه الناس بأبي محمد"[56] أي أشبه الناس بأبيه.

وفي مناسبة ثانية يسأله أحد أصحاب الإمام العسكري (ع) وهو الثقة أحمد بن إسحق، عن صاحب الأمر من بعده، فقام الإمام العسكري (ع) وأخرج له غلاماً "كان وجهه القمر ليلة البدر، من أبناء ثلاث سنين..."[57].

وفي مناسبة ثالثة يسأله يعقوب بن منقوش: من صاحب الأمر بعدك؟ يجيبه الإمام العسكري (ع) برفع الستر "فيخرج إليهم غلامٌ خماسي[58] له عشر أو ثمان[59] أو نحو ذلك، واضح الجبين[60]، أبيض

---

[55] الإرشاد – الشيخ المفيد ص 389 – 390.

[56] الغيبة – الشيخ الطوسي ص 217.

[57] كمال الدين ج 2 ص 384.

[58] خماسي: منسوب إلى الخمسة، والخماسي من الغلمان ما طوله خمسة أشبار.

[59] عشر أو ثمان سنين.

[60] الجبينُ: ما فوق الصدغ عن يمين الجبهة أو شمالها، وواضح الجبين أي حسن الجبين.

الوجه، دريّ المقلتين[61]، شتن الكفين[62]، معطوف الركبتين[63]، في خده الأيمن خال[64]، وفي رأسه ذؤابة[65]..."[66].

من الناحية الموضوعية، لابد لنا من وضع تلك الروايات في إطار ذلك الزمان الصعب الذي رُوِّعَ فيه شيعة أهل البيت (ع)، وكانت السلطة العباسية تطاردهم في كل مكان، وتُضيّق على أئمة الهدى (ع) إلى درجة أنهم حبسوا عيال الإمام العسكري (ع)، وخططوا لقتل الوليد كي تُمحى إلى الأبد فكرة المهدي، وتُزال من الوجود فكرة محاربة الظلم وإقامة العدل. إلا أن إرادة الله تعالى كانت أقوى من إرادتهم، وأنّ ما صممته الإرادة الالهية قد تحقق حتماً رغم تلك الظروف الصعبة.

ثانياً: اليقين عن طريق التصديق بالغائب بإزالة جميع الشكوك:

يتحقق اليقين أيضاً بإزالة الشكوك، عبر إقامة إستدلال معرفي ينقض الأوهام المُثارة الواحد تلو الآخر. ولعل أهم الأدلة المعرفية هو

---

[61] مقلة العين: شحمة العين التي تجمع السواد والبياض، وأيضاً: المُقلة تعني العين كلها. دري المقلتين: نسبة إلى الدرّ في حسنه وبهائه.

[62] شتن الكفين: الشتن يعني النسج، وشتن الكفين ربما أراد تناسق خلقتهما.

[63] معطوف الركبتين: معطوف اسم مفعول من عَطَفَ. وعطَفَ الغصن أمالَهُ.

[64] الخال: شامة أو نكتة سوداء في البدن.

[65] الذؤابة: شعر مقدَّم الرأس.

[66] الغيبة – الطوسي ص 353.

التواتر المستفيض للروايات الخاصة بالمهدي (ع) الواردة عن رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع). وقد ذكرنا شطراً منها فيما مضى.

وعلى مدى التاريخ الإسلامي لمسنا الأثر الذي تركته تلك الروايات المتواترة على الفقهاء والعلماء من جميع المذاهب الفكرية. ومن مصاديق ذلك الأثر قول الحافظ محمد بن الحسين الآبري السجري (ت 363 هـ) في كتابه (مناقب الشافعي): " وقد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله (ص) بذكر المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلاً، وأن عيسى بن مريم (ع) يخرج فيساعده على قتل الدجال، وأنه يؤم هذه الأمة، ويصلي عيسى (ع) خلفه، في طولٍ من قصته وأمره"[67].

وقول ابن الأثير (ت 630 هـ) في (النهاية) في شرح اسم (المهدي): " قد أستعمل في الأسماء حتى صار كالأسماء الغالبة وبه سُميَّ المهدي الذي بشّر به رسول الله (ص) أنه يجيء آخر الزمان"[68].

وإذا علمنا بأن الآبري قد توفي سنة 363 هـ وأن ابن الأثير قد توفي سنة 630 هـ ، لاستنتجنا أن ذكرهم الإمام المهدي (ع) بتلك الطريقة فيه دلالة على أن خبره الذي بشر به النبي (ص) كان قضية متعارفة في الأزمان المتقدمة، يبحثونها بحث المسلّمات. بعدها أصبحت مسألة المهدي من الأمور المتداولة بكثرة في القرون اللاحقة.

---

[67] تهذيب الكمال – المزي ج 6 ص 596، نقلاً عن مناقب الشافعي للأبري.

[68] النهاية – ابن الأثير ج 5 ص 254.

قال ابن خلدون (ت 808 هـ): " اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر الأعصار أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويُظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى المهدي. ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده، فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته"[69].

ومحمد بن رسول الحسيني البرزنجي (ت 1103 هـ) قال في كتاب (الإشاعة في أشراط الساعة): " الباب الثالث في الأشراط العظام، والأمارات القريبة التي تعقبها الساعة، وهي أيضاً كثيرة فمنها: المهدي وهو أولها، واعلم أن الأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها لا تكاد تنحصر"[70]. ومفاده أن كثرة الأحاديث في المهدي (ع) تقتضي التواتر، وهو يعني أن الناس على اختلاف أذواقهم ومشاربهم لا يتفقون على الكذب في قضية من هذا الطراز.

وقال أيضاً: " قد علمت أن أحاديث وجود المهدي وخروجه آخر الزمان وأنه من عترة رسول الله (ص) من ولد فاطمة بلغت حد التواتر المعنوي فلا معنى لإنكارها"[71]. ومفاده أن إنكار البعض نسبة المهدي (ع)

---

[69] تاريخ ابن خلدون – المقدمة ج 1 ص 555.

[70] الإشاعة لإشراط الساعة – البرزنجي ص 87.

[71] الإشاعة ص 112.

إلى فاطمة الزهراء (ع) لا يصمد أمام الأدلة الصحيحة التي تؤكد على كونه من أئمة أهل البيت (ع) الطاهرين الذين طهرهم الله تعالى عن المعصية والجهل.

وأضاف في مكان آخر من كتابه: " وغاية ما ثبت بالأخبار الصحيحة الكثيرة الشهيرة التي بلغت حد التواتر المعنوي وجود الآيات العظام التي منها بل أولها خروج المهدي وأنه يأتي في آخر الزمان من ولد فاطمة يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً " [72]. ومفاده أن المهدي من أئمة أهل البيت (ع) حقيقة يقينية لابد من الإيمان بها.

وقال بالتواتر المعنوي، ويقصد به تواتر الروايات بالمعنى المشترك، وهو خروج المهدي (ع) من ولْد فاطمة الزهراء (ع) آخر الزمان، مع اختلاف إلفاظها.

ونستنتج مما نقلناه من نصوص متضافرة أن المتقدمين والمتأخرين من العلماء في العصور المتتالية قد آمنوا يقيناً بظهور المهدي في آخر الزمان استناداً على أقوال رسول الله (ص) بشأنه. فإذا كان المهدي (ع) من ذرية رسول الله (ص) فلابد أن يكون قد وُلِدَ من أهل بيته (ع) ولدٌ امتلك تلك المواصفات التي وصفها إياه رسول الله (ص)، ولابد لذلك المولود أن يكون حيّاً منتَظراً.

---

[72] الإشاعة ص 189.

ثالثاً: اليقين عن طريق رؤية الأشياء بالبصيرة:

أن ما لا يدرك بالعين المجردة قد يدرك بالبصيرة. والبصيرة هي نور الله تعالى في الإنسان المؤمن، حيث يستطيع الإنسان أن يرى الأشياء بالدليل العقلي أو ما وراءه، وليس بالضرورة بالعين المجردة.

ولو قرأنا الرواية التالية لرأينا أن الإمام (ع) يستدل بدليلٍ عقلي على المنكرِين، ويعلمهم بأن غيبته وظهوره وتكليفه هو أمرٌ من الغيب، ويضرب بأمثلة قرآنية، منها: ابن نوح الذي لم يؤمن – ظاهراً – بقدرة الله تعالى في القضاء المحتوم؛ ومنها: أخوة يوسف (ع) الذين لم يعرفوا نبوته، وكادوا مكيدتهم في محاولة قتله.

ففي التوقيع بخطه (ع) في مسائل أشكلت على إسحاق بن يعقوب أرسلها مع محمد بن عثمان العمري، قال الإمام المهدي (ع): (أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك من أمر المنكرين لي من أهل بيتنا وبني عمنا، فاعلم أنه ليس بين الله عزوجل وبين أحدٍ قرابة، من أنكرني فليس مني، وسبيله سبيل ابن نوح (ع)، وأما سبيل عمي جعفر وولده فسبيل أخوة يوسف (ع)...)[73].

ولو فعّلَ المرءُ بصيرته لرأى أن أهل البيت (ع) إبتداءً من رسول الله (ص) وحتى الإمام العسكري (ع)، ولمدة تزيد على قرنين ونصف من الزمان، يأكدون على نفس المسألة المتعلقة بالمهدي (ع)، ويعطون صفاته، ويتناولون طبيعة غيبته وظهوره، وطبيعة الموالين له.

---

[73] الإحتجاج – الطبرسي ج 2 ص 283.

ولم يكن هناك ادنى تعارضٍ أو تناقضٍ في أقوالهم. وهذا الدليل بحد ذاته يمنحنا يقيناً قلبياً وجدانياً بصحة إدعائهم. ذلك اليقين هو يقين البصيرة.

رابعاً: اليقين عن طريق الإيمان بالغيب وتصديقه:

قال الله تعالى في وصف المؤمنين ووصف حالهم: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...)[74]. والغيب خلاف الشهادة، وكل شيء غير محسوس أو غير مرئي يطلق عليه لفظ (الغيب). ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالوحي، والإيمان بالآخرة، والإيمان بنبوة محمد خاتم الأنبياء (ص) لمن لم يرهُ في حياته، والإيمان بإمامة أهل البيت (ع)، وآخرهم المهدي (ع). وكل ذلك ينبغي أن يكون إيماناً يقينياً.

ويؤيد ذلك حديث رسول الله (ص): (أن علياً إمامُ أمتي من بعدي، ومن وِلْدِه القائمُ المنتظرُ (ع) الذي إذا ظهر يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً. والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً أن الثابتين على القول بإمامته في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر)[75].

فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا رسول الله لولدك القائم غيبة؟ قال (ص): (أي وربي ليمحصنّ الذين آمنوا ويمحق الكافرين.

---

[74] سورة البقرة: الآية 3.

[75] بحار الأنوار ج 51 ص 73، ج 36 ص 257.

يا جابر أن هذا الأمر من الله، وسرٌّ من سر الله، مطوي عن عباد الله، فإياك والشك فيه، فإن الشك في أمر الله عزوجل كفر)[76].

هذا اليقين بالغيب هو أعلى درجات اليقين، فالإيمان بأمر غائب عن الأنظار يعبّر عن قوة العقل الذي خلقه الله تعالى في الإنسان، وبه يستطيع أن يعتقد بأمر من الله غاب عن بصره، لكنه رآه في عقله، وأحسّ به في وجدانه.

من موارد اليقين

ومن موارد اليقين التي تعدُّ مصداقاً من مصاديق ذلك الإطمئنان العقلي والروحي الذي يعيشه الإنسان، جملة من الروايات الدالة على كون المهدي (ع) من أهل بيت النبوة (ع)، ومنها:

1 – الأخبار الواردة من أن المهدي من وُلْدِ فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص). منها: عن الإمام السجاد (ع): (المهدي من وُلْدِ فاطمة بنت رسول الله (ص))[77]، وعن الإمام الحسن (ع): (والله إنه لعهدٌ عهدهُ إلينا رسولُ اللهِ (ص)، أنَّ هذا الأمرَ يملكه اثنا عشر إماماً من ولد علي وفاطمة

[76] كمال الدين ج 1 ص 316.

[77] إثبات الهداة ج 1 ص 712.

(ع)، ما منا إلا مسمومٌ أو مقتول)[78]، و(الأئمة بعد رسول الله (ص) إثنا عشر، تسعةٌ من صُلبِ أخي الحسين، ومنهم مهديُّ هذه الأمة)[79].

وهذا التواتر والشياع غير المسبوق في كون المهدي (ع) من وُلْدِ فاطمة الزهراء (ع) يعدُّ مورداً من موارد اليقين، لأن الناس على مر السنين لا تتفق على شيء ما لم يكن له أصلٌ ومصداقية. خصوصاً في موضوع عقائدي يهمُّ كلّ فردٍ من المسلمين. فطالما كان المهديُّ (ع) وعداً من وعود رسول الله (ص) الصادقة كان الناسُ في كل جيلٍ يتوقعون ظهوره في جيلهم، ثم يوصون الأجيال القادمة بترقب ظهوره. وهكذا عاش المهدي من ذرية فاطمة الزهراء (ع) يقيناً في عقل الأمة الإسلامية.

2 – صرحت الروايات المتواترة عن رسول الله (ص) عن كون المهدي (ع) من آل محمد (ص) عموماً، وأنه التاسع من اولاد الحسين (ع) بالخصوص، ومن ذلك قول الإمام أمير المؤمنين (ع) للحسين (ع) كما رواه الشيخ الصدوق (ت 329 هـ): (التاسع من ولدك يا حسين هو القائم بالحق، المُظهِر للدين، الباسط للعدل)[80]. وعن الإمام الحسين (ع): (قائمُ هذه الأمة هو التاسعُ من ولدي، وهو صاحبُ الغيبة، وهو الذي يُقسمُ ميراثُهُ وهو حي)[81].

---

[78] كفاية الأثر ص 226.

[79] كفاية الأثر ص 223.

[80] بحار الأنوار ج 51 ص 110.

[81] كمال الدين ج 1 ص 317.

وعن الإمام الصادق (ع): (سُئِلَ أمير المؤمنين (ع) عن معنى قول رسول الله (ص): إني مخلِّفٌ فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي، مَنِ العترةُ؟ فقال (ع): أنا والحسنُ والحسينُ والأئمةُ التسعةُ من وُلْدِ الحسين، تاسعهم مهديهم، لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم حتى يردوا على رسول الله (ص) حوضه)[82].

فإذا أحصينا ذرية الحسين (ع) من أئمة أهل البيت (ع) لكان: الإمام السجاد (ع)، والباقر (ع)، والصادق (ع)، والكاظم (ع)، والرضا (ع)، والجواد (ع)، والهادي (ع)، والعسكري (ع)، والمهدي (ع). ولو ذكرناهم باسمائهم لكانوا: علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، ومحمد بن الحسن وهو التاسع من ولد الإمام الحسين (ع).

ومن الثابت تاريخياً أن الإمام العسكري (ع) قد استشهد بالسُم الذي دسه له المعتمد العباسي في الثامن من ربيع الأول من السنة الستين بعد المائتين للهجرة، عن عمر ناهز الثامنة والعشرين عاماً. وشُيع، ودفن أمام الملأ في بيته في سامراء وهو نفس البيت الذي دُفن فيه والده الإمام علي الهادي (ع).

وإذا كان ابنه محمد (ع) فلابد من ولادته في حياة أبيه، بموجب حديث رسول الله (ص). فالإمام المهدي (ع) مولود وحيٌّ حتى يظهر كي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

---

[82] كمال الدين ج 1 ص 240.

وهذا المقدار من معرفة التاريخ الصادق مهم في تثبيت الإطمئنان واليقين بكونه حياً يرزق، غائباً عن الأنظار، شاخصاً بفكره، ومعروفاً بتعلق الموالين به.

3 – عُدَّ الموت أحد موارد اليقين لأنه إرادة حتمية لله تعالى في خلقه، وقد قال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)[83]، (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)[84]، وطالما كان علمنا بالموت قطعياً كان ذلك العلم يقينياً. فاليقين لا يحصل إلا بعلمٍ قاطعٍ. وقد شبّه له القرآن الكريم بالقطعية، وسمى الموت يقيناً لقطعيته كما قال تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)[85].

ولا يمكن أن يكون العلم أخص من اليقين، ذلك لأن اليقين لا يأتي إلا عن طريق العلم، ومن آمن بغير ذلك فقد دخل في مغالطة، كما بيّنا سابقاً بأن اليقين لا يحصل إلا بعلمٍ قاطعٍ، وما عداه جهلٌ قاطع.

وإذا كان الموت يقيناً، وإذا كانت الآخرةُ والقيامةُ يقيناً، وإذا كانت الرسالة السماوية يقيناً، فلِمَ لا نتيقن قول رسول الله (ص) بأن من ذريته من يظهر آخر الزمان فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ؟

---

[83] سورة العنكبوت: الآية 57.

[84] سورة الرحمن: الآية 26.

[85] سورة الحجر: الآية 99.

نستلهم ذلك القَطْع واليقين من كلام الإمام أمير المؤمنين (ع): (اللهم لابد لأرضك من حجةٍ على خلقك يهديهم إلى دينك ويُعلّمهم علمك...)[86].

ثم يقول في المهدي (ع): (... قد لبس للحكمة جُنّتها، وأخذها بجميع أدبها، مِنَ الإقبالِ عليها، والمعرفةِ بها، والتفرغِ لها، فهي عند نفسه ضالَّتُه التي يطلبها، وحاجتُه التي يسألُ عنها، فهو مغتربٌ إذا اغترب الإسلام[87]، وضربَ بعسيبِ ذنبهِ، وألصقَ الأرضَ بجرانِه، بقيةٌ من بقايا حُجَّتهِ، خليفةٌ من خلائف أنبيائهِ)[88]. وأنّى له (ع) من مغترِب يغترب مئات السنين وحيداً ينتظر أمر الله تعالى في الخروج.

4 – صفات آل محمد (ص) تمنحنا اليقين في كونهم أهلٌ لتلك المهمة العظمى، وفيها قول الإمام أمير المؤمنين (ع) في وصفهم: (... ألا إنّ آل محمد (ص) كمثلِ نجومِ السماءِ إذا هوى نجمٌ طلعَ نجمٌ، فكأنكم قد تكاملتْ من اللهِ فيكم الصنائعُ، وأراكم ما كنتم تأملون)[89]، وهو يعني استمرارية وجود أئمة الهدى (ع)، وعدم خلو الأرض منهم، كي يكونوا حجةً من الله تعالى على الناس إلى يوم القيامة.

---

[86] دلائل الإمامة – الطبري ص 530.

[87] ينابيع المودة ص 437 ب 74. قال: وبقوله فهو أي المهدي مغترب.

[88] شرح نهج البلاغة – صبحي الصالح ص 263 خطبة 182.

[89] شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد ج 7 ص 84 ح 99.

ولم يتباطئ الإمام السجاد (ع) في ذكر صفاتهم، وفي كونهم أهلاً للمسؤولية الكبرى في هداية الأمة، فقال: (إن الله تعالى أعطانا الحلمَ والعلمَ والشجاعةَ والسخاوةَ والمحبةَ في قلوب المؤمنين، ومنا رسولُ الله، ووصُّيه، وسيدُ الشهداء، وجعفرُ الطيار في الجنة، وسبطا هذه الأمة، والمهديُّ...)[90].

لِمَ لا والإمام المهدي (ع): (رجلٌ من عترتي، يقاتلُ على سنتي كما قاتلتُ أنا على الوحي)[91]، كما قال رسول الله (ص). وأضاف: (يقفو أثري لا يخطئ)[92]، ومعنى (لا يخطئ): يعصمه الله تعالى بلطفه عن الخطأ. ويلخصه (ص) بكلمة غنية جامعة مانعة، وهي: (المهدي حقٌ...)[93].

فلسفة الشك: نقض الشكوك المُثارة

وما أن انتهينا من بحث موضوع اليقين، كان لابد من بحث موضوع الشك. فقد قرأنا عبارة الإمام المهدي (ع) في رسالته يصف شكوكهم: (... أنه أُنهي إليَّ ارتياب جماعة منكم في الدين، وما دخلهم من الشك والحيرة في ولاة أمرهم...)[94]. فذُكِرَ الشك مقابل اليقين.

---

[90] منتخب الأثر ص 172.

[91] الفتن – ابن حماد ج 1 ص 371.

[92] الفتوحات المكية – ابن عربي ج 3 ص 332.

[93] الفتن – ابن حماد ج 1 ص 374.

[94] بحار الأنوار ج 13 ص 247.

فالشك هو: التداخل[95] الذي يؤدي إلى الجهل وعدم الوضوح، ذلك لأن الأمر يستوي عند الشّاك، فلا يجزم ولا يظنّ، بل هو في موقف الحيرة والتردد.

والشك، كما هو معروف، خلاف اليقين، و" إنما سُمّي بذلك كأنه شكّ له الأمران في مشكّ واحد وهو لا يتيقّن واحداً منهما، فمن ذلك اشتقاق الشكّ. تقول شككت بين ورقتين[96] إذا أنت غرزت فجمعتهما"[97]. وذهب بعض اللغويين إلى أن معنى الشك هو: " اضطراب القلب والنفس"[98].

وفي الاصطلاح، الشك عند أهل الكلام هو: " التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك"[99]. وهو ضربٌ من الجهل وأخصّ منه، لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيض رأساً، أو العلم بهما، مع عدم إدراك الراجح. فكل شك جهل ولا يصح العكس[100].

إذن الشك هو من " قبيل التصوّرات لا التصديقات"[101]. ذلك أن الشك يقتضي إدراك وقوع الشيء أو عدم وقوعه، كما يقتضي إدراك

---

[95] معجم مقاييس اللغة ج 3 ص 173.

[96] الورق من الشجر، وجلود رقاق يُكتب عليها. وغَرَزَ الإبرة في شيء أدخلها فيه وأثبتها.

[97] معجم مقاييس اللغة ج 3 ص 173.

[98] المصباح المنير ص 177.

[99] التعريفات – الجرجاني ص 113.

[100] كشاف اصطلاحات الفنون ج 2 ص 780. ا

[101] شرح مختصر المنتهى (حاشية التفتازاني على مختصر المنتهى) ج 1 ص 63.

الطرفين، وإدراك النسبة الحكمية أيضاً. فالإنسان لا يشك فيما لا يعلمه بالمرّة، بل يكون شكه فيما يعلمه، ولكن بنسبة النصف بين هذا وذاك.

وإدراك الشك يمكن أن يُعدّ من قبيل التصور، أي من الضروري، وبعد زوال الشك يكون الوقوع واللاوقوع من قبيل التصديق، أي النظري[102].

ولم يكن أئمة أهل البيت (ع) بعيدين عن تلك المعضلة التي قد تصيب الإنسان زمن الغيبة حيث يدغدغ الشك عقله، فيذهب بعيداً عن واحة اليقين. بل نبّهوا اتباعهم إلى تلك المحنة، محنة الشك والريبة والإهتزاز. ومن ذلك قول الإمام الصادق (ع): (أما والله ليغيبن عنكم مهديكم حتى يقول الجاهلُ منكم: ما للهِ في آل محمدٍ حاجةٌ، ثم يُقبل كالشهاب الثاقب فيملؤها عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً)[103]، ومنه قول الإمام الباقر (ع): (يأتي على الناس زمانٌ يغيب عنهم إمامهم، فيا طوبى للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان. إنّ أدنى ما يكون لهم ما يكونُ لهم من الثواب أن يناديهم الباري عزوجل فيقول: عبادي وإمائي، آمنتم بسري وصدّقتم بغيبي، فأبشروا بحُسنِ الثواب مني، فأنتم عبادي وإمائي حقاً، منكم أتقبل، وعنكم أعفو، ولكم أغفر، وبكم أُسقي عبادي الغيث، وأدفع عنهم البلاء، ولولاكم لأنزلتُ عليهم عذابي)[104].

---

[102] شرح مختصر المنتهى (حاشية الهروي على حاشية الجرجاني) ج 1 ص 63، 64.

[103] كمال الدين ج 2 ص 341.

[104] كمال الدين ج 1 ص 330.

تداخل الحقيقة مع الوهم:

وما قرأناه لحد الآن، يوضح فكرة أن ظاهرة تقاطع الحقيقة مع الوهم أمرٌ ممكنٌ، بل متكرر بين المسلمين زمن غيبته. ذلك التداخل يؤدي إلى عدم وضوح الحقيقة، بل إلى اضطراب القلب والعقل. فالتردد بين أمرين متناقضين وهما: وجوده الحقيقي (ع) أو نفي وجوده، بلا ترجيح لأحدهما على الآخر يؤدي إلى الشك بأصل الرواية المتواترة الواردة عن رسول الله (ص). وتلك مشكلة، لا تعالج إلا بتثبيت أدلّة اليقين بوجوده: غائباً بشخصه، شاخصاً بفكرته وحياته.

وقد قرأ الإمام الباقر (ع) أفكار الناس فقال لهم: (إنما نحنُ كنجوم السماء كلما غابَ نجمٌ طلع نجمٌ، حتى إذا أشرتم بأصابعكم، وملتم بأعناقكم، غيّب الله عنكم نجمكم، فاستوت بنو عبد المطلب، فلم يُعرف أيٌّ من أيٍّ، فإذا طلعَ نجمُكُم فاحمدوا ربكم)[105]، و(إنّ للقائم غيبتين، يُقال له في إحداهما: هلكَ ولا يُدرى في أي وادٍ سَلَكَ)[106].

والشك والاضطراب الفكري من سنن الحياة الدنيوية، وإنما يحصل عند الناس لهدفٍ معينٍ، ولخدمة نظامٍ رباني. ذلك أن الشك واليقين نظامٌ لغربلة الناس، وتمحيص ثباتهم وقوة اعتقادهم. فمن ثبت على الحق، وتيقن بالمصير فقد ثبت على المنهج. وقد فسّر الإمام الباقر (ع) قضية الشك بكونها نظاماً لغربلة الناس وتمييز الصادق في إيمانه عن غيره، فقال:

---

[105] الكافي ج 1 ص 338.

[106] الغيبة – النعماني ص 178.

(هيهات هيهات، لا يكونُ فرجُنا حتى تغربَلوا، ثم تغربَلوا، ثم تغربَلوا، يقولها ثلاثاً حتى يُذهبَ اللهُ تعالى الكَدَرَ ويُبقي الصفوَ)[107]، (واللهِ لتميزُنَّ، واللهِ لتمحّصُنَّ، واللهِ لتُغربَلُنَّ كما يُغربلُ الزُّوانُ[108] من القمحِ)[109].

ويفصّل الإمام الصادق (ع) في شرح ذلك، قائلاً: (في أي شيءٍ أنتم؟ هيهات هيهات، لا واللهِ لا يكونُ ما تمدُّون إليه أعينكم حتى تُغربَلُوا، لا واللهِ لا يكونُ ما تمدُّون إليه أعينكم حتى تُمحَّصوا، لا واللهِ لا يكونُ ما تمدُّون إليه أعينكم حتى تُمَيَّزوا، لا واللهِ ما يكونُ ما تمسُّون إليه أعينكم إلا بعد إياسٍ، لا واللهِ لا يكونُ ما تمدُّون إليه أعينكم حتى يَشْقَى من يشقى، ويَسْعد من يسعد)[110].

فالغفلة الإجتماعية لا تنتشل الإنسان من الشك، ولا تنقله إلى اليقين؛ وطالما كان الاعتقاد أمراً قلبياً فلابد للإنسان أن يُمتحن في عقيدته ويُبتلى. وهكذا يطحن الشكُ الناسَ طحناً حتى يغربلهم حبةً حبةً، فيبقى أهلُ اليقينِ على يقينهم، فيتميزون به عن غيرهم.

ولا يختلف الشك في الاعتقاد عن الشك في الفقه، ففي كليهما يجب تحصيل اليقين العقلي أو الشرعي. والاختلاف بينهما هو أن اليقين العقائدي يجب تحصيله بالدليل. أي لابد من البحث والتيقن حول الإمامة مثلاً، وما يتفرع عنها من إمامة الإمام الثاني عشر (ع) من أئمة أهل

---

[107] الغيبة – الطوسي ص 339 ح 287.

[108] الزوان: حب ردئ يخالط القمح.

[109] الغيبة – النعماني ص 213.

[110] الكافي ج 1 ص 370 – 371.

البيت (ع)، والإيمان بغيبته، والإيمان بظهوره لإقامة العدل والقسط بين الناس. أما الشك في الفقه فله نتائج مختلفة.

فقد أريد بالشك في المسائل الفقهية التردد بين وجود الشيء وعدمه، بحيث يتساوى الإحتمالان فيتساقطان. وتوضيحه أنه "إذا شكَّ فقد تعارضَ عنده الأمران، فيجب سقوطهما، كالبينتين إذا تعارضتا، ويرجع إلى اليقين، ولا فرق بين أن يغلب على ظنه أحدهما، أو يتساوى الأمران عنده؛ لأن غلبة الظنّ، إذا لم تكن مضبوطة بضابط شرعي لا يلتفت إليها، كما لا يلتفت الحاكم إلى قول أحد المتداعيين إذا غلب على ظنه صدقه، بغير دليل"[111].

وعند جهل المكلف بالحكم الشرعي أو بموضوعه، يكون الشك مجرىً لأحد الأصول العقلية: كالبراءة العقلية، والإحتياط، أو لأحد الأصول الشرعية: كالإستصحاب، والبراءة الشرعية. ففي الشك في الشبهات الموضوعية والحكمية تتعين وظيفة الجاهل بالواقع بتطبيق أحد الأصول الأربعة وهي: البراءة، والتخيير، والإحتياط، والإستصحاب.

" فالمكلّف إذا التفت إلى حكم شرعي فإما أن يحصل له الشك فيه، أو القطع، أو الظن، فإن حصل له الشك فالمرجِع فيه هي القواعد الشرعية الثابتة للشاك في مقام العمل"[112]. وهي الأصول الأربعة التي ذكرناها آنفاً.

---

[111] المغني – ابن قدامة ج 1 ص 197.

[112] فرائد الأصول – الشيخ الأنصاري ج 1 ص 2.

والخلاصة: أن الشك من قبيل التصورات لا التصديقات، فإذا وقع الشك فلابد أن يكون ناتجاً عن الوهم. فالتصور يمكن أن يُخطئ. ولكن الاعتقاد الصحيح غالباً ما يكون ناتجاً عن طريق العلم والدليل، فيكون اعتقاداً ثابتاً. فالاعتقاد ينبغي أن ينبع عن علمٍ. والشك خلاف العلم. ولا يمكن بناء الاعتقاد على الظن أو الوهم. فلا طريق لنا في الاعتقاد بالمهدي (ع) – وجوداً وغيبةً – إلا عن طريق اليقين، وذلك باستحضار أحاديث رسول الله (ص) المتواترة، وأقوال أئمة الهدى (ع) المتضافرة، والشواهد التاريخية التي تعاضد بعضها بعضاً.

النصوص المتواترة التي تُحكِم اليقين

من الطبيعي إن تواتر النصوص عن رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع)، وتضافرها بالتنبؤ بكون المهدي (ع) الولد التاسع من أولاد الحسين (ع)، وانسيابها بشكل متناسقٍ، ومتوازٍ يمنحنا اليقين القطعي بوجود الإمام (ع)، وحضوره، وغيبته بإرادة آلهية حتمية. ومن تلك النصوص المرتبة على اساس تاريخي:

1 – رسول الله محمد (ص) (ت 11هـ): (ينزل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم، ولم يُسمع بلاءٌ أشدُّ منه، حتى تضيق بهم الأرض الرحبة، وحتى تملأ الأرض جوراً وظلماً، لا يجد المؤمن ملجأً يلتجئ إليه

من الظلم، فيبعث الله رجلاً من عترتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً...)[113].

2- فاطمة الزهراء (ع) (ت 11 هـ): عن الإمام الحسين بن علي (ع) قال: قالت لي أمي فاطمة (ع): لما وَلْدتُك دخل عليَّ رسول الله (ص)... ثم قال (ص): يا فاطمة خذيه، أنه أبو الائمة التسعة من ولده أئمة أبرار، التاسع قائمهم)[114].

3 – الإمام علي بن أبي طالب (ع) (ت 40 هـ) : (والمهدي منّا في آخر الزمان، لم يكن في أمّة من الأمم مهدي يُنتَظر غيره)[115]. ومشابهٌ لهذا الحديث خمسون حديثاً بصيغ مختلفة وبطرق متباينة.

4- الإمام الحسن بن علي (ع) (ت 50 هـ): (الائمة بعد رسول الله (ص) اثنا عشر، تسعةٌ من صلب أخي الحسين، ومنهم مهدي هذه الأمة)[116].

5 – الإمام الحسين بن علي (ع) (ت 61 هـ): (منّا اثنا عشر مهدياً أوّلهم علي بن أبي طالب وآخرهم التاسع من ولدي، وهو الإمام القائم بالحق يُحيي الله به الأرض بعد موتها، ويُظهر به دين الحق على الدين كلّه ولو كره المشركون، له غيبة يرتدّ فيها أقوام، ويثبت على الدين فيها آخرون، فيؤذون ويقال لهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ أما أن الصابر في غيبته على الأذى والتكذيب بمنزلة المجاهـد بالسيف بين يدي رسـول الله

---

[113] الصواعق المحرقة – ابن حجر ص 161.

[114] إثبات الهداة ج 2 ص 552.

[115] إثبات الهداة ج 7 ص 148.

[116] إثبات الهداة ج 2 ص 555.

صلى الله عليه وآله)[117]. ومشابهٌ لهذا الحديث ثلاثة عشر حديثاً بطرق مختلفة.

6 – الإمام علي بن الحسين (ع) (ن 95 هـ): (القائم منّا تخفى ولادته على الناس حتى يقولوا لم يولد بعد، ليخرج حين يخرج وليس لأحد في عنقه بيعة)[118].

7 – الإمام محمد الباقر (ع) (ت 114 هـ): عن أبان بن تغلب قال سألت الإمام الباقر (ع) عن الإمامة، فقال (ع): (والله أنه لعهدٌ عهده إلينا رسول الله (ص) أن الائمة بعده اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين، ومنا المهدي يقوم بالدين في آخر الزمان)[119]. ومشابهٌ لهذا الحديث إثنان وستون بصيغ مختلفة وطرق إسناد متباينة.

8 – الإمام جعفر الصادق (ع) (ت 148 هـ): (من أقرّ بجميع الائمة وجحد المهدي كان كمن أقرّ بجميع الأنبياء وجحد محمداً (ص) نبوته). فقيل له: يابن رسول الله مِمّن المهدي؟ من ولدك؟ قال (ع): (الخامس من ولد السابع [أي الإمام الكاظم (ع)] يغيب عنكم شخصه ولا يحلّ لكم تسميته)[120]. ومشابهٌ لهذا الحديث مائة وثلاثة وعشرون حديثاً بصيغ مختلفة وطرق مختلفة.

---

[117] بحار الأنوار ج 51 ص 133.

[118] بحار الأنوار ج 51 ص 135.

[119] إثبات الهداة ج 2 ص 559.

[120] بحار الأنوار ج 51 ص 143.

9 – الإمام موسى الكاظم (ع) (ت 183 هـ): عن يونس بن عبد الرحمن قال: دخلت على موسى بن جعفر (ع) فقلتُ له: يابن رسول الله أنت القائم بالحق؟ فقال (ع): (أنا القائِمُ بالحق، ولكن القائم الذي يطهّر الأرض من أعداء الله ويملأها عدلاً كما مُلئت جوراً هو الخامس من ولدي، له غيبة يطول أمدها خوفاً على نفسه، يرتدّ فيها أقوام ويثبت فيها آخرون). ثم قال (ع): (طوبى لشيعتنا المتمسكين بحبنا في غيبة قائمنا الثابتين على موالاتنا، والبراءة من أعدائنا، أولئك منّا ونحن منهم، قد رضوا بنا أئمة ورضينا بهم شيعة، طوبى لهم، هم والله معنا في درجتنا يوم القيامة)[121].

10 – الإمام علي بن موسى الرضا (ع) (ت 203 هـ): عن الريان بن الصلت قال: قلتُ للرضا (ع): أنت صاحبُ هذا الأمر؟ فقال (ع): (أنا صاحب هذا الأمر، ولكني لستُ بالذي أملأها عدلاً كما مُلئت جوراً، وكيف أكون ذلك على ما ترى من ضعف بدني؟ وإنّ القائم هو الذي إذا خرج كان في سن الشيوخ ومنظر الشبّان، قوياً في بدنه حتى لو مدَّ يده إلى أعظم شجرة على وجه الأرض لقلعها، ولو صاح بين الجبال لتدكدت صخورها، يكون معه عصا موسى، وخاتم سليمان. ذلك الرابع من ولدي يغيبه الله في ستره ما شاء الله ثم يُظهره فيملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً)[122].

---

[121] بحار الأنوار ج 51 ص 151.

[122] إثبات الهداة ج 6 ص 419.

11 – الإمام محمد الجواد (ع) (ت 220 هـ): عن عبد العظيم الحسني قال: دخلت على سيدي محمد بن علي (ع) وأنا أريد أن أسأله عن القائم أهو المهدي أو غيره؟ فابتدأني فقال (ع): (يا أبا القاسم أنّ القائم منّا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته، ويُطاع في ظهوره، وهو الثالث من ولدي. والذي بعث محمداً بالنبوّة، وخصّنا بالإمامة أنه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً، وإنّ الله تبارك وتعالى يصلح أمره في ليلة كما أصلح أمر كليمه موسى (ع) ليقتبس لأهله ناراً فرجع وهو رسول نبيّ، ثم قال (ع): أفضل أعمال شيعتنا انتظار الفرج)[123]. ومشابهٌ لهذا الحديث خمسة أحاديث بصيغ مختلفة وطرق مختلفة.

12 – الإمام علي الهادي (ع) (ت 254 هـ): (أبو محمد ابني الخلف من بعدي وعنده ما تحتاجون إليه، وعنده آلة الإمامة والحمد لله)[124]. ومشابهٌ لهذا الحديث خمسة أحاديث بصيغ مختلفة وطرق مختلفة.

13 – الإمام الحسن العسكري (ع) (ت 260 هـ): عن موسى بن جعفر البغدادي قال: سمعتُ أبا محمد الحسن بن علي (ع) يقول: (كأني بكم وقد اختلفتم بعدي في الخلف مني، أما إنّ المقرّ بالأئمة بعد رسول الله (ص) المُنكِر لولدي كمن أقرّ بجميع أنبياء الله ورسله ثم أنكر نبوة محمد رسول الله (ص)، والمنكِر لرسول الله (ص) كمن أنكر جميع الأنبياء، لأن طاعة

---

[123] بحار الأنوار ج 51 ص 156.

[124] إثبات االهداة ج 6 ص 275.

آخرنا كطاعة أوّلنا، والمنكِر لآخرنا كالمنكِر لأولنا. أما إنّ لولدي غيبة يرتاب فيها الناس إلا من عصمه الله)[125]. ومشابهٌ لهذا الحديث واحد وعشرون حديثاً بصيغ متفاوتة وطرق مختلفة.

وزبدة القول أن الأحاديث بمجملها من الكثرة بحيث تدفعنا إلى اليقين بأصالة الموضوع. ولم تتواتر الأحاديث في موضوع واحد كما تواترت في موضوع الإمام المهدي (ع)، وفي كونه من أولاد فاطمة الزهراء (ع)، والتاسع من وِلْد الحسين (ع). وكان رسول الله (ص) يكرر ذكر المهدي (ع) في مناسبات عديدة، وكذلك كان يفعل أئمة أهل البيت (ع)، فقد كانوا يذكرون صفاته، وعلامات زمانه، وبات الناس ينتظرون ظهوره من جميع المذاهب، بالرغم من اختلافهم في الجزئيات.

نقطة ينبغي الإلتفات إليها في حديث الإمام العسكري (ع) تفصح عن قاعدة فكرية إلزامية في الإمامة الكبرى وهي: (أن طاعة آخرنا كطاعة أولنا) بمعنى أن طاعة الإمام المهدي (ع) كطاعة رسول الله (ص) وبقية أئمة الهدى (ع)، وأن يقيننا بالمهدي (ع) ووجوده غائباً كيقيننا بوجود رسول الله (ص) وتصديقه. وتلك مسألة أساسية في أصول الدين.

وكما أن عيون المياه الصافية تكون طاهرة ونقية يقيناً، وكما أننا نؤمن برسالة محمد (ص) وصدقها يقيناً، وكما أننا نؤمن بأن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى يقيناً، كذلك الإيمان بوجود المهدي (ع) يقتضي أن يكون إيماناً يقينياً، فهذا هو اليقين الذي لا يُعدل عنه بالشك أبداً. والأصل

---

[125] بحار الأنوار ج 51 ص 160.

في فكرة المهدي (ع) ووجوده هو الحقيقة ما لم يتم صرفه عنها بدليل. ولم يقم على ذلك برهان مضاد، بل أن الدليل على وجوده وكونه التاسع من ولد الحسين (ع) من أمضى الأدلّة وأثبتها. والحكم الثابت بالدليل يبقى ثابتاً.

من شروط اليقين في وجود الإمام المنتَظر (ع)

لليقين شروط عقلية من الضروري عرضها ومناقشتها، خصوصاً ونحن نتحدث عن اليقين في وجود إمام معصوم غائب عن الأنظار منذ قرون. ومن تلك الشروط: فعلية اليقين، واتصال زمن اليقين بظهور الإمام (ع)، واتحاد قضية اليقين في المتعلَّق، والبناء على قاعدة (المانع والمقتضي)، والأثر العملي لليقين. فلنبحثها ضمن النقاط التالية:

1 – فعلية اليقين بوجود الإمام (ع): ونقصد به أن اليقين بوجود الإمام المهدي (ع) حياً غائباً هو يقين فعلي، فلا عبرة باليقين التقديري. ومعنى ذلك أننا لو قلنا أنه على تقدير وجود الإمام لآمنا به! فهذا لا يعتبر يقيناً فعلياً لأنه يقين تقديري، وهو لا يصلح لهذا الأمر.

وقول الإمام زين العابدين (ع) يُفسر ذلك، فبعد أن ذكر أن للقائم (ع) غيبتين، أحداهما أطول من الأخرى قال عن الغيبة الثانية: (... وأما الأخرى فيطول أمدها حتى يخرج من هذا الأمر أكثرُ من يقول به، فلا

يثبت عليه إلا من قوي يقينه وصحت معرفته، ولم يجد حرجاً مما قضينا، وسلّم لنا أهل البيت)[126].

بمعنى أن من يثبت عليه فعلاً من الناس هو المتيقِن بوجود الإمام (ع)، وصحة غيبته، وكونها من أمر الله تعالى. فإنسانٌ وصل به الاعتقاد إلى تلك الدرجة الدينية حريٌّ به أن لا يجد حرجاً فيما قضى الله تعالى به.

وأقوال أئمة أهل البيت (ع) متضافرة في ذلك. فالإمام الصادق (ع) يُشدد: (إنَّ لصاحبِ هذا الأمر غيبةً، المتمسكُ فيها بدينه كالخارط للقتاد: فأيكم يُمسكُ شوك القتادِ بيده؟ ... إنَّ لصاحبِ هذا الأمر غيبةً، فليتقِ اللهَ عبدٌ وليتمسكْ بدينه)[127].

والإمام الباقر (ع) يصفُ لنا المهدي (ع)، ويُهيأ محبيه لتحيته: (إنَّ العلمَ بكتابِ اللهِ عزوجل وسُنّةِ نبيه (ص) لينبتُ في قلب مهديّنا كما ينبُتُ الزرعُ على احسنِ نباتهِ، فمن بقي منكم حتى يراه فليقل حين يراه: السلامُ عليكم يا أهلَ بيتِ الرحمةِ والنبوةِ، ومعدنِ العلمِ، وموضعِ الرسالةِ)[128].

وحمران بن أعين يستفهم من الإمام الباقر (ع) عن صفة الإمام المهدي (ع) فيجيبه: (ذاك المُشرَبُ حُمرةً، الغائرُ العينينِ[129]، المُشرِفُ

---

[126] الإمامة والتبصرة – ابن بابويه ص 13.

[127] الكافي ج 1 ص 335 – 336.

[128] كمال الدين ص 653 ب 57.

[129] عينٌ غائرةٌ تكاد تختفي من آثار العبادة والسهر.

الحاجبينِ[130]، العريضُ ما بين المنكبينِ، برأسه حَزازٌ[131]، وبوجههِ أثرٌ...)[132].

فذِكْرُ صفات الإمام المهدي (ع) بتلك الصورة الواضحة، وعرض آداب التحية عليه عند رؤيته، ووصف صعوبة الغيبة كلها تعدُّ مصاديقَ لفعلية اليقين بوجوده، حياً غائباً عن الأبصار.

2 – اتصال زمان اليقين بظهور الإمام (ع): والمقصود بذلك أنه لا يصح أن يكون هناك يقين سابق يتبعه شك لاحق. فلابد أن يكون زمان اليقين للمكلف متصلٌ بزمان ظهوره. وبمعنى آخر: استمرارية اليقين بوجود الإمام (ع) بحيث تستوعب حياة الإنسان كلها زمن الغيبة.

كما ورد في الرواية عند سؤال الإمام الحسين (ع) أباه عن المهدي (ع): (... قلتُ يا أمير المؤمنين وإنّ ذلك لكائنٌ؟ فقال: أي والذي بعث محمداً بالنبوة واصطفاه على جميع البرية، ولكن بعد غيبة وحيرة، ولا يثبت فيها على دينه إلا المخلصون المباشرون لروح اليقين، الذين أخذ الله ميثاقهم بولايتنا، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروحٍ منه)[133]. وهؤلاء

---

[130] أشرف الشيء: علا وارتفع. ومشرف الحاجبين من ارتفاع حاجبيه وعلوهما.

[131] حزاز: رجلٌ شديدٌ على القتال أو العمل، وظاهر المعنى أنك ترى الجد في هيئته وقسمات وجهه.

[132] الغيبة – النعماني ص 223.

[133] بحار الأنوار ج 51 ص 110.

المخلصون المباشرون لروح اليقين يصممون منهج حياتهم بحيث يستوعب الإنتظار نظرتهم المستقبلية للحياة.

ويؤيده قول الباقر (ع): (لن تخلو الأرضُ من رجلٍ يعرفُ الحقَّ، فإذا زاد الناسُ فيه قال: قد زادوا، وإذا نقصوا عنه قال: قد نقصوا، وإذا جاءوا به صدّقهم، ولو لم يكن ذلك كذلك لم يُعرَفِ الحقُّ من الباطل)[134].

ومقتضى ذلك أن الإمام (ع) يكون حامياً للشريعة السماوية عبر صيانتها من أي تحريف أو إضافة أو نقصان في زمانه. والناس بطبيعتها تحاول تخفيف الإلزامات الدينية، وتحاول تحريفها، خصوصاً إذا شعرت بغياب الرقيب (الظاهري). فقد يذهل البشر عن عين الله تعالى التي ترى الأشياء كلها، فيحاولون تحريف الدين. ولنا في أمر أهل الكتاب خيرُ مثالٍ على ذلك.

فكان من وظيفة الإمام (ع) صيانة الدين من عبث العابثين، وفي الوقت نفسه إمضاء عمل الصالحين من أهل العلم والتقوى على عملهم. وهكذا تمضي الحياة إلى أجلٍ معلوم.

ودعاء الإمام السجاد (ع) يوم ظهر الجمعة يؤيد ما ذهبنا إليه، يقول (ع): (اللهم اشتريٍ نفسي الموقوفة عليك، المحبوسة لأمرك بالجنة، مع معصومٍ من عترة نبيك (ص)، محزونٍ لظلامته، منسوبٍ بولادته، تملؤ به الأرض عدلاً وقسطاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً، ولا تجعلني ممن تقدَّمَ

---

[134] المحاسن ص 235 .

فمرَقَ، أو تأخرَ فمُحِق، واجعلني ممن لزِمَ فلَحِق، واجعلني شهيداً سعيداً في قبضتك)[135].

في هذا الدعاء يدعو الإمامُ السجاد (ع) اللهَ تعالى بحفظ المهدي، ويعرض لمظلوميته في كونه صابراً وحيداً ينتظر أمرَ الله عزوجل. ويتمنى، بلسان حال المؤمن، أن يكون ملازماً له حتى يضمن سعادة الدنيا والآخرة. وهذا الدعاء يُشعرك باتصال الزمنين: زمن المكلَّف المتيقِن بزمن ظهور الإمام المهدي (ع). فهو يعرض نفسه ابتغاء مرضاة الله مع إمام معصوم، وهو مصداق لقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...)[136]، وهذا الاتصال بين الزمنين يجعل المؤمن به يعيش حياته ضمن الأجواء الذهنية لظهور الإمام (ع). فيستشحذ الهمم ليكون جندياً من جنوده.

ودعاء الموقف للإمام السجاد (ع): (... وأصلح لنا إمامنا واستصلحه، وأصلِح على يديه، وآمِن خوفه وخوفنا عليه، واجعله اللهم الذي تنتصرُ به لدينك. اللهم املأ الأرض به عدلاً وقسطاً كما مُلِئت ظلماً وجوراً، وامنن به على فقراء المسلمين، وأراملِهم ومساكينهم، واجعلني من خيار مواليه وشيعته، أشدهم له حباً، وأطوعهم له طوعاً، وأنفذهم لأمره،

---

[135] مصباح المتهجد ص 375.

[136] سورة البقرة: الآية 207.

وأسرعهم إلى مرضاته، وأقبلهم لقوله، وأقومهم بأمره، وارزقني الشهادة بين يديه، حتى ألقاك وأنت عني راضٍ)[137].

في الدعاء الذي قرأناه للتو يتمنى الإمام السجاد (ع) أن يكون من خيار شيعة المهدي (ع)، وأكثرهم حباً له، وأطوعهم له، وأعرفهم بأمره. وتلك من أعظم الشهادات على منزلة الإمام المهدي (ع) وعصمته، ودوره في بناء دولة الأنبياء والموحدين. وتاريخ ذلك الدعاء قبل أن يولد المهدي (ع) ربما بمائة عام. فنفهم أن أئمة أهل البيت (ع) حاولوا ربط الأزمنة بعضها ببعض، وحاولوا العيش في عالم الإمام المهدي (ع). والزمن في فكر أهل البيت (ع) ليس له حدود أو نهايات!

وفي دعاء الإمام السجاد (ع) بعرفة: (اللهم إنك أيدت دينك في كل أوانٍ بإمامٍ أقمته علماً لعبادك، ومناراً في بلادك، بعد أن وصلتَ حبله بحبلك، وجعلته الذريعة إلى رضوانك، وافترضت طاعته، وحذّرت معصيته، وأمرتَ بامتثال أمره، والانتهاء عند نهيه، وألا يتقدّمه متقدِّمٌ، ولا يتأخر عنه متأخرٌ، فهو عصمةُ اللائذين، وكهفُ المؤمنين، وعروةُ المتمسكين، وبهاءُ العالمين.

اللهم فأوزع لوليك شكر ما أنعمت به عليه، وأوزعنا مثله فيه، وآتهِ من لدنك سلطاناً نصيراً، وافتح له فتحاً يسيراً، وأعنهُ بركنكَ الأعزِّ، واشدُد أزره، وقوِّ عَضُدَهُ، وراعهِ بعينك، واحمهِ بحفظك، وانصره بملائكتك، وامدده بجندك الأغلب، وأقم به كتابك وحدودك، وشرائعك وسنن رسولك صلواتك

---

[137] مصباح المتهجد ص 639 – 640.

اللهم عليه وآله، وأحي به ما أماته الظالمون من معالمِ دينك، واجْلُ به صدأ الجور عن طريقتك، وأبِنْ به الضراء من سبيلك، وأزل به الناكبين عن صراطك، وامحق به بُغاة قصدك عوجاً، وألِنْ جانبه لأوليائك، وابسط يده على أعدائك، وهب لنا رأفته ورحمته، وتعطفه وتحننه، واجعلنا له سامعين مطيعين، وفي رضاه ساعين، وإلى نصرته والمدافعة عنه مُكْنِفِين، وإليك وإلى رسولك صلواتك اللهم عليه وآله بذلك متقربين)[138].

والدعاء بتلك اللغة الأدبية الراقية، وذلك الإلزام الأخلاقي بين المؤمن وربه تعالى وأهل بيت النبي (ص) يجعل الإتصال الذهني بالإمام ممكناً حتى مع غياب شخصه. فكلما نقرأ تلك الأدعية أو نرددها في صلاتنا نزداد قرباً من الإمام المؤمَّل (ع)، ونشعر باتصال زماننا بزمانه.

3 – اتحاد قضية اليقين في المتعلَّق: بمعنى أن يحصل اليقين بشخص الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع)، وهو متعلَّق القضية. فربما هناك يقين بفكرة الإمام المهدي كما هو الحال في المذاهب الأخرى، لكنها تختلف في المتعلَّق وهو شخصية الإمام، فهذا يقينٌ غيرُ تامٍ ولا قيمة له، ولابد من اتحاد الموضوع والمحمول معاً.

قال ابن تيمية (ت 728 هـ): "الاحاديث التي يُحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة، رواها أبو داود، والترمذي، وأحمد، وغيرهم

---

[138] الصحيفة السجادية ص 250 – 283 دعاء 47.

من حديث ابن مسعود وغيره"[139]. ثم نفى أن يكون المهدي (ع) من ذرية الحسين (ع)، وإن اسمه محمد بن عبد الله، وليس محمد بن الحسن العسكري (ع).

ومع إقراره بصحة الروايات المروية عن النبي (ص) بشأن المهدي، إلا أنه أنكر وبدون دليل، أن يكون المتعلَّق هو محمد بن الحسن العسكري (ع) الذي تنبأ به الذي لم ينطق عن الهوى (ص).

وفي دعاء العشرات: (... وأشهدُ أنَّ عليَّ بن أبي طالب أمير المؤمنين حقاً حقاً، وأن الأئمةَ من ولده هُم الأئمةُ الهداةُ المهديون، غيرُ الضالين ولا المُضلّين، وأنهم أولياؤك المصطفون، وحزبك الغالبون، وصفوتك وخيرتك من خلقك، ونجباؤك الذين انتجبتهم لدينك، واختصصتهم من خلقك، واصطفيتهم على عبادك، وجعلتهم حجةً على العالمين صلواتك عليهم...)[140].

والأئمة من ولد علي بن أبي طالب (ع) هم: الحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والخلف الصالح الحجة المنتظر عليهم السلام.

ففي هذا الدعاء تتحد قضية اليقين في المتعلَّق بصورة تامة. ذلك أن الدعاء يحدد إيمان المؤمن بالله تعالى، وبرسالته السماوية، وبنبيه محمد

---

[139] منهاج السنّة النبوية – ابن تيمية ج 8 ص 254.

[140] مصباح المتهجد ص 85 – 86.

(ص)، وبكتابه المُنزل عليه (ص)، وبأئمة الهدى يذكرهم بالأسماء والصفات. وأهم صفاتهم هي الإصطفاء من قبل الله تعالى، ويحدد مهمتهم بهداية الناس، وكونهم حجةً عليهم إلى يوم القيامة.

4 – بناء اليقين بوجود الإمام (ع) على قاعدة (المانع والمقتضي): فإذا كان المقتضي ظهور الإمام (ع) بإذن الله تعالى في وقت مستقبلي، فإن المانع (وهو عدم الإذن له بالظهور لأجلٍ معينٍ) ينبغي أن يُفهما على أساس اليقين بإرادة الله تعالى.

وقاعدة (المانع والمقتضي) تُدرس من منظار أن اليقين يتعلق بوجود المقتضي، والشك بوجود المانع من تأثيره، ويُمثّل لها بوجود النار في خشب يقتضي الاشتعال، وأن يُشكّ في وجود مانع من اشتعاله، وهو رطوبة الخشب مثلاً، فلا يقين بحصول الاشتعال لتوقفه على عدم المانع وهو أمر مشكوك فيه !

لكننا لو أخذنا بقاعدة (المانع والمقتضي) من زاوية أخرى، وهي زاوية اليقين (بكليهما: المانع والمقتضي) لأنها متعلقة بإرادة الله تعالى: لكان المانع (عدم الظهور)، والمقتضي (الظهور) إرادة الهية محضة.

يقول الإمام الصادق (ع) وهو يتحدث لأحد اصحابه، في إرادة الله تعالى: (إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبةً لابُدَّ منها، يرتاب فيها كلُّ مُبطلٍ، فقلتُ: ولِمَ جُعِلتُ فداك؟ قال: لأمرٍ لم يؤذن لنا في كشفه لكم. قلتُ: فما وجهُ الحكمةِ في غيبته؟ قال: وجهُ الحكمةِ في غيبته [هو] وجهُ الحكمةِ في غيبات من تقدمه من حجج الله تعالى ذكره، إنَّ وجهَ الحكمةِ في ذلك لا

ينكشف إلا بعد ظهوره، كما لم ينكشف وجه الحكمة فيما أتاه الخضر (ع) من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لموسى (ع) إلى وقت افتراقهما... إنَّ هذا الأمرَ أمرٌ من الله تعالى، وسرٌّ من سرِّ الله، وغيبٌ من غيبِ الله، ومتى علمنا أنه عزوجل حكيمٌ صدّقنا بأن أفعاله كلها حكمةٌ، وإن كان وجهها غيرَ منكشف)[141].

فإذا كان أمرُ المهدي (ع) أمراً آلهياً، فإننا نفهم يقيناً أن الغيبة والظهور من أمر الله تعالى، وأن طول عمر الإمام من أمر الله تعالى، وأن أي معجزة يتسلح بها هي من أمر الله تعالى. وقاعدة (المانع والمقتضي) تلك تفسر لنا جزءً من مفهوم اليقين بوجود الإمام المهدي (ع).

5 – وجود الأثر العملي لليقين: والمقصود به أن اليقين بوجود الإمام (ع) ينبغي أن يؤدي إلى إحساس المكلف بتكليفه الشرعي من زاوية بناء شخصيته الدينية في العبادة، وحسن المعاملة مع الناس، وسمو أخلاقه الشخصية، وبالنهاية إلى عذر المكلف أمام الله تعالى في قضية الإيمان بوجوده، والإيمان بغيبته. ولاشك أن اليقين إذا ثبت لا يرتفع بما هو دونه مثل الشك أو الوهم، لأنهما أضعف وأوهن من اليقين.

وفي معنى وجود الأثر العملي لليقين روايات عديدة عن أهل بيت النبوة (ع):

---

[141] كمال الدين ج 2 ص 482.

منها: قول الإمام الباقر (ع): (لا تبقى الأرض بغير إمامٍ ظاهرٍ)[142]، و(لو بقيت الأرضُ يوماً بلا إمام منا لساخت بأهلها، ولعذبهم اللهُ بأشدِّ عذابهِ، وذلك أن الله جعلنا حجةً في أرضه، وأماناً في الأرض لأهل الأرض، لن يزالوا في أمانٍ أن تسيخ بهم الأرضُ ما دمنا بين أظهرهم، فإذا أرادَ اللهُ أن يُهلكهم ثم لا يُمهِلهم، ولا يُنظِرَهُم ذهبَ بنا من بينهم، ورفعنا إليه، ثم يفعل الله بهم ما شاء وأحب)[143].

وأقوال ثمينة أخرى للإمام الباقر (ع): (ما خلت الدنيا – منذ خلق الله السموات والأرض – من إمامِ عدلٍ إلى أن تقوم الساعةُ، حجةً للهِ فيها على خلقه)[144]، (من مات وليس له إمامٌ فموتُهُ ميتةٌ جاهليةٌ، ولا يُعذَرُ الناسُ حتى يعرفوا إمامهم، ومن ماتَ وهو عارفٌ لإمامه لا يضرُّهُ تقدُّمُ هذا الأمرِ أو تأخرُهُ، ومن مات عارفاً لإمامه كان كمن هو مع القائم في فسطاطه)[145]، (واللهِ ما ترك الأرض منذُ قَبَضَ اللهُ آدمَ إلا وفيها إمامٌ يُهتدى به إلى الله، وهو حجةُ اللهِ على عبادهِ، ولا تبقى الأرضُ بغيرِ إمامٍ، حجة اللهِ على عبادهِ)[146]، و(ما كانت الأرضُ إلا وفيها عالِمٌ)[147].

---

[142] بصائر الدرجات ص 486.

[143] الأصول الستة عشر ص 16.

[144] الإمامة والتبصرة ص 25.

[145] المحاسن ص 155 –156.

[146] بصائر الدرجات ص 485.

[147] المحاسن ص 234.

وإذا اعتبرنا تصريح الإمام علي بن أبي طالب (ع) بكون المهدي (ع) تاسع أولاد الإمام الحسين (ع) كما ورد عنه: (التاسعُ من ولدك يا حسين هو القائم بالحق، المُظهِرُ للدين، الباسطُ للعدل...)[148]، وأخذنا بحديث الإمام الصادق (ع): (أن القائم تمتد غيبته ليصحر الحق عن محضه، ويصفو الإيمان من الكدر بارتداد من كانت طينته خبيثةً من الشيعة الذين يُخشى عليهم النفاقُ إذا أحسوا بالاستخلاف والتمكين والأمن المنتشر في عهد القائم (ع)، [قال تعالى]: (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا...)[149])[150]؛ فان التصريح بوجوده أقوى في التعبير من التشكيك بدلالة الحال، وهي التي عبّر عنها الإمام الصادق (ع) بارتداد من كانت طينته خبيثة. فإذا كان التصريح مخالفاً لما يُفهم من دلالة الحال لا يبقى لتلك الدلالة قيمة، لأن دلالة التصريح (بالقائم بالحق) يقينية قاطعة، ودلالة الحال (ارتداد من كانت طينته خبيثة) ليست القاعدة، بل استثناءً يمثل أفراداً ممن كانت طينته خبيثة من الذين يُخشى عليهم النفاق إذا أحسوا بالإستخلاف.

ومن مصاديق اليقين في الإمام (ع) أنه يدعو الله تعالى لنفسه بتيسير مهمته بالفرج والظهور. وفي ذلك يقين بأن مهمته مهمة آلهية تقتضي وقتاً معيناً يرتبطُ بالإرادة الالهية. ولو كان الأمرُ بيده لما احتاج

---

[148] بحار الأنوار ج 51 ص 110.

[149] سورة يوسف: الآية 110.

[150] كمال الدين ص 355.

إلى دعاء. فهو يدعو الله تعالى لتيسير أمره، لأن أمر ظهوره كله بيد الله تعالى، وليس بإختياره في شيء.

فعن الإمام أمير المؤمنين (ع) في صفة الإمام القائم المهدي (ع) وهو يدعو الله تعالى، وهو يعبر وادي السلام بالقول: (لا إلهَ إلا اللهُ حقاً حقاً، لا إلهَ إلا اللهُ إيماناً وصدقاً، لا إله إلا اللهُ تعبداً ورقاً. اللهمَّ مُعينَ كلِّ مؤمنٍ وحيدٍ، ومُذِلَّ كُلّ جبار عنيد، أنت كهفي حين تُعييني المذاهبُ، وتضيقُ عليَّ الأرضُ بما رحُبت، اللهم خلقتني وكنت عن خلقي غنياً، ولولا نصرُك إيايَ لكنتُ من المغلوبين، يا مبعثر الرحمة من مواضعها، ومُخرجَ البركاتِ من معادنها، ويا من خصَّ نفسهُ بشموخِ الرفعةِ فأولياؤه بعزّه يتعززون، يا من وضعت له الملوكُ نيرَ المذلّةِ على أعناقها فهم من سطوته خائفون، أسألك باسمك الذي قصرت عنه خلقك فكلٌ لك مذعنون، أسألك أن تصلي على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، وأن تنجز لي أمري، وتعجّل لي الفرج، وتكفيني وتعافيني وتقضي حوائجي، الساعة الساعة، الليلة الليلة، إنك على كل شيء قدير)[151].

هكذا يدعو الإمام المهدي (ع) ربه بتسهيل فرجه، وتمكينه في الأرض حتى يستطيع أن يبسط دين الله الخاتم على أرجاء المعمورة. وبمجرد استيعابنا لمعاني الدعاء والتفكر في مراده، نتيقن بأن للإمام الغائب أثراً عملياً لوجوده بيننا، حتى لو كان غائباً عنا بشخصه. وتلك هي زبدة القول في اليقين بالمهدي (ع).

---

[151] دلائل الإمامة ص 243 – 244.

الفصل الثاني

عصر الغيبة:
معرفة صفات الإمام المهدي (ع)

مقدمة. فضائل الإمام المهدي (ع) على لسانه: 1 – العصمة من الذنوب.
2 – البرأ من العيوب. 3 – الطهارة من الدنس. 4 – التنزيه من اللُّبْس.
5 – خزانة العلم واستيداع الحكمة. 6 – التأييد بالدلائل.

مقدمة

تقودنا معرفة صفات الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع) إلى فهم أفضل لشخصيته الإستثنائية. وذلك الفهم هو الذي يقودنا إلى استيعاب الفكرة المهدوية، كي لا يختلط علينا الأمر ونحن نعيش أحياناً ضبابيةَ من يتقمص شخصية المهدي (ع) زمن الغيبة، ويتلبس بلباسها. ومن نافلة القول أن ندرك أن عصر الغيبة عصر دقيق لأن الإمام غائبٌ بشخصه، حاضرٌ بعنوانه.

وغياب الشخص يكون، أحياناً، مدعاةً لتقمص شخصيته من قبل أناس مزيفين يبتغون متاعاً قليلاً من هذه الدنيا الفانية. فلابد أن نضع خطوطاً واضحة لتحديد شخصية الإمام الغائب (ع) من خلال نصوص كتاباته إلى سفرائه. ومن أجل معرفة تلك الصفات نرجع إلى رواية يتحدث المهدي (ع) فيها عن نفسه، وعن أسلافه الطاهرين من أئمة أهل البيت (ع). ومنها نستدل على فهم شخصيته، وفضائله، وشروط إمامته.

رسالة الإمام المهدي (ع) إلى الشيخ الصدوق (ت 329 هـ)

عن سعد بن عبد الله الأشعري، عن الشيخ الصدوق أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري: أنه جاء بعض أصحابنا يعلمه أن جعفر بن علي كتب إليه كتاباً يعرّفه نفسه، ويُعلمه أنه القيّم بعد أخيه، وأن عنده من علم الحلال والحرام ما يحتاج إليه، وغير ذلك من العلوم كلها.

قال أحمد بن إسحاق: فلما قرأت الكتاب كتبتُ إلى صاحب الزمان (ع) وصيّرت كتاب جعفر في درجه[152]، فخرج إليَّ الجواب في ذلك:

(بسم الله الرحمن الرحيم. أتاني كتابك أبقاك الله، والكتاب الذي أنفذت درجه، وأحاطت معرفتي بجميع ما تضمنه على اختلاف ألفاظه، وتكرر الخطأ فيه، ولو تدبرته لوقفتَ على بعض ما وقفتُ عليه منه، والحمد لله رب العالمين حمداً لا شريك له على إحسانه إلينا وفضله علينا، أبى الله عزوجل للحق إلا إتماماً، وللباطل إلا زهوقاً، وهو شاهد عليَّ بما أذكره، ولي عليكم بما أقوله، إذا اجتمعنا اليوم الذي لا ريب فيه، ويسألنا عما نحن فيه مختلفون.

وأنه لم يجعل لصاحب الكتاب على المكتوب إليه ولا عليك ولا على أحد من الخلق جميعاً إمامة مفترضة، ولا طاعة ولا ذمة، وسأبين لكم جملة تكتفون بها إن شاء الله.

يا هذا يرحمك الله إن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثاً، ولا أهملهم سدى، بل خلقهم بقدرته، وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً وقلوباً وألباباً، ثم بعث النبيين (ع) مبشرين ومنذرين، يأمرونهم بطاعته، وينهونهم عن معصيته، ويعرّفونهم ما جهلوه من أمر خالقهم ودينهم، وأنزل عليهم كتاباً، وبعث إليهم ملائكة، وباين بينهم وبين من بعثهم إليهم بالفضل الذي جعله لهم عليهم، وما آتاهم الله من الدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة، والآيات الغالبة.

---

[152] أي أرفقتُ كتاب جعفر ذاك بكتابي وأرسلته إليه (ع).

فمنهم: من جعل النار عليه برداً وسلاماً واتخذه خليلاً، ومنهم: من كلمه تكليماً وجعل عصاه ثعباناً مبيناً، ومنهم: من أحيى الموتى بإذن الله وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، ومنهم من علّمه منطق الطير وأوتي من كل شيء.

ثم بعث محمداً (ص) رحمة للعالمين، وتمم به نعمته، وختم به أنبياءه، وأرسله إلى الناس كافة، وأظهر من صدقه ما أظهر، وبيّن آياته وعلاماته ما بيّن، ثم قبضه (ص) حميداً فقيداً سعيداً، وجعل الأمر من بعده إلى أخيه وابن عمه ووصيه ووارثه علي بن أبي طالب (ع)، ثم إلى الأوصياء من ولده واحداً بعد واحد، أحيى بهم دينه، وأتمّ بهم نوره.

وجعل بينهم وبين أخوتهم، وبني عمهم، والأدنين فالأدنين من ذوي أرحامهم فرقاً بيّناً، تُعْرف به الحجة من المحجوج، والإمام من المأموم بأن: عصمهم من الذنوب، وبرأهم من العيوب، وطهرهم من الدنس، ونزههم من اللبس، وجعلهم خزان علمه، ومستودع حكمته، وموضع سره، وأيدهم بالدلائل، ولولا ذلك لكان الناس على سواء، ولادعى أمر الله عزوجل كل أحد، ولما عرف الحق من الباطل، ولا العلم من الجهل...)[153].

الدلالات:

هذه الرسالة المكتوبة الصادرة عن الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع) لها دلالات مهمة للغاية، ذلك فهو وإن كان يتحدث عن جعفر

---

[153] الغيبة – الشيخ الطوسي ص 191.

صاحب الإدعاء بصفته الشخصية، وبُعده عن الدين، وعدم تقواه، وقلة علمه، إلا إنه يُريد أن يؤسس لقاعدة أساسية لكل من يدعي الإمامة الكبرى أو المهدوية زوراً. فعلى المُدعيّ للإمامة أن يتصف بصفات الإمام المؤهل لقيادة الأمة، وينقلها إلى بر الأمان والعدالة الواقعية. وطالما كان المورد لا يخصص الوارد، كما قيل، فإن تلك الرسالة وضعت الخطوط العامة لصفات الإمام (ع) في غيبته وحضوره. وتلك ضربة قاسمة لكل من ادعى أمراً من هذا القبيل وهو كاذب. ففيها – منطوقاً – وصف دقيق للإمام (ع)، ومفهوماً وصف للمدعين الإمامة زوراً، وفيها أيضاً طرقاً لكشف زيفهم وكذبهم. ولنبدأ بشرح الرسالة عبر النقاط التالية:

فضائل الإمام المهدي (ع) على لسانه

بعد أن يذكر الإمام (ع) بعثة محمد رسول الله (ص)، وكونها رحمةً للعالمين، ويذكر كيفية جعل الأمر إلى وصيه علي بن أبي طالب (ع)، ثم إلى الأوصياء من بعده (ع)، يقول عن أئمة أهل البيت (ع): (... أحيى [الله] بهم دينه، وأتمّ بهم نوره، وجعل بينهم وبين أخوتهم وبني عمهم والأدنين فالأدنين من ذوي أرحامهم فرقاً بيّناً، تعرف به الحجة من المحجوج، والإمام من المأموم بأن: عصمهم من الذنوب، وبرأهم من العيوب، وطهرهم من الدنس، ونزههم من اللبس، وجعلهم خزان علمه، ومستودع حكمته، وموضع سره، وأيدهم بالدلائل، ولولا ذلك لكان الناس

على سواء، ولادعى أمر الله عزوجل كل أحد، ولما عرف الحق من الباطل، ولا العلم من الجهل)[154].

ففي هذا النص جملة من الفضائل التي لابد منها في شخصية المهدي (ع)، ولو درسنا بإمعان تلك الفضائل لرأينا أنها لا تنطبق إلا على من كان أهلاً للإمامة الكبرى، ولذلك فإنّ من يدّعي هذا المنصب الرباني الخطير – زوراً – لا يمكن أن يستمر دون أن يُفتضحَ أمره، وتُكشَف حقيقته للناس، ويُظهَر زيف ادعائه لهم.

ومن تلك الفضائل التي ذكرها الإمام:

1 – العصمة من الذنوب.

2 – البرأ من العيوب.

3 – الطهارة من الدنس.

4 – التنزيه من اللبس.

5 – خزانة العلم وإستيداع الحكمة.

6 – التأييد بالدلائل.

ولأهميتها في معرفة شخصية المهدي (ع) فسوف نتناول بالتفصيل كل صفة من تلك الصفات:

---

[154] الغيبة – الشيخ الطوسي ص 191.

1 – العصمة من الذنوب

العصمة من الذنوب تعني الامتناع عن المعصية، بلطف الله تعالى، وبإرادة الإنسان المطيع له سبحانه. وقد وردت كلمة (العصمة) في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، بمعنى متقارب ولكن باشتقاقات مختلفة.

فهي تعني (المنع)، كما في قوله تعالى على لسان ابن نوح: (قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ...)[155] أي يمنعني من الغرق؛ وقوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ...)[156]، حيث دعاهم عزوجل بمنع الفرقة، ومثّلَ ذلك لهم بالتمسك بحبل الله جميعاً.

وتعني (الإمتناع) كما في قوله تعالى في قصة يوسف (ع): (... وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ...)[157]، أي امتنع امتناعاً شديداً.

والفرق بين المنع والإمتناع: أن المنع يأتي لحفظ الإنسان من فاعل خارجي كالجبل في مثال ابن نوح. والإمتناع يأتي لحفظ الإنسان من فاعل داخلي وهو إرادة النفس بلطف الله تعالى، وقوة إلتزام الإنسان بمعرفته تعالى وإتقاء غضبه، كما في قصة يوسف (ع).

وإنْ كان الأمرُ منعاً أو امتناعاً، فمنطوق " العصمة يعني: الحفظ، يقال: عصمته فانعصم، واعتصمتَ بالله إذا امتنعتَ بلطفه من المعصية"[158].

---

[155] سورة هود: الآية 43.

[156] سورة آل عمران: الآية 103.

[157] سورة يوسف: الآية 32.

[158] لسان العرب ج 12 ص 403.

ولا تقتصر العصمة على الإنسان الممتنع بلطف الله عن ارتكاب المعصية، بل تتعدى إلى الملائكة، وكتاب الله المجيد أيضاً. فقد ورد في وصفِ صنفٍ من الملائكة قوله تعالى: (... عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[159]، حيث يُفهم منه أن الملائكة المُشار إليهم معصومون، لا تصدر منهم المعصية، وهو قوله تعالى: (...لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ...)[160].

وباعتبار أهمية (العصمة) في العقيدة الإسلامية، فقد انبرى الفقهاء الأوائل لأهل البيت (ع) بشرحها، والإستدلال بها على الإمامة. فقد ذكر الشيخ المفيد (ت 413 هـ): " أن العصمة في أصل اللغة هي ما اعتصم به الإنسان من الشيء كأنه امتنع به عن الوقوع في ما يكره، وليس هو جنساً من أجناس الفعل، ومنه قولهم: اعتصم فلان بالجبل، إذا امتنع به، ومنه سميت العصم، وهي وعول الجبال لامتناعها بها"[161].

وطالما وصفت تلك الرسالة المهدي (ع) بالعصمة من الذنوب، فلربما اعتبرنا الجهل (المتعمد) عند القائد الديني ذنباً، عندها تستقيم فكرة العصمة بكونها امتناعاً عن المعصية اطلاقاً. ذلك أن العصمة عن المعصية متلازمة مع العصمة عن الجهل أو الخطأ عند الإمام (ع).

---

[159] سورة التحريم: الآية 6.

[160] سورة التحريم: الآية 6.

[161] أوائل المقالات – الشيخ المفيد ص 134.

ووصف الله تعالى القرآنَ بكونه كتاباً مصوناً عن الخطأ، فقال: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[162]، وقال: (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ...)[163]، حيث يُفهم منه عصمة كتاب الله تعالى عن الخطأ.

إذن العصمة عند الإنسان تكون نتيجة أمرين، الأول: طاعة الله تعالى وعدم الوقوع في المعصية. والثاني: الكمال في المعرفة، فيكون ذلك الكمال مصباحُ هداية إلى عدم الوقوع في الخطأ أو السهو.

الحكمة من عصمة الإمام المهدي (ع):

وإنسانٌ يكلّفُ بمهمةٍ شاقةٍ كمهمة الإمام المهدي (ع) لابد وأن يكون منكشفاً على علمٍ دينيٍ كاملٍ، وأن تكون حياته خالية من المعاصي تماماً وهو قادرٌ عليها، إلا أنه لا يقترفها ولا يقترب منها.

وهكذا كان، فالإمام محمد بن الحسن المهدي (ع) عبدٌ مطيعٌ من عباد الله عزوجل، وشخصيته مبنية على علمٍ رباني، وحياته مبنية على عدم معصيته اللهَ تعالى.

نستدلُّ على ذلك بدعاء الإمام الرضا (ع) له: (اللهم ادفع عن وليك وخليفتك وحجتك على خلقك... اللهم فإنا نشهدُ له يومَ القيامة ويومَ

---

[162] سورة فصلت: الآية 42.

[163] سورة الإسراء: الآية 9.

طُولِ الطامَّةِ أنه لم يُذنِب ذنباً، ولا أتى حُوباً[164]، ولم يرتكب معصيةً، ولم يضيّع لك طاعةً، ولم يهتك لك حرمةً، ولم يبدِّل لك فريضةً، ولم يُغيِّر لكَ شريعةً، وأنه الهادي المهتدي، الطاهرُ التقيُّ النقي، الرضيُّ الزكيُّ...)[165].

وهذا الدعاء يلخص شخصية الإمام المهدي (ع) فيما يتعلق بطاعة الله تعالى، وعصمته عن ارتكاب الذنوب. وفي الدعاء نكتة[166] ينبغي الالتفات إليها، وهي أن الإمام الرضا (ع) يشهد بعصمة الإمام المهدي (ع) قبل أن يولد بأكثر من خمسين عاماً. فكيف تنطبق الشهادة الحسية على أمر مستقبلي؟

والجواب على ذلك هو أن الإمام الرضا (ع) يستند على آية التطهير، وهي قوله تعالى: (...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[167]، والإمام الرضا (ع) له علمٌ يقيني بإن إرادة الله تعالى إرادة حتمية التحقق، إضافة إلى الأحاديث المأثورة عن رسول الله (ص) بخصوص المهدي (ع). ومع تلك الأدلة نضيف أن أقوال أئمة أهل البيت (ع) وسيرتهم لا تخلو من الإعجاز، ومن كون أمرهم مرتبطٌ بأمر الله تعالى.

فمن الأمور المعجِزة عند أئمة أهل البيت (ع) أنهم كانوا يصفون بعضهم البعض بصفات الطهارة، والعصمة على مدى قرون، ولم يختلف

---

[164] حُوباً: إثماً عظيماً.

[165] مصباح المتهجد ص 366.

[166] النكتة: الأثر الحاصل من شيء ما، والفكرة اللطيفة المؤثرة.

[167] سورة الأحزاب: الآية 33.

وصفهم قيد شعرة عن الحقيقة. وتلك قضية تحتاج إلى وقفة تأمل، ربما تستشعرها في ثنايا الكتاب.

وتلك العصمة لا تنافي الإختيار، فـ " ليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح، ولا مضطرة للمعصوم على الحسن ولا تلجئه إليه، لكن العصمة موهبة آلهية يتفضل بها الله على من يشاء من عباده بعد توفر الأرضية والقابلية المصححة لإفاضتها عليهم، وأنها غير قابلة للتحصيل والكسب أبداً "[168].

أي أن العصمة في الشرع: لطفٌ من الله تعالى، بحيث يمتنع المشمول بهذا اللطف الآلهي عن ارتكاب المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليها.

ومن أجل فهم الحكمة من عصمة الإمام المهدي (ع) ندرج النقاط التالية:

أولاً: أن عصمة الإمام المهدي (ع) لها طرفان: أحدهما: عدم ارتكاب المعصية. والآخر: عدم الخطأ في فهم معاني الدين وتطبيقه. وفي ذلك تفصيل:

الطرف الأول: عدم ارتكاب المعصية وهو قادرٌ عليها: فالعصمة " مَلَكة نفسانية تمنع المتصف بها من الفجور مع قدرته عليها. وتتوقف هذه المَلَكة على العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات. لأن العفة متى ما حصلت

---

[168] أوائل المقالات ص 45.

في جوهر النفس، وانضاف إليها العلم التام بما في المعصية من الشقاء وفي الطاعة من السعادة، صار ذلك العلم موجباً لرسوخها في النفس، فتصير مَلَكَة "[169].

وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين (ع) قوله: (آلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)[170]. فقد وجدَ الله تعالى أهلاً للعبادة فعبده، أي أنه حصل له علمٌ قطعيٌّ بأن الخالق سبحانه يستحق العبادة فعبده. وكذلك العصمة فهي تدل على علمٍ قطعي لدى الإنسان بأن الله تعالى يغضب للمعصية، فتركها العبد تطوعاً.

وإلى ذلك أشار المحقق الطوسي (ت 672 هـ) إلى أن العصمة تجبُ في النبي (ص) " ليحصل الوثوق، فيحصل الغرض" [171].

و" النفوس لا تسكن إلى القبول بمن يخالفَ فعلُهُ قولَهُ، سكونها إلى من كان منزهاً عن ذلك. فيجب أن لا يجوز في الأنبياء (ع)، إلا ما نقوله من أنهم منزّهون عمّا يوجب العقاب والاستخفاف والخروج من ولاية الله تعالى إلى عداوته. يبين ذلك أنهم لو بعثوا للمنع من الكبائر والمعاصي، بالمنع والردع والتخويف، فلا يجوز أن يكونوا مُقْدِمين على مثل ذلك، لأن المعلوم أن المُقْدِمَ على شيء لا يقبل منه منع الغير بالنهي والزجر

---

[169] اللوامع الآلهية – المقداد السيوري ص 169.

[170] شرح أصول الكافي – المازندراني ج 1 ص 257.

[171] تجريد الاعتقاد – المحقق الطوسي ص 222.

والنكير، وأن هذه الأحوال منه لا تؤثر ... ولو أن واعظاً انتصب يخوّف من المعاصي مّنْ يشاهده مقدماً على مثلها، لاستخفّ به وبوعظه"[172].

وإذا كان هذا واجباً في النبوة، فإنه يجب في الإمامة أيضاً ذلك لأن الإمام (ع) إذا لم يكن صادقاً في دعواه، فإن الناس لا تجد في نفسها حافزاً لاتباعه.

والمعصوم قادر على ارتكاب المعصية لكنه لا يقترب منها، لأن تقواه تصده عن ذلك، " فمَلَكة العصمة لا تغير الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية، ولا تُخرجها إلى ساحة الإجبار والإضطرار. كيف، والعلم من مبادئ الإختيار، ومجرد قوة العلم لا يوجب إلا قوة الإرادة. كطالب السلامة إذا أيقن بكون مائع ما سمّاً قاتلاً من حينه، فإنه يمتنع باختياره من شربه، ويشهد على ذلك قوله سبحانه: (... وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[173]. والضمير في (وَاجْتَبَيْنَاهُمْ) يرجع إلى الأنبياء (ع)[174].

وزبدة القول أن: "العصمة لطف الله الذي يفعله تعالى فيختار العبد عنده الإمتناع عن فعل القبيح"[175]. بل هي " تفضلٌ من الله تعالى على من علم أنه يتمسك بعصمته"[176].

---

[172] المُغني ج 15 ص 303.

[173] سورة الأنعام: الآية 87 – 88.

[174] الميزان ج 7 ص 347.

[175] رسائل الشريف المرتضى ص 326.

يقول تعالى في إصطفاء الأنبياء (ع): (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ. وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ)[177].

وقوله تعالى في أنبياء بني إسرائيل: (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ)[178].

ويدلّ قوله تعالى: (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)[179]، وقوله تعالى: (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[180]، يدلان على أن العصمة والنبوة من الله سبحانه للأنبياء (ع)، ومن يقوم مقامهم من الأوصياء (ع).

وإذا آمنا بأنَّ الإمام المهدي (ع) حيٌّ يرزق قرابة ألف ومائتي عام، فلابد أن نؤمن بأنه منزّهٌ عن ارتكاب المعصية خلال تلك الفترة الزمنية الطويلة من حياته الشريفة. بل أنه منكبٌّ على العبادة الخالصة لله تعالى، منتظراً أمر الله تعالى له.

---

[176] تصحيح اعتقادات الإمامية – الشيخ المفيد ص 128 – 130.

[177] سورة ص: الآية 45 – 48.

[178] سورة الدخان: الآية 32 –33.

[179] سورة ص: الآية 47.

[180] سورة الدخان: الآية 32.

الطرف الثاني: عدم الخطأ في إدراك معاني الدين، وتطبيقه. فالعصمة قوة علمية تمنع الإنسان عن ارتكاب الخطأ في الدين من ناحية الفهم أو التبليغ أو الأداء. وتلك القوة العلمية لا تكون اكتسابية بل تكون ثمرةً لعلمٍ رباني ألهمه الله تعالى لذلك الإنسان.

فالعصمة موهبةٌ الهية تفاض على من يعلم الله أنه سينتفع بها في إقامة الدين، وهذا من التصميم الآلهي للوجود في هذه الحياة.

ولو عهد من النبي (ص) السهو والنسيان " لارتفع الوثوق منه عند اخباراته، ولو عهد منه خطيئة لتنفرت العقول من متابعته فتبطل فائدة البعثة"[181].

ولو جاز عليه (ص) الخطأ لافتقر إلى غيره كي يسدده، ثم الحال يجري مع هذا أيضاً، فإن لم يكن معصوماً هو الآخر فسيفضي الأمر بالتسلسل أو يثبت وجود إمام معصوم عن الخطأ[182].

والمعتَبر في أصول الدين حكم العقل في موضوع النبوة والإمامة، والخطأ – لو افترضناه – في فهم الرسالة الدينية لا يوافق مقام النبوة ولا مقام الإمامة، بل يُعتبر نقصاً خطيراً في تلك المناصب الربانية. ذلك أنّ صفات الإمام (ع) على ضربين: عقلية، وشرعية. " فالأول: كونه معصوماً

---

[181] النكت الاعتقادية – الشيخ المفيد ص 30.

[182] إرشاد الطالبين – السيوري الحلي ص 301.

أفضل الخلق عالماً بالسياسة. والثاني: كونه أعلم الناس بالأحكام الشرعية وأشجع الخلق"[183].

يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) في وصف آل محمد (ص): (هم عيشُ العلم، وموتُ الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم. لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه. هم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام. بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته. عقلوا الدين عقلَ وعايةٍ ورعايةٍ، لا عقل سماعٍ وروايةٍ. فإن رواةَ العلم كثير، ورعاته قليل)[184].

وقوله (ع): (لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه) أي لا يخالفون ما أراده الله تعالى، ولا يختلفون فيه قولاً وعملاً، كما هو المعروف في اختلاف الناس من له الرأي والرأيين. وهذا يدل على تمام علمهم بالدين.

وقوله (ع): (عقلوا الدين عقلَ وعايةٍ ورعايةٍ) أي فقهوا الدين وأتقنوا معارفه. وهذا يدل على عصمتهم عن الجهل والخطأ.

وفي مناسبة أخرى يصف الإمام علي بن أبي طالب (ع) المهدي (ع) بصفاتٍ تعكس حكمةَ وجوده في آخر الزمان. يقول: (الإسلامُ والسلطانُ العادلُ أخوان، لا يصلحُ واحدٌ منهما إلا بصاحبه. الإسلامُ أسٌّ[185]، والسلطانُ العادلُ حارسٌ، وما لا أُسَّ له فمنهدمٌ، وما لا حارس له

---

[183] تمهيد الأصول في علم الكلام – الشيخ الطوسي ص 359.

[184] شرح نهج البلاغة – محمد عبده، الخطبة 234.

[185] الأسُّ: الأساس.

فضايعٌ، فلذلكَ إذا رَحَلَ قائُمنا لم يبقَ أثرٌ من الإسلام، وإذا لم يبقَ أثرٌ من الإسلام لم يبقَ أثرٌ من الدنيا)[186].

ولا ريب أن مهمة الإمام المهدي (ع) مهمة استثنائية تتطلب فهماً شاملاً لمطالب الدين والحياة، بحيث يكون قادراً على تحقيق ما لم يتحقق في زمنٍ ماضٍ. وتلك المهمة تقتضي عصمةٌ بشقيها من عدم ارتكاب المعصية، ومن عدم الخطأ والسهو والجهل في الدين.

ثانياً: العصمة كرامة آلهية للأنبياء (ع) والأوصياء (ع) من أجل تمييزهم عن الآخرين، كي يكونوا مثلاً أعلى للناس. فالإقتداء بهم يقتضي وجود تلك الصفة فيهم، ولذلك أشار الإمام المهدي (ع) في رسالته: (وجعل بينهم [أي بين أئمة الهدى (ع)] وبين أخوتهم... فرقا بيّناً، تُعرف به الحجة من المحجوج، والإمام من المأموم...)[187]. إذن العصمة من الذنوب، والعلم الرباني مَعلمان من معالم تمييز الإمام المهدي (ع) عن غيره ممن يدعون ذلك المنصب الآلهي.

وإذا لم يجز على الأنبياء (ع) والأوصياء (ع) السهو والخطأ، فبطريق أولى لا يجوز ذلك على الإمام المهدي (ع). لأنه مكلّفٌ بإقامة الدين العملي في آخر الزمان.

---

[186] كشف الحق – الخاتون آبادي ص 203، منتخب الأثر ص 273.

[187] الغيبة – الطوسي ص 191.

وفكرة عدم جواز السهو والخطأ والمعصية على القائد الديني يتقبلها العقل البشري، ويحسبها مورداً للإطمئنان على صحة الرسالة الدينية وصوابها. ولذلك اعتقد علماء أهل البيت (ع) – بصورة جازمة – بعدم جواز السهو والخطأ والمعصية على النبي محمد (ص)، فلو " جاز عليه السهو والخطأ، لجاز ذلك في جميع أقواله وأفعاله، فلم يبق وثوق باخباراته عن الله تعالى، ولا بالشرائع والأديان، لجواز أن يزيد فيها وينقص سهواً، فتنتفي فائدة البعثة " [188].

وهذا ينطبق على الأنبياء (ع) وأوصيائهم (ع). لأن النبي (ص) لا يمكن أن يوصي بشؤون الرسالة السماوية إلى شخصٍ لم يكتمل في ذاته وصفاته. فلابد من القول بـ " عصمة الأنبياء وأئمة أهل البيت (ع) ... وتطهيرهم من الدنس وعدم ارتكابهم الذنوب بشكل مطلق"[189]. بل لابد من عصمتهم مطلقاً عن الصغائر والكبائر عمداً وسهواً [190]. والدلائل التاريخية والروائية تصدّق هذا المدعى وتؤكد عليه.

اذن فالحكمة من عصمة الإمام المهدي (ع): أنه طالما كان مؤتمَناً على رسالة الإسلام، بعقائده وأحكامه، فإنه لا يغيّر ولا يبدّل، بل يطبق الإسلام كما أُنزِلَ على رسول الله محمد بن عبد الله (ص). وفي كونه لا يرتكب المعصية وهو قادرٌ عليها، خلال مئات السنين يجعله قائداً فذاً

---

[188] الرسالة السعدية – العلامة الحلي ص 76.

[189] بحار الأنوار ج 11 ص 89 – 90.

[190] إرشاد الطالبين ص 304.

تذعن له البشرية بأطيافها ومكوناتها في نشر العدل والأمان في ربوع الأرض.

ثالثاً: إن المعاصي قذارات معنوية يترفع عنها صاحب الإمامة الكبرى، وقد صرح تعالى بتطهيرهم من الأرجاس والأدناس، فقال عزوجل: (...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[191]. وقد كانت سيرة خاتم الأنبياء محمد (ص) وأئمة أهل البيت (ع) عطرة بذكر الله، وزاهرة بعبادته والتضحية في سبيله. ومع كثرة أعدائهم تبقى أحدى الحقائق التاريخية ناصعة وهي: أنه لم يتجرأ أحدٌ من أعدائهم بقدحهم في طهارتهم من الذنوب، ولم يتجرأ أحد في قدحهم في تقواهم أبداً، وذلك دليل إضافي على عصمتهم عن المعاصي، وطهارتهم من العيوب.

وإلا لو كانوا يرتكبون المعاصي لما كان لسيرتهم ذلك التأثير العميق في نفوس الناس، ولما كانت الأمة تقتدي بهم أبداً. وكون الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع) من ذرية فاطمة الزهراء (ع) المشمولين بآية التطهير المذكورة آنفاً حجةٌ قاطعةٌ على عصمته أيضاً، باتفاق المفسرين من المدرسة الإمامية.

---

[191] سورة الأحزاب: الآية 33.

رابعاً: عصمة الإمام المهدي (ع) من المعاصي منسجمة مع فكرة تحقيقه العدالة الواقعية بين الناس، لأن مَنْ كان ظالماً في مالٍ أو نفسٍ لا يمكنه تحقيق العدالة الواقعية كما ذكرها رسول الله (ص) في الروايات المتواترة.

وفي دعاء الإمام الصادق (ع) ما يشير – مفهوماً – إلى ذلك: (اللهم ... وأتقربُ إليك بالبقية الباقي المُقيم بين أوليائه الذي رضيتَهُ لنفسكِ، الطيّب الطاهر، الفاضل الخيّر، نورِ الأرضِ وعمادها، ورجاءِ هذه الأمة وسيدها، الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، الناصح الأمين، المؤدي عن النبيين، وخاتم الأوصياء النجباء الطاهرين...)[192].

وإذا كانت العصمة قوة تمنع الإنسان عن اقتراف المعصية، فإنها حتماً وليدةَ علمٍ قطعيٍ بكون المعصية تغضب الله تعالى. فإذا امتلك الإنسان العلم القطعي بعدم رضا الله تعالى، وكانت لديه مرتبة عليا في التقوى امتنع عن ارتكاب المعصية، وقد اشار سبحانه إلى ذلك، فقال: (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)[193]. فعلم اليقين يدفع الإنسان إلى تجنب ما يوقعه في عقوبة النار.

وبالإجمال فإنَّ الحكمة من عصمة الإمام المهدي (ع)، بالإضافة إلى الأمور البديهية من كونه أحد أئمة أهل البيت (ع) المشمولين بآية التطهير، هو قدرته على إدارة العالم، وترشيد البشرية في آخر أيامها إلى طريق الهدى والحق، وتثبيت العدل والأمان بقدرة آلهية.

---

[192] مصباح المتهجد ص 287 – 292.

[193] سورة التكاثر: الآية 5– 6.

2 – البرأ من العيوب

يعني السلامة من كل عيب باطن أو ظاهر، بحيث يغلب على الظن أنه لو كان به عيب لظهر. ومعنى (برئ): تنزه وتباعد[194]. والأسم (بَراء)، والمصدر (بَرِئَ) يوصف به، لا يُثنّى ولا يُجمع ولا يؤنّث. قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ)[195]. والعيب هو النقيصة أو الوصمة في الشيء أو ما يخلو عنه أصل الفطرة السليمة للشيء[196] مما يعدُّ ناقصاً. والعيب في الإنسان ما نقص عن الخلقة الطبيعية.

وإذا وُجِدَ العيبُ في الإمام، فإنه يعدُّ غرراً يُسقِط معه حق الطاعة من قبل الناس.

والعيوب المعروفة عند الإنسان هي: إما جسدية، وإما عقلية. فالعيوب الجسدية مثل: تلف عضوٍ من أعضاء الجسد، أو عاهة تصيب الإنسان، أو مرض مزمن. والعيوب العقلية مثل: الاضطراب العقلي، وشرود الذهن، وخلط الحقائق بالأوهام، والكآبة، ونحوها. والبعض من الناس يعاني من عيوب جسدية أو عقلية. وقد مثلَّ الفقهاء للعيوب في الإنسان: بالجنون، والبرص، والعرج، والعور، والطرش، والحول ونحوها[197].

---

[194] لسان العرب ج 1 ص 33 مادة (برأ).

[195] سورة الزخرف: الآية 26.

[196] لسان العرب ج 2 ص 124 مادة (عيب).

[197] المُغني ج 6 ص 235.

العيوب العقلية والنفسية:

ومن العيوب النفسية والعقلية التي تعتري الإنسان غالباً: شرود الذهن، والطمع بما في أيدي الآخرين، والحسد وتمني زوال نعمة الغير، والغضب وعدم تمالك الأعصاب، وحب التملك، والشعور بالذنب، والشك في نوايا الناس، وعدم الثقة بالآخرين. وقد ذكرنا الجهل، وهو من العيوب العقلية، ضمن بحث العصمة. وتلك الصفات الذميمة لا تناسب قائداً يقود الأمة نحو العدالة الواقعية والقسط الحقيقي.

والبرأ من تلك العيوب عند الأنبياء والأوصياء (ع) له أهمية عظمى في ترشيد الناس إلى دينهم. فهم منزّهون عن تلك العيوب كما قال في صفتهم: (... وبرأهم من العيوب)[198]، أي برأهم الله تعالى من النقيصة الظاهرة والباطنة، جسدية كانت أو عقلية، نفسية كانت أو مزاجية.

وإذا كان القادة يعانون من عيوبٍ نفسيةٍ مثل حب الذات، والحسد، والغضب ونحوها، فكيف يُراد منهم أن يشعروا بالإلزام الاخلاقي تجاه الآخرين؟ وكيف يُراد منهم إنكار مصالحهم الخاصة والإهتمام بالمصالح العامة للأمة؟ فلا يصلح للقائد بمستوى المهدي (ع) أن يتصف بصفات الأنانية والحسد والغضب لنفسه، ولا يصلح له الإهتمام بمصلحته الخاصة، وترك مصالح الناس.

إذن هناك حكمةٌ بالغة من برأ الإمام (ع) من العيوب، فسلامة العقل، والروح، والجسد من مقومات الإمامة ومقتضياتها. لأن خللاً في

---

[198] الغيبة – الشيخ الطوسي ص 191.

العقل يؤدي إلى عدم إدراك مفردات الدين، وخللاً في الروح يؤدي إلى ضعف الاتصال بالله عزوجل، وخللاً في الجسد يؤدي إلى ضعف العبادة، والإدارة.

الحكمة من البرأ من العيوب:

وإذا كان العيب الجسدي موجوداً عند الإنسان من ولادته، أو طرأ خلال حياته كالعمى، والعرج، والصم فإنه لا ينقص من كرامته كإنسان. لكنّه يعدُّ نقصاً لا تصلح معه إمامة الناس. فالعاجز مثلاً لا يستطيع أن يأمَّ السليم في الصلاة، والمضطرب عقلياً لا يأمَّ التامّ عقلياً، وهكذا نفهم حكمة البرأ من العيوب. خصوصاً وأن للإمام المهدي (ع) تكاليف ثقيلة فيما يتعلق بتحقيق العدالة الواقعية، ومحاربة الظلم والفساد.

وذلك يستدعي قوة عقلية وقوة جسدية، ففي الرواية عن النبي (ص): (يخرج رجلٌ من وُلْدِ الحسين من قبل المشرق، لو استقبلته الجبال لهدمها واتخذ فيها طرقاً)[199]، وعن الإمام الرضا (ع) أن القائم (ع): (إذا خرج كان في سن الشيوخ ومنظر الشبّان، قوياً في بدنه حتى لو مدَّ يده إلى أعظم شجرة على وجه الأرض لقلعها، ولو صاح بين الجبال لتدكدت صخورها...)[200]. ومتن الرواية يدلُّ على برأ الإمام (ع) من العيوب الجسدية، ويدل على قوته الجسدية الخارقة أيضاً!

---

[199] الفتن – ابن حماد ج 1 ص 371.

[200] إثبات الهداة ج 6 ص 419.

ولاشك أن العيوب العقلية والنفسية عند القائد تؤدي به إلى عدم اتخاذ القرار السليم في المواقف. فمقتضى الإمامة وفهم الدين أن يكون الإمامُ مبرأً من جميع العيوب العقلية والنفسية. ذلك أن الإمامة الكبرى تحتاج إلى كتفٍ قوي متماسك يحمل الهموم الاخلاقية والإجتماعية للناس.

وخروج الإمام المهدي (ع) هو خروج لإعادة القيم الإسلامية إلى وضعها الصحيح بعد أن أفسدتها الموازين الجاهلية في المجتمع، عندها يأذن الله له بالظهور. كما ورد عن رسول الله (ص) وهو يتحدث عن القائم (ع): (... يقيمُ الناسَ على ملّتي وشريعتي، ويدعوهم إلى كتابِ ربي عزوجل...)[201]، وهذا الخروج يقتضي طهارة كاملة من العيوب الاخلاقية والعقلية. لأن الرسالة الدينية إنما هي رسالة فضيلة، ومبدأ، وإلزام، وقدوة حسنة تحتاج إلى رجل قوي أمين يُستأمن على شؤون العالَم والدين.

وطالما آمنا بأن الإمام المهدي (ع) مبرأٌ من العيوب، صدّقنا أن مفردات شخصيته في منتهى الكمال، ومن ذلك:

1 – أنه (ع) مورد ثقة الناس في كماله وعقله، فكما أن علي بن أبي طالب (ع) كان مع الحق، يدور حيثما دار[202]، فالمهدي (ع) مع الشريعة فهي مدار حياته. فهو يتحرك بالقرآن الكريم، ويأمر بالأحكام الإسلامية، ويتعامل بالاخلاق السماوية. وإنسانٌ من هذا الطراز لابد أن يكون مبرأً من العيوب العقلية والنفسية.

---

[201] كمال الدين ج 2 ص 411.

[202] سنن الترمذي ج 5 ص 592.

نفهم ذلك من قول الإمام العسكري (ع): (الحمدُ للهِ الذي لم يُخرجني من الدنيا حتى أراني الخَلَف من بعدي أشبه الناسِ برسول الله (ص) خَلْقاً وخُلُقاً...)[203]. ويكفيه أن يكون أشبه الناس برسول الله (ص) خَلْقاً وخُلُقاً، فيكون مبرأً من كل العيوب.

2 – أنه (ع) يفهم مراد الله تعالى، وحاجات الناس، من خلال قاعدة (كرامة الإنسان) المأخوذة من قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...)[204]، فتكريم الإنسان، وتحقيق العدالة الإجتماعية والحقوقية بين الناس، ومراعاة الضعفاء، والاقتصاص من الجناة، والأخذ لكل ذي حقٍ حقه، كلها مصاديق لذلك التكريم. وهذا يقتضي سلامة فكرية للقائد الديني.

يُفهم ذلك من دعاء الإمام الرضا (ع): (اللهم اسلك بما على يديه منهاج الهدى، والمحجَّة العظمى، والطريقةَ الوسطى التي يرجع إليها الغالي، ويلحقُ بها التالي...)[205].

3 – أنه (ع) مسؤول عن تثبيت العدالة وإزالة الظلم، وأنه يسعى بالمجتمع الإنساني إلى الكمال. والقائد الديني الذي يسعى إلى تحقيق الكمال الإنساني على الأرض لابد أن يكون مبرأً من جميع العيوب.

---

[203] كمال الدين ج 2 ص 408.

[204] سورة الإسراء: الآية 70.

[205] مصباح المتهجد ص 366

كما نفهم ذلك من قول رسول الله (ص): (إنَّ المهدي من عترتي من أهل بيتي، يخرج في آخر الزمان... فيملأ الأرضَ عدلاً وقسطاً كما ملأها القوم ظلماً وجوراً)[206].

4 – تصبح الناس في زمانه أمةً واحدةً حيث يعمُّ الأمنُ والسلامُ بين الناس. وإنسانٌ يحكم العالم بجميع أجناسه، ومكوناته، بمشاكلهم العديدة وحاجاتهم اللامتناهية ينبغي أن يكون مبرأً من جميع العيوب.

والمعيار في سيرة الإمام (ع) هو قدرته على الفصل بين الحق والباطل، وفرز الصواب عن الخطأ، وتبيين الحلال عن الحرام، فلابد أن يكون متكاملاً في سيرته الاخلاقية والشرعية.

وفعلُ الإمام (ع) مطابقٌ لقولهِ، وقولُهُ مطابقٌ لفكرهِ. بمعنى أنه لا يأمر بفعل شيءٍ ويعمل بشيء مخالِف. ولا يعمل شيئاً وقلبه مخالفٌ لما يفعله. فالفعل، والقول، والفكر متطابقٌ عند المهدي (ع). فلا خوفَ من قول الحق، ولا تقيةَ أمام الظالمين، ولا توريةَ[207] في موقف ما، ولا سكوت عن ظلم. بل هي مواجهة الحق ضد الباطل مواجهة صريحة، مع عبادة وخشوعٌ لله تعالى.

نفهم ذلك من الروايات المتواترة، فقد ورد عن النبي (ص): (المهديُّ خاشعٌ للهِ كخشوعِ النسرِ ينشرُ جناحَهُ)[208]. وعن الإمام الصادق

---

[206] الغيبة – الطوسي ص 180.

[207] التورية: إيراد شيء لفظاً وقصد شيء آخر بالمعنى.

[208] الفتن – ابن حماد ج 1 ص 364.

(ع): (... ثم يُظهِرهُ الله تعالى فيفتح اللهُ على يدهِ مشارقَ الأرضِ ومغاربها... وتُشرِقُ الأرض بنور ربها، ولا تبقى في الأرضِ بقعةٌ عُبِدَ فيها غيرُ اللهِ عزوجل إلا عُبِدَ اللهُ فيها، ويكونُ الدينُ كلُّهُ للهِ ولو كرِهَ المشركون)[209].

يصفه الإمام الرضا (ع) في دعائه: (... فإنَّهُ عبدُكَ الذي استخلصتَهُ لنفسِكَ، واصطفيتَهُ على غيبِكَ، وعصمتَهُ من الذنوب، وبرأته من العيوب، وطهَّرتَهُ من الرجس، وسلَّمتَهُ من الدَّنس...)[210]. كل ذلك يدلُّ على مطابقة أفعال المهدي (ع) لأقواله، وأقواله لفكره. وتلك من أهم مصاديق البرأ من العيوب.

3 – الطهارة من الدَنَس

الطهارة من الدَنَس تعني " الطهارة من الخلاعة، والفجور، والفسق. والدَنَس: صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت، من دنِسَ، والدَنِس هو: الخليع، الفاجر، الفاسق. ورجلٌ دَنِسٌ: متلطخٌ بالقبيح. قال جَرِير:

والتّيمُ ألأمُ مَنْ يمشي وألأمهُمْ أولادُ ذُهلٍ السودِ المدانيسِ

---

[209] كمال الدين ج 2 ص 345 – 346.

[210] مصباح المتهجد ص 366.

ومن ذلك: دنَّسَ ثوبَه وعِرْضَه تدنيساً: فعلَ ما يشينه، وهو مجازٌ. ورجلٌ دَنسٌ المرؤةِ. ودَنسُهُ: سوءُ خُلُقِه، وكذا رجلٌ دنسُ الجيبِ والأدرانِ وهو يَتصوَّن من الأدناسِ والمِدَانسِ" [211].

والطهارة من الدنس هي طهارة معنوية، وتعني التنزه عن الباطل، والتطهر عن الخلاعة، والإتقاء عن الفجور، وعدم التلوث بالفسق. ومنه قوله تعالى في عيسى (ع): (...إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...)[212]، أي مطهرك من دنس الشرك والفسق والفجور، ومنه قوله تعالى في لوط وأهله: (...أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)[213]، فتلك الطهارة طهارة أخلاقية متعلقة بالفعل والعقل.

وتتخذ الطهارة المعنوية أشكالاً أخرى ذكرها القرآن الكريم، ومنها: التصدق بالمال، كقوله تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...)[214]، وطهارة الصحف السماوية، كقوله تعالى: (رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)[215]، وطهارة شراب الآخرة، كقوله تعالى: (... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)[216]، وطهارة البيت الحرام، كقوله تعالى: (... وَطَهِّرْ بَيْتِيَ

---

[211] تاج العروس ج 8 ص 294 .

[212] سورة آل عمران: الآية 55.

[213] سورة الأعراف: الآية 82.

[214] سورة التوبة: الآية 103.

[215] سورة البيّنة: الآية 2.

[216] سورة الإنسان: الآية 21.

لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[217]، وطهارة الحلال، كقوله تعالى: (... يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ...)[218]، وطهارة الماء، كقوله تعالى: (... وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)[219]، وطهارة الثياب، كقوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)[220]، وبالمعنى الخاص بتطهير أهل البيت (ع) من الرجس، كقوله تعالى: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[221].

فالطهارة من الدنس تعني إزالة كل ما يلوث الروح والعقل من أدران فكرية أو مادية.

الشخصية المطهَّرة من الدنس:

وعندما نتحدث عن الطهارة من الخلاعة، والفجور، والفسق فإننا نتحدث عن شخصية الإنسان المنزَّه عن تلك الرذائل. فما هي الصفات الاخلاقية التي ينبغي أن يحملها القائد حتى نعدّه منزهاً عن تلك الرذائل؟

---

[217] سورة الحج: الآية 26.

[218] سورة هود: الآية 78.

[219] سورة الفرقان: الآية 48.

[220] سورة المدثر: الآية 4.

[221] سورة الأحزاب: الآية 33.

لاشك أن الفضائل والرذائل من مكونات شخصية الإنسان، وهي التي تدفعه لسلوك طريقي: الخير أو الشر. وقد قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[222].

إلا أن فضيلة التقوى عند الرمز الديني (ع) قد أخذت بمجامع نفسه من كل طرف، فليس هناك مساحة فارغة يُشغلها شيءٌ يناقض التقوى. وتلك الشخصية المطهَّرة من الدنس يَشهدُ لها أهل البيت (ع) شهادة حدسية، فقد شهد الإمام الرضا (ع) للمهدي (ع) بأنه: (لم يذنب ذنباً، ولا أتى حُوباً، ولم يرتكب معصيةً...)[223]. ولا يُفسر ذلك إلا بالإيمان بأن طهارة أهل البيت (ع) هي طهارة في جوهرهم ومعدنهم، وهذا مصداق لقوله تعالى: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[224].

فطهارة أئمة أهل البيت (ع)، وبضمنهم المهدي (ع)، إرادة آلهية حتمية. وتلك الخاصية متناسبة مع طبيعة الخير التي خلقها الله تعالى فيهم. وهي طبيعة متعلقة بالجوهر والمعدن. فجوهرهم طاهرٌ من الدنس في كل الأحوال: في النقاء والعطاء.

بمعنى أن المهدي (ع) يشعر بقيمة العطاء والجود للآخرين مثلاً حتى ولو لم يكن هناك محتاج أو فقير على وجه الأرض. وهذا هو ما

---

[222] سورة الشمس: الآية 7-8.

[223] مصباح المتهجد ص 366.

[224] سورة الأحزاب: الآية 33.

نقصده بالمعدن الطاهر للإمام (ع)، والطينة الطيبة الطاهرة التي جُبِلَ عليها.

وتلك قواعد نستلهم معانيها من الأفكار الإسلامية التي تفصح بأن الخالق عزوجل يستحق العبادة من المخلوق لأنه تعالى أهلٌ للعبادة، حتى وإن لم يأمره تعالى بالتعبد. وأن الطاهر من أئمة أهل البيت (ع) يشعر بأهمية العطاء للآخرين حتى وإن لم يُؤمَر بالعطاء. وأن الطاهر من أهل البيت (ع) يترفع عن الفجور والخلاعة والفسق حتى لو لم تكن تلك الراذئل موجودة مثلاً.

وبذلك يرتفع هذا الإنسان الفاضل فوق قانون العلّية المصمَّمة أي يتفوق على قانون التأثير والمؤثِر. فقانون التأثير والمؤثِر يقول بأن مشاعر الإنسان تتحرك إذا وَجَدَ فقيراً، فيحاول مساعدته. أما إذا كان الإنسان يشعر بالعطاء في كل الوقت، فذاك إنسان أعلى من قانون العلّية وأعلى من قاعدة التأثير والمؤثِر. وتلك قمة الفضيلة عند الإنسان الفاضل، لأنه يريد الخير لأجل الخير، وطبيعته تمثّل الخير كلَّه. وتلك صفة من صفات أهل البيت (ع).

فالطهارة من الدنس عند الإمام (ع) صفة ثابتة في شخصيته اقتضت الظروف ذلك، أو لم تقتضِ ذلك. أي أنه طاهرٌ دائماً وُجِدَ الدنس أو لم يوجد.

وكلما ارتفعت الفضائل في شخصيته فقد ارتقى في جمال السلوك والسيرة، وازداد في كمال الفكر والتعبير. وما عظمة الفضائل عند المهدي (ع) إلا انعكاس لضخامة المسؤولية الملقاة عليه. فالاخلاق السامية،

والطهارة العقلية عند الإمام (ع) ليست أخلاقاً مكتسَبةً أو هبةً عابرةً، بل هي جزءٌ من تكوينه الطاهر الذي تعهد به الله تعالى في الآية الكريمة. والطهارة من الدنس في شخصيته تتناسب مع التأثير العام الذي سيحدثه على مستوى البشرية جميعاً. والناس بطبيعتهم يستجيبون للقائد الطاهِر المطهَّر من الدنس، لأن شخصيته تُعدّ مصداقاً للحق، والخير، والصدق.

ويتميز المهدي (ع) في أخلاقه وسيرته من أن طهارته من الدنس ثابتة ومستمرة ترافق شخصيته لقرونٍ طويلةٍ، وسوف تستمر إلى ما شاء الله تعالى. ففي أمالي الصدوق عن رسول الله (ص) قال: قال اللهُ تعالى: (... وبالقائم منكم أعمرُ أرضي بتسبيحي وتهليلي وتقديسي وتكبيري وتمجيدي، وبه أُطهّرُ الأرض من أعدائي وأورثها أوليائي، وبه أجعلُ كلمةَ الذين كفروا بي السفلى وكلمتي العليا، وبه أُحيي عبادي وبلادي بعلمي، وله أُظهِرُ الكنوز والذخائر بمشيتي، وإياهُ أُظهِرُ على الأسرار والضمائر بإرادتي، وأُمِدَّهُ بملائكتي لتؤيدهُ على إنفاذِ أمري وإعلانِ ديني، ذلك وليي حقاً، ومهديّ عبادي صدقاً)[225].

في هذا الحديث تفصيلٌ لوظيفة الإمام المهدي (ع) من قبل الله تعالى، فالقائم (ع) يُعمِر الأرض بصلاة الموحدين وتكبيرهم وتسبيحهم، ويُطهّر الأرض من أعداء الله تعالى، وبإرادته تعالى يعمُّ الخير والرخاء بين الناس. فهو سببٌ من أسباب الله تعالى في خلقه. ووظيفة بهذا الحجم

---

[225] أمالي الصدوق ص 731 مجلس 92.

تقتضي شخصية تترفع عن الدنس، وأن تكون طاهرة مطهَّرة عن كل الراذائل.

وجوهر طهارة الإمام (ع) من الدنس لا يقتصر على الطهارة المادية فحسب، بل يشمل الطهارة العقلية من الفسق والفجور. فالاخلاق عند أهل البيت (ع) هي الحكمةُ بعينها. والحكمة هي المعرفة التامة التي تترجم إلى أفضل الأعمال وأكملها.

بمعنى أن الطهارة العملية لأهل البيت (ع) في السلوك، وطهارتهم من الدنس هي أخلاق عملية يقرأها كل إنسان يلحظ سلوكهم وسيرتهم. فطهارة المهدي (ع) هي الحكمة العملية التي تُغنينا عن الكلمات.

وقد يتباين الدنس من زمن لآخر، أو من مكانٍ لآخر، لكن أخلاقية الإمام (ع) تجعله يبتعد عن ذلك في كل ظرف زماني أو مكاني. فالطهارة من الدنس عنده هي العفة عن الرذائل، والشمولية في الإبتعاد عن كل أنواع الخلاعة والفجور، تصوراً ومصداقاً.

4 – التنزيه من اللُّبْس

اللُّبْسُ: من الالتباس، ومعناه: الشبهة وعدمُ الوضوح. وهو احتمال إرادة اللفظ أو العبارة لأكثر من معنى. ولبسَ الأمرَ عليه: اختلط واشتبه بغيره وعمّاه حتى لا يعرف حقيقته[226]. وفي التنزيل العزيز: (... وَلَلَبَسْنَا

[226] المعجم الوسيط ج 2 ص 49.

عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)[227]، يُقال: لَبسْت الأمرَ على القوم أَلْبِسُه لَبْساً إذا شبَّهْتَه عليهم وجَعَلَته مُشْكِلاً[228].

والتشبيه: التمثيل. وفي حديث حذيفة: وذكر فتنةً فقال تشبَّهُ مقبلةً وتُبيّنُ مدبرةً؛ قال شمر: معناه أن الفتنة إذا أقبلت شبَّهت على القوم وأرتهم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها، ويركبوا منها ما لا يحل، فإذا أدبرت وانقضت بانَ أمرها، فعَلِمَ من دخل فيها أنه كان على الخطأ[229].

والشَبْهَةُ (في الشرع): ما التبس أمرُه فلا يدري أحلالٌ هو أو حرام، وحقٌ هو أو باطل. والجمع: شُبهَةٌ. وفي (أصول الفقه): الشبهة الحكمية: هو المشكوك الذي لم يَعرف حكمه[230].

وفي علم (الفقه) فإنّ الشبهة هي: " ما يشبه الشيء الثابت وليس بثابت في نفس الأمر. وهي ما لم يتيقن كونه حراماً أو حلالاً. ينسب لعلي بن أبي طالب (ع) القول: (وأنه إنما سُميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق. وأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين)"[231].

---

[227] سورة الأنعام: الآية 9.

[228] لسان العرب ج 13 ص 161.

[229] لسان العرب ج 13 ص 163.

[230] لسان العرب ج 13 ص 160.

[231] المصباح المنير ج 1 ص 358.

الشبهة وخطورتها على مباني الدين:

لاشك أن للشبهة آثاراً خطيرةً على الدين والمجتمع، فلا مفرَّ للقائد إلا التنزه عنها. ذلك أن التباس الأمر وعدم معرفته أحلالٌ هو أو حرامٌ، حقٌ هو أو باطلٌ يقوّض مقام الإمامة.

فما هو أصل الشبهة؟ وهل هي مسألة لغوية بحتة يلتبس فيها لفظ على لفظ؟ أم أنها مسألة فكرية لها علاقة بالفهم العام للأفكار الإسلامية؟

ابتداءً هناك تلازم بين الشبهة وبين موضوعها. فإذا كانت الفكرة غامضة كانت النتيجة عدم وضوح المعنى، وعدم تشخيص المراد. وفي النهاية نصل إلى تعدد التفسير بالرأي، أو حرمان الذهن من التفسير الصحيح. ويتعاظم أمر الشبهة عندما يتعلق الأمر بالدين كتفسير القرآن، وتعليل الخلق والوجود، وفهم المباني الأخلاقية في المجتمع الإنساني، وفهم العبادات وتكاليف الشرع التي تحتاج إلى وضوح في التعبير، ودقة في المحتوى.

وتبرز الآثار السيئة للشبهة في قضايا الحكم على الأشياء، ففي الشبهة يبدو الشيء أمامنا لا هو حقيقة ولا هو خيال. أي أن الحقيقة تختلط بالوهم، وليس هناك من وسيلة نركن إليها في معرفة الحقيقة. فأصل الشبهة ليس مسألة لغوية بحتة، بل هي قضية فكرية، في أغلب الأحيان، تحتوي على نصفين غير متكاملين من الحقيقة، ولا تتوضح الحقيقة النهائية، كما سنرى، إلا بربط الحقيقتين بعضهما ببعض.

نبحث هذا الموضوع وعلاقته بالإمام المهدي (ع) من طرفين. الأول: فهم معاني القرآن الكريم من خلال المُحكم والمتشابه. الثاني: فهم الأحكام الشرعية من خلال الشبهات الحكمية والموضوعية والمصداقية.

المبحث الأول: فهم معاني القرآن الكريم من خلال المحكم والمتشابه.

قال تعالى في كتابه الكريم: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ...)[232].

تعني الآيات المتشابهات أن المعنى فيها يشتبه فيه السامع مع معنى آخر، حتى يرجع إلى الآيات المُحكمات فيفهم المعنى الحقيقي[233]، ومن ذلك قوله تعالى: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ)[234]، فيشتبه المراد على السامع حتى يرجع إلى قوله تعالى: (...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...)[235]. فيكون معنى الاستواء على العرش هو التسلط والإحاطة بالخلق، دون استلزام التجسيم المستحيل على الخالق عزوجل.

---

[232] سورة آل عمران: الآية 7.

[233] الميزان في تفسير القرآن ج 3 ص 21.

[234] سورة طه: الآية 5.

[235] سورة الشورى: الآية 11.

ومن المتشابهات قوله تعالى: (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[236]، فلا يستقيم المعنى حتى يرجع إلى قوله تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ...)[237]. فيكون المعنى: استحالة رؤية الخالق عزوجل بالبصر. بينما يمكن تصور الخالق عزوجل بالآثار الدالة عليه.

ويؤيده قوله تعالى: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ. لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ)[238]، تلك الرؤية القلبية تختلف عن الرؤية الحسية للبصر. والآية تفصّل ما رآه النبي (ص) في المعراج من عجائب الآيات الكونية.

والتاريخ الإسلامي يشهد بأن من قال بالتجسيم، ونفي الصفات أو زيادتها، وآيات الجبر والتفويض، والادعاء بعدم كمال الأنبياء (ع) ونحوه هم من كان في قلوبهم زيغٌ واتبعوا ما تشابه منه. والأصل في الفكرة أنهم أخذوا بالمتشابهات دون الرجوع إلى الآيات المحكمات.

أما التأويل المذكور في الآية (... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ...)[239] فهو يدلُّ على جواز تعليم التأويل من قبله تعالى لمن اختاره من البشر. كما في قصة موسى (ع) والخضر في قوله:

---

[236] سورة القيامة: الآية 23.

[237] سورة الأنعام: الآية 103.

[238] سورة النجم: الآية 11 – 18.

[239] سورة آل عمران: الآية 7.

(... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)[240]، وقوله: (... ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)[241]. فقد اعترض موسى (ع) على الخضر في ثلاثة مواقف:

الأول: قوله تعالى: (... حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا)[242]، فاعترض موسى (ع): (... أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)[243].

الثاني: قوله تعالى: (... حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ...)[244]، فاعترض موسى (ع): (... أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)[245].

الثالث: قوله تعالى: (... حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ)[246]، فاعترض موسى (ع) وقال: (... لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)[247].

ولكن الخضر (ع) نبأ موسى (ع) بتأويله: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

---

[240] سورة الكهف: الآية 78.

[241] سورة الكهف: الآية 82.

[242] سورة الكهف: الآية 71.

[243] سورة الكهف: الآية 71.

[244] سورة الكهف: الآية 74.

[245] سورة الكهف: الآية 74.

[246] سورة الكهف: الآية 77.

[247] سورة الكهف: الآية 77.

وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...)[248].

ثم أجمل جواباً بليغاً ذا مغزى لكل اعتراضات موسى (ع)، فقال: (... وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ...)[249]. فكلّ ما فعله كان بأمر الله تعالى.

والتأويل هنا إرجاع الشيء إلى حقيقته. وهذا يقودنا إلى فكرة أن الإمام (ع) الذي يخرج آخر الزمان ليعيد دين الله تعالى إلى صورته الصحيحة، ويصون الرسالة السماوية لابد وأن يكون عالماً بمتشابه القرآن ومحكمه، عارفاً بالتأويل، طاهراً في القلب. فهو (ع) من قومٍ أراد الله تعالى تطهيرهم، كما قال تعالى: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[250]، وقال: (... وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ...)[251]، وذلك التطهير المنسوب إلى الله تعالى هو إزالة الرجس من قلوبهم (ع)، وما طهارة القلب إلا مقدمة لطهارة النفس في العمل والإرادة والفكر. وإزالة الرجس معناه عدم اتباع الهوى، والرسوخ في العلم.

فإن من أهم صفات الإمامة الشرعية هو إدراك الآيات المحكمات والمتشابهات إدراكاً تاماً، والقدرة على تأويلها تأويلاً صحيحاً، فإن أغلب الفساد الفكري في الأمة نتج عن إتباع المتشابهات وتأويل القرآن تأويلاً

---

[248] سورة الكهف: الآية 79-82.

[249] سورة الكهف: الآية 82.

[250] سورة الأحزاب: الآية 33.

[251] سورة المائدة: الآية 6.

بعيداً عن الأصل كالتجسيم، والجبر والتفويض، ونقض الصفات الالهية. وهو بمجمله إختبارٌ آلهيٌّ للناس.

وهذا الإدراك للمتشابهات والمحكمات والتأويل الذي تدور عليه رحى معارف القرآن الكريم هو أحد المعجزات الحقيقية للمهدي (ع)، فلا يستطيع شخص مهما أوتي من الصفات من تقمص الشخصية العلمية للإمام المهدي. لأن الذي يدرك المتشابهات والمحكمات والتأويل هو من الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه، وطهرهم وأزال عنهم الرجس، وتلك عقولٌ واعيةٌ ، ونفوسٌ راقيةٌ لا يستطيع أن يصل إلى مستواها من هو دون ذلك من الناس.

ويؤيده قول الإمام الصادق (ع): (إنّ هذا الأمرَ لا يدعيهِ غيرُ صاحبهِ إلا تبَّرَ اللهُ عُمُرَهُ)[252].

فكما أن نفوس البشر مراتب صعود، ودرجات رقي في إدراك الدين وتطبيقه، فإنّ الذين طهرهم الله تعالى هم قمة ذلك الرقي، وفي أعلى درجات الكمال الذهني، والطهارة السلوكية.

وعلى أساس ما ذكرناه، فإن سعادة البشرية بظهور الإمام المهدي (ع) يكون من وجهٍ نتيجةَ فهمها لجوهر التكليف التعبدي، لأنه مقدمة لمعرفة الله تعالى معرفة صافية نقية دون زيادة أو نقصان.

قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)[253]، وقال: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا

---

[252] الكافي ج 1 ص 373.

فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)[254]، وقال: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[255]. فإن "مؤدى الآيات الثلاث يرجع إلى معنى واحد وهو العلم بمتشابه القرآن وردّه إلى محكمه"[256].

ولم يترك الإمام الصادق (ع) تلك المناسبة تمر دون التذكير بالربط المنطقي بين إدراك المحكم والمتشابه وبين أئمة أهل البيت (ع)، فقال: (الراسخون في العلم هم آل محمد صلى الله عليه وآله)[257]. وعندما سُئِلَ (ع) عن المُحكم والمتشابه، قال: (المُحكم ما يُعمل به، والمُتشابه ما اشتبه على جاهله)[258]. وأضاف (ع): (نحن الراسخون في العلم ونحن نعلمُ تأويله)[259].

وفي الدعاء للمهدي (ع) دلالة على إحاطته بعلوم القرآن الكريم ومعانيه. يقول الإمام الرضا (ع): (اللهم ادفع عن وليِّكَ، وخليفتك، وحُجتكَ على خلقِكَ، ولسانكَ المُعبِّر عنك، الناطق بحُكمِكَ، وعينكَ الناظرة بإذنك، وشاهِدِك على عبادِك...)[260].

---

[253] سورة العنكبوت: الآية 43.

[254] سورة النساء: الآية 82.

[255] سورة محمد: الآية 24.

[256] الميزان في تفسير القرآن ج 3 ص 21.

[257] المناقب – الخوارزمي ص 109.

[258] تفسير الميزان ج 3 ص 33.

[259] الكافي ج 1 ص 213.

[260] مصباح المتهجد ص 366.

وكونه (ع) ناطقاً بحكم الله تعالى، ولساناً معبّراً عنه تعالى، وعيناً ناظرة بإذنه تعالى هي من أدقّ التعابير على امتلاك المهدي (ع) تلك القدرة العلمية، وذلك الإدراك الشامل لمعاني القرآن الكريم التي لا تتسع لها المحيطات السبع. وهو إدراكٌ لا يترك للشبهة والمتشابه فسحةٌ ولا مكان.

المبحث الثاني: الشبهات الحكمية والموضوعية في زمن غيبة الإمام (ع):

والمشكلة الفقهية زمن غيبة الإمام المهدي (ع) هي مشكلة الشبهات الحكمية والموضوعية والمصداقية، ذلك لاننا نعيش عصراً فيه الكثير من الشبهات، لكنها ترتفع بالحجة الشرعية المجعولة على الحكم، كما علّمنا أئمة أهل البيت (ع)، خصوصاً الإمامين: الباقر (ع)، والصادق (ع). وليس أمامنا هنا فسحةً إلا عرض الشبهات وأنواعها عرضاً مختصراً، وإحالة من أراد التفصيل إلى الكتب الفقهية والأصولية لعلماء مذهب أهل البيت (ع). فمن الشبهات:

أ – الشبهة الحكمية: وهي الالتباس أو الجهل بأصل الحكم الشرعي، ومن أسبابها: فقدان الدليل، أو إجماله، أو تعارض الدليلين. مثل عدم معرفة الحكم الشرعي في الأمور المستحدَثة في الملكية الإعتبارية. قال الفقهاء يمكن إجراء أصالة الحل وهو (كل شيء لك حلال حتى تعرف أنه حرام فتدعه)[261].

[261] أجود التقريرات – السيد الخوئي ج 2 ص 373.

ب – الشبهة المفهومية: وهي الالتباس أو الشك في مفهوم اللفظ الوارد في دليل الخطاب، ومن أسبابها: اختلاف فهم اللغة بسبب البعد الزمني للنصوص الشرعية. ومثاله الشك في شمول الفاسق لصغار الذنوب!

ج – الشبهة الموضوعية: وهي الالتباس في معرفة موضوع الحكم، كأن لا يعلم أن السائل أمامه كالماء سائل طاهر أو نجس. قال الفقهاء زمن الغيبة أنه لا حاجة إلى الفحص حيث تجري أصالة الطهارة فيه، ويعبر عنه الأصوليون بعدم وجوب الفحص في الشبهات الموضوعية[262].

د – الشبهة المصداقية: وهو الالتباس في المصداق بغض النظر عن الحكم والمفهوم.

ولابد من الإشارة إلى أن الشبهات الحكمية ونحوها ستزول بظهور الإمام المهدي (ع)؛ فالأصل في وجود الإمام (ع) حاضراً هو ارجاع الناس إلى الدين الأصيل الذي لا شبهة فيه، ولا شبهة في أحكامه، ولا خلط في فهم المتشابهات مع المحكمات من الآيات.

5 – خزانة العلم واستيداع الحكمة

من صفات المهدي (ع) أن يكون خازناً للعلم، مستودعاً للحكمة. وتلك الصفات من أعظم صفات القائم (ع). فهي تعني الكمال في العلم، والقدرة على العمل بالحكمة المستودعَة في قلب المعصوم.

---

[262] أجود التقريرات ج 2 ص 84.

أ – خزانة العلم:

خزانة العلم أهم ما في الإمامة من صفات، بل هي أهم خصوصيات المهدي (ع).

فالخَزَانَة في اللغة: مكان الخزْن. وخِزَانَةٌ جمع خَزَائنُ مثل: خَزَائِنُ اللهِ: غيوبُ علمهِ لغموضِها على خلقِهِ. قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)[263]، وقال تعالى: (... وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...)[264]، ويعني غيوب علم الله تعالى التي لا يعلمها إلا الله؛ وقيل للغيوب خزائنُ لغموضها على الناس واستتارها عنهم[265]. وخِزَانةُ الإنسان: قلبُهُ. والقلبُ خزانةٌ مستحفَظَةٌ للخواطر والأسرار.

والخِزانةُ حرفةُ الخازن التي تقتضي الأمانة. وتلك صفة مهمة في خزّان العلم. والخازن للعلم هو الحافظ للعلم، وناشره دون زيادة أو نقصان.

وأهل البيت (ع) خزّان العلم، لأن العلم المستودع عندهم هو علمٌ تلقوه مشافهة من النبي (ص)[266]. فهم الحافظون لعلم النبوة دون زيادة أو نقصان.

ومن منابع العلم: العلم بالقرآن، وقد ورد عن رسول الله (ص) ما يؤكد على ذلك: (... فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافعٌ مشفّعٌ، وماحلٌ مصدقٌ، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة،

---

[263] سورة الحجر: الآية 21.

[264] سورة المنافقون: الآية 7.

[265] لسان العرب ج 5 ص 64.

[266] الكافي ج 1 ص 192.

ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة...)[267].

بمعنى أنه لا يفقأ عين الفتنة إذا وقعت إلا القرآن الكريم، فعلى المسلم أن يتدبر معانيه، ويفهم مضامينه. وإذا أضفنا الروايات الخاصة بالمهدي (ع) الواردة عن رسول الله (ص) تيقنّا بأن المهدي الموعود (ع) لابد أن يكون حياته القرآن الكريم، وفكره معاني الآيات وأسرارها، وسلوكه ترجمة عملية لجميع مفاهيم الكتاب الكريم، كي يكون قدوةً للناس، وإماماً يرشدهم إلى الهداية والصلاح.

وقد قرأنا في كتب التاريخ أن هناك من فاته هذا الربط بين القرآن الكريم وأهل البيت (ع). وأفضل من وصفهم هو الإمام الصادق (ع) عندما تحدث عن بعض الناس ممن زعم بعلمه بالقرآن، وهو ليس كذلك، فيقول: (... وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالمتشابه وهم يرون أنه المحكم، واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام، واحتجوا بأول الآية وتركوا السبب في تأويلها، ولم ينظروا

---

[267] وسائل الشيعة ج 4 ص 828 .

إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوه عن أهله فضلّوا وأضلّوا)[268].

ثم يقول: (واعلموا رحمكم الله: أنه من لم يعرف من كتاب الله عزوجل الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والمحكم من المتشابه، والرخص من العزائم، والمكي والمدني وأسباب التنزيل، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة، وما فيه من علم القضاء والقدر، والتقديم والتأخير، والمبين والعميق، والظاهر والباطن، والابتداء والانتهاء، والسؤال والجواب، والقطع والوصل، والمستثنى منه والجار فيه، والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد، والمؤكد منه والمفصل، وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائضه وأحكامه، ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون والموصول من الألفاظ، والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله. ومتى ما ادعى معرفة هذه الأقسام مدعٍ بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على الله الكذب ورسوله، ومأواه جهنم وبئس المصير)[269].

فإذا كان المهدي (ع) من خزنة العلم فلابد أن يعلم الفارق بين الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمحكم والمتشابه، والمستحب من الواجب، ونحوها. ولابد أن يكون محيطاً بأسباب التنزيل، وأسباب التقديم والتأخير؛ وأن يعلم علوم القضاء والقدر، وأن يعلم طبيعة السياق القرآني،

---

[268] بحار الأنوار ج 93 ص 3-4.

[269] بحار الأنوار ج 93 ص 3-4.

وتركيبة الجمل والمعاني، ومواضع الحلال والحرام. وهذا أمرٌ لا يقدرُ عليه إلا الذين طهّر الله قلوبهم، وفتح عقولهم لتلك المهمة الشاقة.

ب – إستيداع الحكمة:

يعني أن الحكمة والمعرفة تستقر في شخصية المهدي (ع) وتحفظ كي لا تصلها يد التلاعب أو الأهواء.

مُستودَعٌ: اسم مفعول من استودعَ، وأيضاً اسم مكان من استودعَ: مكان الوديعة: مكان الحفظ. قال تعالى: (... وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ...)[270]، المراد مقرها في الأصلاب أو الأرحام أو بعد موتها، وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ...)[271].[272]

والحكمة هي أعلى درجات المعرفة، خصوصاً إذا ارتبطت الحكمة بالسلوك. فهي مرآة لتفكر الإنسان بنفسه، وبالعالم المحيط به، وبخالقه عزوجل. فالحكمة هي علمٌ مرتبطٌ بالأخلاق، ومعرفةٌ مرتبطةٌ بالفضائل. نمثّل لها بمثال الإنسان الشريف، المُحبّ للخير، والقادر المصمِّم على اختيار التقوى دون الفجور. هذا الإنسان يعدُّ حكيماً لأنه فَهِمَ طبيعة الحياة والخلق إستناداً على فكرة كرامة الإنسان، التي ذكرها القرآن: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...)[273]، وعلى فكرة حب الإنسان للخير: (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ

---

[270] سورة هود: الآية 6.

[271] سورة الأنعام: الآية 98.

[272] لسان العرب ج 15 ص 178.

[273] سورة الإسراء: الآية 70.

لَشَدِيدٌ)[274]، وعلى فكرة قدرته على الإختيار: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[275].

يساهم الدين في نشر الفضائل عبر إثارة الشعور بجوهر الإنسان، وإرشاده إلى عالمه الخارجي بشطريه الخيّر والشرير، عملاً بقاعدة: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[276]. وليس هناك من طريقة أفضل لفهم عالمنا المبني على الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل إلا عن طريق تهذيب الإختيار في نفوسنا وعقولنا.

والحكمة تعني إرشاد الإنسان إلى معرفة نفسه ومعرفة المحيط بها عبر العلم، والتبصر بحقائق الأمور وكُنهها وجوهرها، قال تعالى: (...وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...)[277]، (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...)[278].

معنى الحِكْمَة لغةً: الحَكَمَةُ: ما أحاط بحَنَكَي الفرس، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تمنعه من الجري الشَّديد، وتُذلِّل الدَّابَّة لراكبها، حتى تمنعها من الجِماح[279] ، ومنه اشتقاق الحِكْمَة؛ لأنَّها تمنع صاحبها من التخلق

---

[274] سورة العاديات: الآية 8.

[275] سورة الشمس: الآية 7 – 8.

[276] سورة الشمس: الآية 7 – 8.

[277] سورة البقرة: الآية 269.

[278] سورة لقمان: الآية 12.

[279] من جمح الفرس: إذا ذهب يجري جرياً غالباً واعتر فارسه وغلبه (لسان العرب ج 2 ص 426).

بالرذيلـة. وأَحْكَمَ الأَمْرَ: أي أَتْقَنَه فاستَحْكَم، ومنعه عن الفساد، أو منعه من الخروج عمَّا يريد[280].

وقيل أن الحكمة من (حَكَمَ) أي مَنَعَ أي منعَ من الظلم، و"سميت حكمة الدابة لأنها تمنعها، يُقال: حكمتَ الدابةَ وأحكمتها، ويقال: حكمتَ السفيهَ وأحكمته، إذا أخذت على يديه... والحكمةُ هذا قياسها، لأنها تمنع من الجهل"[281].

وفي الاصطلاح: فإن الحكمةَ "علمٌ يبحثُ فيه عن حقائق الأشياء على ما هي في الوجود بقدر طاقة البشر"[282]. بل هي نورٌ يقذفه اللهُ في قلب المؤمن الذي اصطفاه الله تعالى. وعند بعض فقهاء مدرسة الحديث أن الحكمـة في الفقه هو " تحصيل المصلحة ودفع المفسدة"[283]. بل هي "عبارة عن العلم المتَّصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النَّفس، وتحقيق الحقِّ، والعمل به، والصدِّ عن اتِّباع الهوى والباطل، والحَكِيم من له ذلك" [284].

قال تعالى في الحكمة: (...وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)[285]، فالحكمة في القرآن هي

---

[280] لسان العرب ج 12 ص 143. المصباح المنير – الفيومي ج 1 ص 145.

[281] معجم مقاييس اللغة ج 4 ص 103.

[282] التعريفات ص 104.

[283] المحصول – الرازي ج 5 ص 389.

[284] شرح النووي على مسلم ج 2 ص 33.

[285] سورة النساء: الآية 113.

العلم الذي يقذفه الله تعالى في قلوب من اختارهم من المرسلَين أو الأخيار المصطَفين. فهو علمٌ إلهامي غير اكتسابي.

فلا ريب أن يكون المهدي (ع) مستودَعاً للحكمة، لأن الحكمة من الفضائل التي تربط المعرفة الذهنية بالسلوك العملي، فالحكيم إنما يكون حكيماً بتصرفه في الأمور الدينية، وفي تعامله مع القضايا الدنيوية. فهو مع معرفته بالله تعالى، يمتلك نفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به.

ولذلك فالحكمة نورٌ يقذفه الله في قلب الإمام (ع)، أي أن الحكمة نادراً ما تأتي من الاكتساب، بل لابد لها من التسديد الالهي. لأنها تعني التدبير الحكيم لأمور الناس.

ومن مستلزمات الحكمة أن يكون الحكيمُ قادراً على التعبير عن المدلولات اللفظية تعبيراً بليغاً فصيحاً، نفهم منه صحة مراده. وأن يكون الحكيمُ متروياً، متيقناً بصحة ما يفعله، ويؤمن به. وأن يكون الحكيمُ عالماً علماً شمولياً لا علماً تجزيئياً: أي أن يعلم شيئاً ويجهل شيئاً آخر. فهذا مخالفٌ للحكمة. ذلك أن أهم ما يعطل الحكمة هو الجهل بالأشياء، وعدم معرفة ظواهرها وبواطنها.

إذن فالحكمة عند المهدي (ع) هي المعرفة المترجمَة إلى عمل واقعي ينفع الناس في دينهم ودنياهم، والحكيم هو الذي تتطابق أعماله وأفعاله مع أقواله ومنهجه في التفكير. والله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يهب الحكمة لمن يشاء من عباده، وقد قال الله تعالى: (...وَمَنْ يُؤْتَ

الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...)[286]، ولكن بعد تزكية تلك النفس وتطهيرها من الآثام والمعاصي، وقد قال تعالى: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[287].

6 – التأييد بالدلائل

يعني أن الإمام المهدي (ع) مؤيدٌ بالدلائل العقلية والنقلية التي تدعم مهمته آخر الزمان في إحياء الدين، وتثبيت الشريعة، ونشر العدل والقسط بين الناس.

الدلائلُ (لغةً): جمع دلالة أو دليل، والدَّلالةُ: الإرشادُ. والدليلُ: ما يُستدلُّ به، البرهانُ، والبينّةُ، والحجةُ.

و"الدليل هو: المرشد، وما به من الإرشاد. وفي الاصطلاح: هو الذي يلزم من العلم به العلمُ بشيء آخر"[288]. وهو الكاشف: من دللتَ على الشيء ودللتَ إليه. والدّال وصفٌ للفاعل.

ودلائل الإمامة هي العلامات المستلزمة لإمامة أهل البيت (ع)، وصدق دعواهم. والدليل يستلزم الاختصاص بالمدلول عليه. أي أن إمامة أهل البيت (ع) تستلزم الاختصاص بهم دون غيرهم.

ويمكن حصر دلائل إمامة محمد بن الحسن المهدي (ع) بما يلي:

---

[286] سورة البقرة: الآية 269.

[287] سورة الأحزاب: الآية 33.

[288] التعريفات ص 108 .

1 – بشارة النبي (ص) بالمهدي (ع). قال رسول الله (ص): (لا تقوم الساعةُ حتى تمتلئ الأرضُ ظلماً وعدواناً، ثم يخرج رجلٌ من عترتي، أو من أهل بيتي، يملؤها قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وعدواناً)[289].

2 – تناسق لغة أئمة أهل البيت (ع) حول الإمام المهدي (ع) خلال قرنين ونصف من الزمان، وعدم وجود أي تعارض أو تناقض في أقوالهم. وقد تناولنا ذلك في الصفحات الماضية.

3 – شخصية الإمام المهدي (ع)، تصفها كلمات الإمام الصادق (ع): (... وارزقنا نصرَ دينك مع وليٍّ هادٍ منصورٍ من أهل بيت نبيك...)[290]، (...فإنه عبدُك الذي استخلصته لنفسك، واصطفيته على غيبكَ، وعصمتَهُ من الذنوب، وبرأته من العيوب...)[291] .

4 – أنه من أمر الله تعالى. وفيه دعاء الإمام الكاظم (ع): (...اللهم صلِّ على محمدٍ وآلِ محمد، وعلى منارِك في عبادك، الداعي إليك بإذنك، القائم بأمرك، المؤدي عن رسولك عليه وآله السلام، اللهم إذا أظهرته فانجز له ما وعدته...)[292].

وبالإجمال، فإن التأييد بالدلائل النقلية، والبراهين العقلية على إمامة المهدي (ع) عن طريق بشارة النبي (ص) بخروجه (ع)، وتضافر أقوال أئمة أهل البيت (ع) بصفاته وفضله، وكون غيبته وظهوره من أمر الله

---

[289] مسند أحمد بن حنبل ج 3 ص 36.

[290] تهذيب الأحكام ج 3 ص 143 – 147.

[291] مصباح المتهجد ص 366.

[292] جمال الأسبوع – ابن طاووس ص 285.

تعالى، كلها تدلل على أن أمره أمرٌ عظيم. وأمرٌ عظيمٌ كهذا يقتضي أن تكون شخصية المهدي (ع) شخصية عظيمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

الفصل الثالث

عصر الغيبة:
في معاني الولاء للإمام (ع)

الموالاة للمهدي (ع). معنى الموالاة. شُعْب
الولاء. أسس الولاء. الإمام (ع) الحاضر دائماً.

مقدمة

ورد عن رسول الله (ص): (القائمُ من ولدي اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، وشمائله شمائلي، وسنته سنتي، يقيم الناس على ملّتي وشريعتي، ويدعوهم إلى كتاب ربي عزوجل، من أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني، ومن أنكره في غيبته فقد أنكرني، ومن كذّبه فقد كذّبني، ومن صدّقه فقد صدّقني...)[293].

هذا الحديث الخطير لا يترك لنا مجالاً إلا الولاء للمهدي المنتظر (ع). فما هي شروط الولاء للمهدي (ع)؟ وما هي حيثياته؟

الموالاة للمهدي (ع)

تقتضي وظيفة الإمام المهدي (ع) وجود موالين له، مخلصين، مؤمنين، أقوياء يفدونه بالنفس والمال، وبالفكر والمشاعر. وبدون تحقق الموالاة الصادقة من قبل القلّة المؤمنة المخلصة، فإن قضية الظهور تصبح أصعبَ منالاً، وأبعدَ زمناً.

معنى الموالاة:

تعدُّ الموالاة فضيلة إذا كان الولاء فيها جزءً من قضية أخلاقية كبرى. ذلك أن الولاء لعقيدةٍ أو لشخصٍ هو جزء من هوية المعتقِد. ويمكننا

---

[293] كمال الدين ج 2 ص 411.

أن نعدَّ الولاء بمثابة عقدٍ ضمني بين المُوالي والمولى[294]. فالمُوالي يلتزم بالطاعة والمحبة لمولاه، والمولى يلتزم بارشاده إلى النهاية السعيدة لفظاً وفعلاً.

وبهذا الاعتبار فالموالاة قضية دينية إعتبارية بين طرفين: المؤمن الموالي، وإمامه العابد المطيع لله تعالى. وهذا الحد المنطقي يُخرج الولاء العشائري، والأسري، والسياسي ونحوها من التعريف.

قال تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ...)[295]، وفيه دلالة على أن الولاء القلبي لا يمكن أن يجتمع للحق والباطل في وقت واحد. وإلى ذلك المعنى قال الإمام علي بن أبي طالب (ع): (لا يجتمع حبنا وحب عدونا في جوف إنسان، إن الله تعالى لم يجعل لرجلٍ من قلبين في جوفه فيحب هذا ويبغض هذا، فأما محبّنا فيُخلص الحبَّ لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه...)[296]. فإخلاص الحب إذن، والوفاء بالإلزامات بين الموالي والمولى هو الولاء الحقيقي.

وفي اللغة، فإنّ الولاء: مصدر المَوْلى. والولي والموالاة: اتخاذ المولى أو الحليف. ويطلق الولاء على المحبة، والنصرة، والإتباع، والقرب من الشيء[297]. قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

---

[294] المولى: لفظٌ يطلق على المُوالى له.

[295] سورة الأحزاب: الآية 33.

[296] تأويل الآيات ج 2 ص 446، وبحار الأنوار ج 24 ص 318.

[297] مقاييس اللغة ج 6 ص 141، وكتاب العين – الخليل بن أحمد ج 8 ص 365.

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)[298].

وفي مقابل الولاء نجد كلمة مضادة في المعنى هي البراءة. والبراءة في اللغة: البعد والتنزه، قال تعالى: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[299].

وفي حديث أبي ذر عن رسول الله (ص) أنه قال: (أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله)[300]. قال تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...)[301].

شُعب الولاء للإمام المهدي (ع):

الولاء للمهدي (ع) ليس ولاءً عشائرياً، ولا ولاءً سياسياً، بل هو ولاءُ معتَقد، له معانٍ فكريةٍ وقلبيةٍ. والولاء الصحيح مكوّنٌ من ثلاث شعب ينبغي أن تجتمع في عقل الإنسان وقلبه، كي نعدّه موالياً حقيقياً، وهي: الولاء العقلي، والشرعي، والعاطفي.

---

[298] سورة المائدة: الآية 55 – 56.

[299] سورة التوبة: الآية 1.

[300] مسند أحمد ج 4 ص 286.

[301] سورة المجادلة: الآية 22.

أولاً: الولاء العقلي: هو ولاءٌ يحرّكه الدافع العقلي. فإذا اقتنع العقل بفكرة ما عن طريق الدليل، جنَّدّ كل طاقته من أجل دفع النفس الإنسانية نحو الإلتزام بالمولى. فالموالاة العقلية هي أرقى رتب الولاء لأنها تعتمد على الدليل والبرهان.

والثراء الفكري الذي ولدته المصادر الفكرية عن الإمام المهدي، والتنبؤ بظهوره آخر الزمان من قبل رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع) هو دليلٌ عقلي على صحة الفكرة المهدوية ومصداقيتها. فاعتقادنا برسول الله (ص)، وصدقه وأمانته في نقل الرسالة السماوية يجعلنا نعتقد دون شك بصدق ما قاله (ص) في الإمام محمد بن الحسن (ع)، وفي كونه من أئمة أهل البيت (ع)، وهو التاسع من ولد الحسين (ع)، وهو الذي يحقق للإنسانية ما تتمناه من عدلٍ وأمانٍ، وخيرٍ وسعادةٍ.

فالإنسانية تحتاج إلى زمان تستتب فيه العدالة الإجتماعية والحقوقية بين الناس، وينتشر فيه الأمان، وتزول فيه المطامع البشرية التي تظلم الناس، وتحطم كيانهم. وهذا هو تصميم السماء، كما عبّر عنه الإمام السجاد (ع) بالقول: (إن أمر القائم حتمٌ من الله...)[302].

وانحصار الولاء بالقائد الديني وهو الإمام العادل الذي يملأ الأرض عدلاً، يمنعُ الولاء لغيره من هو ظالمٌ في زماننا، أو في أي زمان آخر. فلا يمكن تعدد الولاءات، أي لا يمكن أن يكون للإنسان ولاءٌ للإمام (ع) وله ولاءٌ لآخر ظالم في نفس الوقت. وبالنتيجة فإن انحصار الولاء بشخص

---

[302] قرب الإسناد ص 164-165.

المهدي (ع) يقطع على الظالم كل محاولة لتبرير ظلمه. وهذا هو عين ما يقوله العقل في مبدأ الولاء.

ثانياً: الولاء الشرعي: يعكس الولاء الشرعي الإلزام الذي يأمر به الدين لتوثيق الرابطة بين الإنسان وبمن يعتقد به. فلولا الإعتقاد القوي بأهل البيت (ع) وكونهم جزءً من منظومة الإسلام الفكرية لما حصل ذلك الولاء. والجميل في الولاء الشرعي أنه ولاء جماعي، حيث ترتبط الجماعة برابط الاشتراك في الولاء لإمامها، وهي فخورةٌ بذلك. فالولاء لأهل البيت (ع) يحمل أمرين: الفكرة الجماعية المشتركة للموالاة، والاعتزاز بتلك الموالاة.

ومن مصاديق ذلك الولاء للمهدي (ع) نصٌ منقولٌ عن الإمام الكاظم (ع) حول ما يقوله المكلّف في سجدة الشكر: (اللهم إني أُشهِدُكَ وأُشهِدُ ملائكتك وأنبياءك ورُسلَكَ وجميعَ خلقك أنك انت الله ربي، والإسلامَ ديني، ومحمداً نبيّ، وعلياً والحسنَ والحسينَ، وعليَّ بن الحسين، ومحمدَ بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعليَّ بن محمد، والحسنَ بن علي، والحجةَ بن الحسن بن علي، أئمتي بهم أتولى، ومن أعدائهم أتبرأُ)[303].

ويعضده قول الإمام الباقر (ع) مخاطباً الذي سأله عن دينه الذي يدينُ به، قال (ع): (... والله لأعطينك ديني ودينَ آبائي الذي ندينُ الله عزوجل به: شهادةَ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ (ص)، والإقرارَ

[303] من لا يحضره الفقيه ج 1 ص 329.

بما جاءَ من عند الله، والولايةَ لوليّنا، والبراءةَ من عدونا، والتسليمَ لأمرنا، وانتظارَ قائمنا، والإجتهاد والورع)[304].

ولذلك نهى أهلُ البيت (ع) أتباعهم من موالاة أعدائهم، ومعاداة أوليائهم، فإذا حصل ذلك الوهم اختلط الحق بالباطل، ودخل الإيمان بالنفاق. وهو محرمٌ شرعاً بدليل المحادثة بين الإمام الرضا (ع) والحسن بن علي الخزاز. قال الإمام الرضا (ع): (إن ممن يتخذ مودتنا أهل البيت لمن هو أشدُّ فتنةً على شيعتنا من الدجال!) قال الخزاز: يا بن رسول الله بماذا؟ قال: (بموالاةِ أعدائنا ومعاداةِ أوليائنا! إنه إذا كان كذلك اختلط الحقُّ بالباطل واشتبه الأمر، فلم يُعرف مؤمنٌ من منافقٍ)[305].

والمعنى: أن ممن يتخذ مودتنا أهل البيت (ع) بموالاة أعدائنا، ومعاداة أوليائنا اختلط عليه الحقُ بالباطل. فالولاء ينبغي أن يكون خالصاً لجهة واحدة فقط. ذلك أن القلب لا يحتمل ولائين متناقضين في وقت واحد.

وكان الإمام الصادق (ع) يخاطب أصحابه ويوصيهم: (... فعليكم بالطاعة، قد رأيتم أصحاب علي، وانتم تأتمّون بمن لا يُعذرُ الناسُ بجهالته، لنا كرائمُ القرآن، ونحن أقوامٌ افترض اللهُ طاعتنا، ولنا الأنفالُ، ولنا صفوُ المال)[306].

---

[304] الكافي ج 2 ص 21- 22.

[305] صفات الشيعة – الصدوق ص 14.

[306] المحاسن ج 1 ص 251.

ولاشك أن للولاء ثمنٌ باهظ يدفعه الموالي، فالولاء الحقيقي يجعل الموالي يضحي برزقه وحياته من أجل ذلك الإيمان، ولذلك كان ثوابه عظيماً، إلى درجة أن: (مَنْ ثبت على موالاتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله عزوجل أجر ألف شهيد من شهداء بدر وأحد)[307]، كما قاله الإمام السجاد (ع). وأن (مَنْ سُرَّ أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر، وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظِر، فإن مات وقام القائم بعده كان له من الأجر مثل أجر من أدركه...)[308]، كما قاله الإمام الصادق (ع).

والولاء الشرعي ولاءٌ صادق لا يخون الإنسان. فربما يوالي الإنسان في حياته حاكماً ظالماً أو مفكراً على غير الجادة ثم يتبين انحراف فكره. فيندم على ذلك الولاء الكاذب. ولكن الولاء الشرعي صادقٌ دائماً، لأن الدين مصدر سعادة الإنسان، ومصدر ثقته. والولاء للمهدي (ع) هو ولاءٌ دينيٌّ أمَرَ به رسول الله (ص)، وسددهُ الله تعالى قبل ذلك.

ثالثاً: الولاء العاطفي: هو الولاء المشحون بالعاطفة والمشاعر الإنسانية، المشحون بالألم لمعاناة الإمام (ع) على تلك الفترة الطويلة وهو ينتظر أمر الله تعالى، عابداً لله، صابراً على الوحدة والمعاناة، متقيّاً الله تعالى.

---

[307] كمال الدين ج 1 ص 323.

[308] بحار الأنوار ج 52 ص 140.

وفي دعائه، وبعد أن يذكر اسماءهم (ع) حتى ينتهي إلى الخلف الصالح الحجة المنتظر (ع) يقول: (... صلواتك يا رب عليه، وعليهم السلام أجمعين، هم الأئمة الهداةُ المهتدون، غير الضالين ولا المُضلين، وأنهم أولياؤك المصطفون، وحزبك الغالبون، وصفوتك من خلقك، وخيرتك من بريتك، ونجباؤك الذين انجبتهم لولايتك، واختصصتهم من خلقك، واصطفيتهم على عبادك، وجعلتهم حجةً على العالمين...)[309].

وفي دعاء الإمام السجاد (ع): (اللهم اشترِ نفسي الموقوفة عليك، المحبوسة لأمرك بالجنّة، مع معصومٍ من عترةِ نبيك (ص)، محزونٍ لظلامته، منسوبٍ بولادته، تملؤ به الأرض عدلاً وقسطاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً، ولا تجعلني ممن تقدم فمرَق، أو تأخر فمُحِقَ، واجعلني ممن لزِمَ فلحِقَ، واجعلني شهيداً سعيداً في قبضتك)[310].

وأمام هذه العاطفة والمشاعر فهل يمكن لهذا الولاء غير المحدود للإمام المهدي (ع) أن يُستبدل بولاء آخر؟ الجواب على ذلك لايمكن للمؤمن أن يستبدل ولائه الأصلي بولاء آخر لأنه يعدُّ خيانة لدينه ومبدأه. وقد قال تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...)[311].

---

[309] مصباح المتهجد ص 85 –86.

[310] مصباح المتهجد ص 375.

[311] سورة المجادلة: الآية 22.

أسس الولاء

لابد للولاء من موضوع، وهدف، ومبرر عقلي، ومساحة يسري فيها فيأسر قلوب الموالين بمولاهم. وتلك هي أسس الولاء:

1 – موضوع الولاء:

يكتمل الولاء بموضوعٍ يقبله العقل، ويطمئن له القلب، ولا يكون الولاءُ تاماً ما لم يكن الموضوع ضخماً. وموضوع الولاء هو الله تعالى، ورسوله (ص)، وأهل بيته (ع). وهو موضوعٌ ضخمٌ جداً على قلب الإنسان وعقله. قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[312]، و(لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...)[313]. وقال رسول الله (ص): (أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله...)[314].

إذن لموضوع الولاء أهمية كبيرة في تحديد طبيعة الاعتقاد، وكلما كان الولاء قوياً كان الاعتقاد ثابتاً راسخاً لا يتزعزع. وقد حدد رسول الله (ص) طبيعة ذلك الولاء، وربطه بنفسه الشريفة عندما قال (ص) عن

---

[312] سورة المائدة: الآية 55.

[313] سورة المجادلة: الآية 22.

[314] مسند أحمد ج 4 ص 286.

المهدي (ع): (... من انكره في غيبته فقد انكرني، ومن كذبه فقد كذبني، ومن صدّقه فقد صدّقني...)[315].

وطالما بقي الإمام المهدي (ع) حياً غائباً فولاءنا له يعني أننا رهن إشارته، وطاعتنا له طاعة تامة كطاعة رسول الله (ص)، نستدل على ذلك بحديثٍ عن رسول الله (ص)، قال: (بنا يُختَمُ الدينُ كما فُتِحَ، وبنا يُستنقذون من ضلالةِ الفتنةِ كما استنقذوا من ضلالة الشرك، وبنا يُؤلّفُ اللهُ بين قلوبهم في الدين بعد عداوة الفتنة، كما ألف اللهُ بين قلوبهم ودينهم بعد عداوة الشرك)[316]. وطالما كان أهل البيت (ع) أصل الإسلام، فولاءنا لهم لا ينقطع ما دام فينا عرقٌ ينبض بالحياة.

وولاءنا للمهدي (ع) ينبع أيضاً من حبنا لرسول الله ولأهل بيته (ع). فنحن نحب في أئمة أهل البيت (ع): شخصياتهم المتكاملة من زوايا العلم، والتقوى، وعدم المعصية، وحسن الاخلاق، والتضحية والإيثار في سبيل الدين.

وقد انتقل حب شخصيات أهل البيت (ع) إلى حب القضية التي يحملونها، وهي قضية الدين، وإرشاد الناس نحو الفضائل، ومعرفة الله وعبادته. واصبحت شخصياتهم مثالاً وقدوةً لكل مؤمن يبحث عن طريق

---

[315] كمال الدين ج 2 ص 411.

[316] الفتن – ابن حماد ج 1 ص 370.

الكمال والترقي. قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[317].

فاصبح الولاء الشخصي الديني لأئمة أهل البيت (ع) في زماننا إلى ولاء للقضية التي يحملها صاحب العصر والزمان (ع). وهذا ولاء ديني إلزامي يستشعره المؤمن به في كل لحظة من لحظات حياته.

2 – هدف الولاء:

الهدف الرئيسي من موالاة الإمام المهدي (ع) هو طلب الوصول إلى مرضاة رسول الله (ص)، وبالتالي مرضاة الله تعالى. فهو طلبٌ للوصول، وموالاةٌ للقدوة الحسنة المتمثلة برسول الله (ص) التي أمرنا الله تعالى بالاقتداء بها في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[318]، وقوله (ص): (اللهم إنّهم مني وانا منهم فاجعل صلواتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك عليَّ وعليهم)[319].

فالإلزام الاخلاقي بموالاة الإمام بمواصفاته الكمالية هو الإلتزام بالقضية التي بذل حياته من أجلها. والهدف من موالاة شخص الإمام (ع)

---

[317] سورة الأحزاب: الآية 21.

[318] سورة الأحزاب: الآية 21.

[319] المناقب – الخوارزمي ص 63.

– وباعتبار عصمته في الدين – هو الوصول إلى الولاء للفكرة التي يحملها.

أن قرارَ موالاةِ شخصيةٍ في غاية الكمال كشخصية المهدي (ع) لا يتم إلا بعد تيقن العقل بصحة ما يحمله المولى من أفكار والزامات. ولو لم يقتنع الموالي قلبياً وعقلياً بالفكرة لما حصلت الموالاة. ولذلك فإن الولاء هو اعتراف ضمني بصحة الخصائص والصفات التي يمتلكها المولى (ع). وهذا الاعتراف بصحة الخصائص هو هدفٌ من أهداف الولاء. فالولاء مدرسة يتعلم فيها الإنسان طبيعة النظام والطاعة للمهدي (ع).

والولاء للقائد العادل المطيع لله تعالى بهذا اللحاظ يعدُّ فضيلة أخلاقية، بينما يعدُّ الولاء للظالم العاصي رذيلة. وهذا المقياس مهم في عملية ضبط الموالاة الشرعية الصحيحة المطابقة للدين.

وزبدة القول أن موالاة الإمام (ع) لها ميزتين:

الأولى: أنها موالاة أخلاقية، فهي موالاة المسترشِد للمرشد، وموالاة الإمام للمأموم، وموالاة المُطيع للمُطاع، وموالاة الخير والفضيلة لمن اراد الخير والفضيلة.

الثاني: أنها موالاة تستند على حكم عقلي صحيح، وهو وصية رسول الله (ص) بالمهدي (ع)، والثابت أن أوامرَ رسول الله (ص) نافذة على الناس من أهل التكليف إلى يوم القيامة.

3 – التبرير العقلي للولاء:

إذا كان الولاء للأسرة أو العشيرة مقبولاً باعتبار رابطة الدم والرحم، فإن الولاء للدين يعدُّ أعمق دلالة على الصعيد العقلي، لأنه مرتبطٌ بالإيمان بالدين بكل ما يحمله من معانٍ في الغيب والشهادة. والولاء للمهدي (ع) يعدُّ ولاءً لرسول الله (ص) ، كما ورد في الحديث: (من أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني)[320].

وبكلمة فإن الأدلة الشرعية هي التي أخذت بأعناق فقهاء أهل البيت (ع) في صحة الإلتزام بأحاديث المهدي، بل لا تسمح لنا تلك الأدلة بمخالفتهم، وقد وصفهم رسول الله (ص): (فلا تسبقوهم فتفرقوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلمُ منكم)[321]. ولو درس المفكر آثار أهل البيت (ع)، وعرف فضائلهم ومآثرهم، ومكارم أخلاقهم، لكان ذلك مبرراً عقلياً له لاظهار الولاء لهم.

وهذا مصداقٌ لما قاله الإمام السجاد (ع) من: (إن أهل زمان غيبته، القائلين بإمامته، والمنتظرون لظهوره أفضل من أهل كل زمان، لأن الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين

---

[320] كمال الدين ج 2 ص 411.

[321] الإرشاد – الشيخ المفيد ص 180.

يدي رسول الله (ص) بالسيف، أولئك المخلصون حقاً، وشيعتنا صدقاً، والدعاة إلى دين الله عزوجل سراً وجهراً)[322].

4 – عالمية الولاء:

الولاء للإمام المهدي (ع) عالميٌّ بطبيعته أي يشمل الدنيا كلها. فأينما وجد مسلمٌ موالٍ لأهل البيت (ع)، أعلن ولاءه للمهدي (ع). وتلك قضية عالمية تشمل كل إنسان مكلَّف، مهما كان لونه أو منشأه أو لغته، قد صدّق بحديث رسول الله (ص). وهذا الولاء ولاءٌ إنساني يستشعره الإنسان الموالي بغض النظر عن الجغرافيا والمكان.

وهذا الولاء العالمي للمهدي (ع) يسهّل للإمام الخروج، لأن اتباعه يقطنون جميع أرجاء الأرض. وكلما ازداد الضغط عليهم في مكان ما انتشروا في باقي أقطار الأرض. وفي ذلك حكمةٌ بالغةٌ، وهي أن الله عزوجل يهيأ الأرض الصالحة، والوقت المناسب كي يقوم المهدي (ع) بوظيفته الإستثنائية بالظهور، ويفتح لهم آفاقاً من الأمل بتثبيت الدين، وتحقيق العدالة بين الناس.

---

[322] الإحتجاج ص 122.

الإمام (ع) الحاضر دائماً

دراسة مختصرة في أدبيات الإمام المهدي (ع) تبين لنا أن الإمام حاضرٌ مع الناس خلال فترة الغيبة الكبرى من خلال أدبيات الدعاء والزيارة. فهناك أدعية صدرت عن الإمام (ع) مباشرة يقرأها الإنسان على مدار السنة: ليالي الجمع، وأيامها، والأعياد الإسلامية، وشهر رمضان، ومبعث النبي (ص). وأدعية أخرى تُقرأ في أي وقت. وبذلك نفهم أن الإمام حاضر في الأوقات كلها مع الإنسان المؤمن به زمن الغيبة.

ومحور الأدعية المأثورة عن المهدي (ع)، أو التي ذكرها بقية أئمة أهل البيت (ع) على لسانه هو الولاء للقائم (ع)، والطاعة التامة له. وهي بمجملها مدرسةٌ لثقافة الولاء والإنتظار، والإعداد الروحي والعقلي لقدوم المنقِذ، وحسن الإتصال بالله تعالى، ومحاولة اصلاح النفس البشرية كي تكون مؤهِلّة لمقتضيات مرحلة الظهور.

نعرض فيما يلي نماذج لمقاطع منتخَبة مختصرة من أدعية الإمام المهدي (ع) زمن الغيبة الكبرى:

أولاً: الأدعية الموقوتة:

وهي الأدعية التي يُدعى بها في المناسبات أو في أوقات معينة، وهي على تنوعها إلا أن فيها وحدة المنهج، وجزالة التعبير، وعظمة التسبيح، والإعتراف بضعف النفس الإنسانية، ومقدار حاجتها إلى خالقها وبارئها، ومن تلك الأدعية مقاطع:

1 – دعاء الندبة (يُقرأ في الأعياد الأربعة: الفطر، والأضحى، والغدير، والجمعة): (اللهم لك الحمدُ على ما جرى به قضاؤك في أوليائك الذين استخلصتهم لنفسِكَ ودينك، إذ اخترتَ لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال، بعد أن شرطتَ عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنّية وزُخرفها وزبرجها، فشرطوا لك ذلك وعلِمتَ منهم الوفاءَ به فقبلتهم وقرّبتهم...)[323].

2 – دعاء قضاء الحوائج ليلة الجمعة (يُقرأ بعد صلاة نافلة): (... اللهم إن أطعتكَ فالمحمدةُ لكَ، وإن عصيتُكَ فالحجةُ لكَ، منكَ الروحُ، ومنكَ الفرجُ. سبحان مَنْ أنعمَ وشكرَ، مَنْ قدّرَ وغفر. اللهم إن كنتُ عصيتُكَ فإني قد أطعتكَ في أحب الأشياءِ إليكَ وهو الإيمانُ بك، لم أتخذ لك ولداً، ولم ادعُ لك شريكاً، منّاً منك به عليّ لا منّاً مني بهِ عليكَ...)[324].

3 – دعاؤه بعد صلاة الفجر (يدعوه بلسان حال المؤمنين): (اللهم بلّغ مولايَ صاحبَ الزمان صلواتُ اللهِ عليهِ عن جميع المؤمنين والمؤمناتِ، في مشارقِ الأرضِ ومغاربها، وبَرّها وبحرِها، وسهلها وجبلها، حيّهم وميتِهم، وعن والديَّ ووُلْدي، وعنّي من الصلواتِ والتحياتِ، زنةَ عرشِ اللهِ، ومدادَ كلماتهِ، ومنتهى رضاه، وعددَ ما أحصاه كتابُهُ، وأحاطَ بهِ عِلمُهُ. اللهمَّ إني

---

[323] مصباح الزائر – ابن طاووس ص 230 – 234 .

[324] المصباح – الكفعمي ص 522.

أُجَدِّدُ بهُ في هذا اليومِ، وفي كلِّ يومٍ، عهداً وعقداً وبيعةً [له] في رَقَبَتي...)[325].

4 – دعاء الإفتتاح في شهر رمضان: (اللهم إني أفتتحُ الثناء بحمدك، وأنت مسدّدٌ للصوابِ بمنك، وأيقنتُ أنك أرحمَ الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشدُ المعاقبين في موضع النكالِ والنقمةِ، وأعظمُ المتجبرين في موضعِ الكبرياءِ والعظمة. اللهم أذِنتَ لي في دعائك ومسألتك، فاسمع يا سميعُ مدحتي، وأجب يا رحيمُ دعوتي، وأقِلْ يا غفورُ عثرتي...)[326].

نستنتج من تلك الأدعية أن المهدي (ع) يعيش بيننا بالفكرة والمفهوم، فإننا ندعو معه في مناسبات: عيد الفطر، والأضحى، والغدير، وأيام الجمع، وليالي الجمع، وصلاة الفجر، وكل ليلة من شهر رمضان. وتلك الأدعية تغطي أيام متواصلة من السنة. ومن ناحية المضمون، فإنها تتحدث عن صفات الإمام (ع) من ناحية الزهد، والطاعة، والإيمان، والولاء، وعقد البيعة له، والأمل بإقامة دولة الحق والعدل.

---

[325] بحار الأنوار ج 95 ص 110.

[326] إقبال الأعمال – ابن طاووس ص 138.

ثانياً: الأدعية التي يدعى بها في كل وقت:

وهي أدعية تخصُّ في ظاهرها الإمام المهدي (ع) نفسه بحفظه من عيون أعدائه، وبحفظ المؤمنين والمؤمنات زمن غيبته، إلا أنها في الواقع صلةُ وصلٍ بينه وبين اتباعه من المؤمنين:

1 – دعاء (اللهم احجبني عن عيون أعدائي): (اللهم احجبني عن عيون أعدائي، واجمع بيني وبين أوليائي، وأنجز لي ما وعدتني، واحفظني في غيبتي إلى أن تأذن لي في ظهوري، وأحيّ بي ما درس من فروضك وسنتك، وعجّل فرجي، وسهّل مخرجي، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً، وافتح لي فتحاً مبيناً، واهدني صراطاً مستقيماً...)[327].

2 – دعاؤه (ع) في الشدائد: (إلهي بحقِّ من ناجاكَ وبحقِّ من دعاكَ في البر والبحر صلِّ على محمدٍ وآله، تفضَّل على فقراء المؤمنين والمؤمنات بالغنى والثروة، وعلى مرضى المؤمنين والمؤمنات بالشفاءِ والصحةِ، وعلى أحياءِ المؤمنين والمؤمنات باللطف والكرم، وعلى أمواتِ المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والرحمة، وعلى غرباء المؤمنين والمؤمنات بالرَّدِ إلى أوطانهم سالمين غانمين بمحمدٍ وآله أجمعين)[328].

---

[327] المصباح – الكفعمي ص 220. بحار الأنوار ج 91 ص 378.

[328] المصباح ص 407.

3 – دعاؤه (ع) في قضاء الحوائج: (... اللهم ذُهِلَتِ العقولُ، وانحصرت الأبصارُ، وضاعتِ الأفهامُ، وحارتِ الأوهامُ، وقصُرتِ الخواطرُ، وبعُدتِ الظنونُ عن إدراك كُنهِ كيفية ما ظهر من بوادي عجائبِ أصنافِ بدائعِ قُدرتكَ دون البلوغِ إلى معرفة تلألؤِ لمعاتِ بروقِ سمائك. اللهم مُحرّك الحركاتِ، ومُبدِئ نهايةِ الغاياتِ، ومُخرج ينابيع تفريع قُضبان النبات...)[329].

ودعاءٌ آخر في الموضوع نفسه: (اللهم ارزقنا توفيق الطاعة، وبُعد المعصية، وصدقَ النية، وعرفانَ الحرمة، وأكرمنا بالهدى والإستقامة، وسدد ألسنتنا بالصواب والحكمة، واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة، وطهر بطوننا من الحرام والشبهة، واكفف أيدينا عن الظلم والسرقة، واغضض أبصارنا عن الفجور والخيانة، واسدد أسماعنا عن اللغو والغيبة، وتفضل على علمائنا بالزهد والنصيحة...)[330].

4 – دعاؤه (ع) في كشف الكرب: (اللهم عظم البلاء، وبرح الخفاء، وانكشف الغطاء وضاقت الأرض بما وسعت السماء، وإليك يا رب

---

[329] المصباح ص 354.

[330] المصباح ص 374.

المشتكى، وعليك المعوَّلُ في الشدة والرخاء. اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمدٍ، الذين أمرتنا بطاعتهم، وعجل اللهم فرجهم بقائمهم...)[331].

5 – الدعاء في غيبة الإمام (ع): (اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللتُ عن ديني، اللهم لا تمتني ميتةً جاهليةً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، اللهم فكما هديتني لولايةِ مَنْ فرضت عليَّ طاعته من ولاة أمرك بعد رسولك صلواتك عليه وآله حتى واليتُ ولاة أمرك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وعلياً، ومحمداً، وجعفراً، وموسى، وعلياً، ومحمداً، وعلياً، والحسن، والحجة القائم المهدي صلواتك عليهم أجمعين.

اللهم فثبتني على دينك واستعملني بطاعتك، ولين قلبي لولي أمرك، وعافني مما امتحنت به خلقك، وثبتني على طاعة ولي أمرك الذي سترته عن خلقك، وبإذنك غاب عن بريتك وأمرك ينتظرُ، وأنت العالمُ غيرُ المُعلَّم بالوقت الذي فيه صلاحُ أمر وليك في الإذن له بإظهار أمره وكشف سره، فصبرني على ذلك حتى لا أُحبَّ تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت، ولا كشف ما سترت، ولا البحث عما كتمت، ولا أنازعك في تدبيرك

[331] المصباح ص 235.

ولا أقولُ لِمَ وكيف؟ وما بالُ ولي الأمر لا يظهر؟ وقد امتلأت الأرضُ من الجور؟ وأفوض أموري كلها إليك...)[332].

نستنتج من تلك الكلمات الطيبات على لسان المهدي (ع) أنه يدعو الله تعالى أن يحفظه في غيبته، ويُسدد له مهمته، ويحفظ مواليه من المؤمنين من اتباع محمد المصطفى (ص)، وأن يقضي حوائجهم، وأن يكشف الكرب عنهم، وأن يعجّل له ظهوره، وأن يعرّف الناس جميعاً به وبمهمته، وأن يثبّت يقينهم بحكمة وجوده. وفي تلك المقاطع أعظم مصاديق الولاء للمهدي (ع) بشخصه، وفكره، وارتباطه برسول الله (ص).

[332] كمال الدين ص 376.

الفصل الرابع

عصر الغيبة: الإنسان

مقدمة. أصالة الإنسان. الإنسان والعقل. خلق الإنسان
والخلافة الربانية. وظيفة الإنسان زمن غيبة المهدي (ع).
الطبيعة الإنسانية. السعادة الحقيقية بالمهدي (ع).

مقدمة

قال الإمام الصادق (ع) وهو يصف (العدَّةُ الموصوفةُ ثلاثمائةٍ وبضعةَ عشرٍ) التي تساند المهدي (ع): (...إنما شيعتُنا من لا يهرُّ هريرَ الكلب[333]، ولا يطمعُ طمَعَ الغُرابِ[334]، ولا يسألُ الناسَ بكفِّهِ وإن ماتَ جُوعاً)[335].

وحينما سأله السائل عن مكان هؤلاء الأخيار، أجابه: (أطلُبُهم في أطرافِ الأرضِ، أولئكَ الخفيضُ عيشهم[336]، المنتقلةُ دارُهم، الذين إن شهدوا لم يُعرَفوا، إن غابوا لم يُفتقدوا، وإن مرِضوا لم يُعادوا، وإن خطبوا لم يزوجوا، وإن ماتوا لم يشهدوا، أولئك الذين في أموالهم يتواسون، وفي قبورهم يتزاورون، ولا تختلف أهواؤهم، وإن اختلفت بهم البلدان)[337].

في هذا الحديث، ذو الوصف الدقيق، يصفُ لنا الإمام الصادق (ع) صورة من صور الإنسان الشيعي المثالي الموالي لأهل البيت (ع)، والمتفاني في مهمة المهدي (ع)، ويضع له أربع صفات، هي:

---

[333] هريرَ الكلب: صوت الكلب دون النباح من قلّة صبره على البرد.

[334] طمع الغراب: يضرب به المثل في الرغبة الشديدة عند الغراب للحصول على الشيء والاستحواذ عليه. وفي التنزيل الحكيم: (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ...) سورة المائدة: الآية 31.

[335] الغيبة – النعماني ص 210 – 211.

[336] الخفيضُ عيشهم: من خَفُضَ عَيْشُهُ: صار سهلاً هيناً.

[337] الغيبة – النعماني ص 210 – 211.

الأولى: الصبر على الأذى والألم والمعاناة، فهو من لا يهرُّ هريرَ الكلب، أي يتحمل المعاناة بصبرٍ تامٍ، دون أن يُسمِعَ صوتَ ألمهِ أحداً من الناس. وهو مصداقٌ عملي لقوله تعالى: (... وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[338].

الثانية: الزهد في الدنيا، وعدم الطمع في ثرواتها ومفاتنها، فهو لا يطمع طمع الغراب صاحب الرغبة الشديدة في الإستحواذ على الشيء. وهو مصداق قوله تعالى: (...وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[339].

الثالثة: التعفف عما في أيدي الناس، فهو عفيفٌ لا يسأل الناس بكفه وإن مات جوعاً. وقد قال تعالى يصف هذا الطراز من المؤمنين: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا)[340].

الرابعة: الثبات على العقيدة، فلا تختلف آراؤه مع آراء إخوانه، فهي متطابقة مع المنبع الأصيل. وكأن رأي كُلٍّ منهم (... كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)[341]، (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...)[342].

---

[338] سورة البقرة: الآية 177.

[339] سورة آل عمران: الآية 185.

[340] سورة البقرة: الآية 273.

[341] سورة إبراهيم: الآية 24.

[342] سورة الفتح: الآية 29.

وذكْرُهم بصيغة الجمع دلالة على أنه كان يقصد أنهم أمةٌ من الناس. وبعددهم الذي يتجاوز الثلاثمائة قليلاً يدلُّ على كونهم أمة مصغّرة أقرب إلى الكمال البشري في حياتهم، وعلاقاتهم، ومسؤولياتهم الدينية.

وطالما كانوا متعففين في طلب الدنيا، زاهدين فيها، صابرين عليها، فعليك أن تبحث عنهم في أطراف الأرض، لأنهم تقاةٌ مجهولون، يضحون بحياتهم في سبيل دينهم، ولا تعرف الناس تضحياتهم بل يعرفها الله تعالى. وبسبب زهدهم في الدنيا وتعففهم، فالجاهل بأمرهم يحسبهم يعيشون على هامش الحياة فلا يعودهم الناس إذا مرضوا، ولا يفتقدونهم إذا غابوا، بل يستنكفون معاشرتهم!

هذا الحديث يكشف حقيقة أن النفس الإنسانية وسموها وصقلها ربما تخطؤه العين الإجتماعية. أي أن المؤمن بأهل البيت (ع) قد يكون متكاملاً في عين الله تعالى، إلا أن المجتمع لا يكترث بوجوده من ناحية المنزلة، والطبقة الإجتماعية، وظاهر الإحسان والصلاح. فالواحد من تلك العدّة الموصوفة يتحلى بصفات جوهرية قد لا تراها المرآة الإجتماعية التي نرى أنفسنا من خلالها في أغلب الأحيان. أي أن كلّ واحد منهم يهتم بإصلاح نفسه، وينظر إلى مدى ارتباطه بالله تعالى أكثر مما يهتم برأي الناس بشخصه!

يمكننا عدّ هذا الحديث مقدمة لمعرفة طبيعة الإنسان في نظر الإسلام على ضوء القرآن وأئمة أهل البيت (ع). فكيف ينظر أئمة أهل البيت (ع) للإنسان؟ وما هي طبيعة الإنسان ووظيفته عند المهدي (ع)، في غيبته وفي ظهوره؟

لابد أن نبحث بدايةً عن أصالة الإنسان في الإسلام، وعن موقعه في هذا الوجود، وعن نوعية الإنسان الذي يبحث عنه الإمام المهدي في إعمار الأرض، ونشر العدالة الواقعية بين الناس.

أصالة الإنسان

نقصد بأصالة الإنسان في الوجود أن الإنسان مقدَّمٌ رتبةً على بقية المخلوقات بعقله وإدراكه، وقوة اختياره للخير. قال تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)[343]، و(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)[344]، (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...)[345].

وحتى أن حاجاته الطبيعية وغرائزه المشروعة يمكن أن تُلحظ من زاوية كونه مخلوقاً كرّمه الله تعالى على باقي الكائنات، فيسَّرَ عليه اقتناء الطيبات كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا...)[346]، و(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ...)[347]، (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...)[348].

---

[343] سورة البلد: الآية 10.

[344] سورة الإنسان: الآية 3.

[345] سورة الكهف: الآية 29.

[346] سورة المؤمنون: الآية 51.

[347] سورة الأعراف: الآية 31.

[348] سورة الأعراف: الآية 32.

ويُستدل على قوة العقل عند الإنسان، وفي كونه الأداة التي يُحاسب عليها حديثٌ لرسول الله (ص) قال فيه: (أن الله خلق العقل من نورٍ مخزونٍ... ثم قال له: أدبِر فأدبر، ثم قال له: أقبِل فأقبل، ثم قال له: تكلّم، فقال: الحمدُ للهِ الذي ليس له ضدٌّ ولا ندٌّ، ولا شبهٌ ولا شبيهٌ، ولا كفوٌ ولا عديلٌ...)[349].

فقال تعالى: (وعزتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أحسن منك، ولا أطوع منك، ولا أرفع منك، ولا أشرف منك، ولا أعزَّ منك، بك أُوحَّد، وبك أُعبد، وبك أُدعى، وبك أُرتجى...)[350].

فالإنسان بعقله هو أشرف المخلوقات وأكرمها، وموضوعٌ بتلك الأهمية لابد أن يشغل اهتمامات الإمام المهدي (ع)، فتكون له الأولوية في دعوته. وليس هناك أدنى شك بأن الإمام في غيبته وظهوره، ينظر إلى الإنسان بعقله، وقيمه الأخلاقية، ومشاعره نحو الدين.

روي عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: (إذا قام قائمنا (ع) وضع يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم)[351]، وفي رواية أخرى مشابهة: (...فجمع به عقولهم، وأكمل به أخلاقهم)[352]. وعلى تقدير كمال الأخلاق أو كمال الأحلام، فإنّ وضع اليد على رؤوسهم يُشعر بأن قوة خارقة، وهي قوةٌ مستمدةٌ من قدرة الله تعالى، قد فتحت آفاقاً جديدةً

---

[349] معاني الأخبار – الشيخ الصدوق ص 313 .

[350] معاني الأخبار ص 313.

[351] الكافي ج 1 ص 25.

[352] الخرائج والجرائح ج 2 ص 840.

للإنسان. والمعنيان متقاربان بلحاظ القدرة التي وهبها الله تعالى له على ذلك.

وفحوى الرواية يدلُّ – والله أعلم – على أن إزالة معالم الضلال والشبهات في أذهان الناس سوف تفتح لهم آفاق الكمال العقلي. فالعقل الإنساني مستودَعٌ لاتجاهات شتى من الآراء والأفكار، مثله مثل السائر في ظلام، فما لم تُضاء له منارات الهداية، أو تسطع له نجوم السماء لا يستطيع أن يسلك الطريق.

وجمع عقول الناس في وجهة واحدة يعني إعطاء العقل البشري قوة هائلة. فالعقل البشري لمفرده يستطيع استخراج نظرية فكرية جديدة، أو إجراء تجربة علمية في حقل من حقول المعرفة، أو اختراع جهاز ما، لكن جمع عقول الناس جميعاً، لا مجموعة منهم فحسب، وجعلها تصبُّ في خير البشرية فهذا مما لم يحصل من قبل!

فالعقل البشري قوة إستثنائية إذا أُحسن استخدامها في مضمار الحق ضد الباطل، وفي مضمار العلم ضد الجهل، وفي مضمار العدل ضد الظلم. خصوصاً إذا تضافرت العقول الإنسانية في إنجاز ذلك. ولو تصورنا أن عقلاً إبداعياً لإنسانٍ واحدٍ قد انتج كتاباً في الاخلاق والفضائل، فما بالك بمليون عقل مثلاً كلها تفكر بصورة متوازية وإبداعية، فالفكرة الواحدة في ذلك الكتاب من عقل واحد تصبح مليون فكرة في نفس الكتاب! إنه أنجازٌ هائلٌ دون أدنى شك.

والرواية الآنفة الذكر تدلّ على جمع العقول زمن الظهور، وهذا ليس عقلاً جمعياً كما هو المصطلح في علم الإجتماع، بل هذا هو العقل

الجماعي المتضافر الذي يهدف إلى حالة من حالات الكمال في المعرفة الإنسانية.

العقل الإنساني زمن الغيبة:

ولو رجعنا قليلاً إلى الوراء، وتساءلنا: أين يكون العقل الإنساني زمن غيبة الإمام (ع)؟ خصوصاً إذا أقررنا بأننا في زمن يتصارع فيه عقل الخير والفضيلة مع عقل الشر والرذيلة. فما هي الوظيفة العقلية للإنسان في هذا الزمان؟

لاشك أن العقول المتناقضة المتصارعة تهدم أصل الحضارة الإنسانية. فالعقل الذي يبذل جهداً لنشر الخير والمعرفة في العالم يعارضه عقلٌ يحاول نشر الشر والدمار. فالصراع بين الخير والشر على الصعيد العقلي هو من معالم عصر الغيبة.

فرقٌ بين أن يتجه العقل الخيّر نحو إشباع حاجات الإنسان، وتسهيل حياته، وبين أن يتجه العقل الشرير نحو تدمير الحضارة من خلال السيطرة على مصير البشر، وكسر شوكتهم.

ولما كان المهدي (ع) رائد العدالة الواقعية بين الناس، فإنه يولي (الإنسان) في منهجه أعظم الإهتمام، فما قيمة النظام بدون أصالة هذا الكائن الشريف؟ وما معنى الغيبة والظهور دون أن يضع المُنقِذُ في خطته: (الإنسانَ) محوراً لاهتماماته؟ وما قيمة الحرب والسلم إذا لم يضع (ع) منهجاً في بناء الإنسان، وتقوية إيمانه، وسد حاجاته، وغرس بذرة العلم والتعفف في شخصيته؟

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى الإنسانَ وجعله مركز الوجود، ومنحه العقل والتفكير، وفضّله على بقية الكائنات بتلك القوة العقلية. وكائنٌ كريمٌ بتلك المواصفات لابد وأن يكون محور فكر الإمام المهدي (ع). فماذا يتوقع الإمام (ع) من الإنسان؟ وماذا يقدم له خلال مرحلة الغيبة، والمخاض الصعب المحيط بها؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من عرض أفكار أساسية حول مبدأ الإنسان وسيره في الحياة، ومنها: الإستخلاف في الأرض، والطبيعة الإجتماعية للإنسان، والعلاقة بين الإمام (ع) والأمة.

خلق الإنسان والخلافة الربانية:

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[353]. فللإنسان، في ضوء تلك الآية الكريمة، شأنٌ عظيمٌ في الوجود، فقد خلقه الله تعالى، وشرح لنا قصة خلقه إذ قال لملائكته: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...)[354].

[353] سورة البقرة: الآية 30.

[354] سورة البقرة: الآية 30.

فبادرت الملائكة – التي كانت على علمٍ بإنسان قد خُلق من قبل وارتكب الفساد – بالتساؤل: (... أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...)[355]. قال تعالى: (... إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[356].

وهذا الإنسان مخلوقٌ من الطين، كما أشار القرآن الكريم: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)[357]، بإدنى أنواع الطين؛ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)[358] أي طين أسود منتن، و(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)[359] وهو الطين اليابس. إلا أن الله تعالى نفخ فيه من قدرته (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[360]. وبين هذا وذاك يستطيع الإنسان أن يكون أسمى المخلوقات ويستطيع أن يكون أحطّها أيضاً. فقد يتسامى الإنسان إلى درجة الملائكة وقد ينحط إلى مستوى الدواب. وذلك بفضل قوة الإختيار التي وضعها الله تعالى فيه.

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ...)[361]، وهي إن كانت لأشخاص طاهرين معينين (ع)، أو حروفاً للغةٍ معينةٍ، أو أسماءً بملائكةٍ مقربين، إلا

---

[355] سورة البقرة: الآية 30.

[356] سورة البقرة: الآية 30.

[357] سورة المؤمنون: الآية 12.

[358] سورة الحجر: الآية 26.

[359] سورة الرحمن: الآية 14.

[360] سورة الحجر: الآية 29.

[361] سورة البقرة: الآية 31.

أنها بالإجمال توحي إلى العلم والمعرفة. فطالما كان الإنسان خليفة الله في الأرض، فلابد أن يكون مسلحاً بالعلم والمعرفة. وعندما تساءلت الملائكة عن علّة خلق الإنسان أجابهم المولى تعالى: (... إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[362]، ثم أمرهم بالسجود لآدم (...اسْجُدُوا لِآدَمَ)[363].

(... فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)[364]، (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ...)[365] تبين فضل آدم بالعلم.

ولو طبقّنا الآية الكريمة في خلق الإنسان، واعطائه مقام الخلافة الالهية، وهي قوله تعالى: (... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)[366] على حديث رسول الله (ص) في الإمام المهدي (ع) وعدله، واجتماع الأمة عليه، حيث يقول (ص): (تأوي إليه أمتُهُ كما تأوي النحلةُ إلى يعسوبها، يملأ الأرضَ عدلاً كما مُلئتْ جوراً، حتى يكون الناسُ على مثل أمرهم الأول، لا يوقظُ نائماً، ولا يهريقُ دماً)[367] لتبين لنا أنه تعالى جعل أحد أفراد هذه الكائنات الشريفة الكريمة ليكون قائداً وخليفةً له في الأرض.

---

[362] سورة البقرة: الآية 30.

[363] سورة البقرة: الآية 34.

[364] سورة البقرة: الآية 31 – 32.

[365] سورة البقرة: الآية 33.

[366] سورة البقرة: الآية 30.

[367] الفتن – ابن حماد ج 1 ص 358 – 359.

وكلمة (جاعِلٌ) على صيغة فاعلٌ. والجملة إسمية، وورود الخبر على صيغة الفاعل التي هي بمنزلة الفعل المضارع، يدل على الدوام والإستمرار. كما ورد في سياق مشابه قوله تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)[368] أي جعله دائماً ما دامت الحياة على الأرض.

فلا يمكن أن يجعل الله تعالى كلَّ إنسان خليفةً له على الأرض، خصوصاً وأن في البشر من هو معروفٌ بالضلال والفسق والفجور، فكيف يمكن لإنسانٍ من قبيل الفاجر أن يكون في مقام خلافة الله عزوجل؟ لابد إذن أن يكون خليفة الله إنساناً متميزاً يستحق هذا المنصب الإستثنائي الشريف.

والنتيجة المستمدة من الروايات أن هذا الإنسان الخليفة في آخر الزمان هو الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع). وهو يمثل خلافة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام جميعاً. فالإنسانية بدأت بخلق آدم (ع)، وسوف تنتهي بظهور المهدي (ع) ، وإنشاء حكمه العادل، ثم علامات القيامة.

وظيفة الإنسان زمن غيبة المهدي (ع)

ومن خلال دراسة الروايات الخاصة بالمهدي (ع) نستنتج أن الإمام (ع) يتوقع من الموالين له أن يرتقوا إلى درجة أعلى في الفهم والإدراك لمفردات الدين، وأن يصلوا إلى اليقين بوجوده حيّاً غائباً منتَظِراً

[368] سورة نوح: الآية 16.

أمر الله تعالى، وأن يلتزموا بعباداتهم ومعاملاتهم كما رسمها لهم الدين، وأن يتحلّوا بأخلاقٍ فاضلةٍ نبيلةٍ.

إذن، فترة الغيبة فترة صعبة تقتضي جملة أمور ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، منها: الإقرار القلبي بالمهدي (ع)، والإرتقاء بمستوى الولاء له، والورع والاجتهاد والطمأنينة، وتفعيل منظومة التكافل الإجتماعي بين المؤمنين، والإهتمام العقلي بقضية المهدوية، وطبيعة الإنتظار، والقبول بالتمحيص.

1 – الإقرار القلبي بالإمام (ع):

إن من أركان استقرار شخصية المؤمن هو الإيمان بالتوحيد والنبوة والإمامة. وثباته على مبدأ الإمامة بالخصوص، ومن مصاديقه الإقرار القلبي بالمهدي (ع)، وإلى ذلك أشار الإمام الصادق (ع): (ألا أخبركم بما لا يقبل اللهُ عزوجل من العباد عملاً إلا به؟... شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدُهُ ورسوله، والإقرارُ بما أمرَ اللهُ، والولايةُ لنا، والبراءةُ من أعدائنا...)[369].

فتلك رزمة العقيدة القلبية التي يتعهد المؤمن بحفظها، وهي: الإيمان بأصول الدين: في التوحيد، والنبوة، والإمامة. ولا يتم الإقرار بها عملياً إلا بالولاء لمحمد خاتم الأنبياء (ص)، ولأهل بيته الطاهرين (ع)، والإبتعاد قلبياً عن أعدائهم.

---

[369] الغيبة – النعماني ص 207.

ويؤيده حديث رسول الله (ص): (يا عليُّ، واعلم أنّ أعجب الناس إيماناً، وأعظمهم يقيناً، قومٌ يكونون في آخر الزمان، لم يلحقوا النبي، وحجبتْهُم الحجةُ، فآمنوا بسوادٍ على بياضٍ)[370].

أي أنهم أقروا بما في قلوبهم من إيمان، فكان الإيمان بالنبي (ص) عن بصيرةٍ، لا عن بصر. أي أنهم لم يرووا النبي (ص) رؤية العين، بل أنهم صدّقوا ما قاله، وآمنوا به من خلال تلاوتهم كتاب الله تعالى، واستيعابهم لسيرته (ص)، ومعرفتهم لفضائله. وعين الأمر ينطبق على أئمة أهل البيت (ع) والإيمان بهم.

كيف لا، وأن الله عزوجل (ما ترك الأرض بغير إمامٍ قطُّ منذ قُبض آدم (ع)، يُهتدى به إلى الله عزوجل، وهو الحجةُ على العباد، من تَرَكَهُ ضلَّ، ومن لزِمَهُ نجا، حقاً على الله عزوجل)[371]، كما يقول الإمام الكاظم (ع).

والإقرار القلبي يحمل نفس المبدأ، فالإقرار بالمهدي (ع) هو إقرار بجميع الأنبياء (ع)، كما يشير نبي الرحمة (ص) إلى ذلك ويقول: (القائمُ من وُلْدِي، اسمُهُ اسمي، وكنيته كنيتي، وشمائله شمائلي، وسنته سنتي، يُقيمُ الناسَ على ملّتي وشريعتي، ويدعوهم إلى كتاب ربي عزوجل، مَن

---

[370] كمال الدين ج 1 ص 288.

[371] كمال الدين ج 1 ص 220.

أطاعَهُ فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني، ومَنْ أنكرَهُ في غيبته فقد أنكرني، ومن كذبه فقد كذبني، ومن صدّقه فقد صدّقني...)[372].

ويطابقه نصٌ عن الإمام العسكري (ع) يقول: (كأني بكم وقد اختلفتم بعدي في الخلف مني، أما إنّ المُقرَّ بالأئمة بعد رسول الله (ص) المُنكِر لوَلَدي كمن أقرَّ بجميع أنبياءِ اللهِ ورُسلهِ ثم أنكر نبوة رسول الله (ص)، والمنكر لرسول الله (ص) كمن أنكر جميع الأنبياء، لأن طاعةَ آخرنا كطاعةِ أولنا، والمنكرُ لآخرنا كالمنكرِ لأولنا...)[373].

إذن الاعتقاد بوجود المهدي (ع) كالاعتقاد بوجود رسول الله (ص). والإيمان برسالته في تطبيق الدين آخر الزمان كالإيمان برسالة محمد خاتم الأنبياء (ص) أول زمن الهداية. وتلك قضية اعتقادية يتقبلها العقل الإنساني، ويبني عليها.

2 – الإرتقاء بمستوى الولاء للإمام (ع):

ونعني به رياضة النفس كي تكون بالمستوى اللائق لموالاة صاحب الزمان (ع)، فلابد للنفس من أن تستقر على خصائص: الصبر، والزهد، والأباء. ولابد للقلب من الإيمان بما جاء به رسول الله (ص)، ونقلها لنا أهل بيته (ع) بأمانةٍ وصدقٍ عظيمين؛ فلابد للإنسان من الإقرار بفضلهم وعلمهم، وما يترتب عليه في ذلك من طاعةٍ وولاءٍ.

---

[372] كمال الدين ج 2 ص 411.

[373] كمال الدين ج 2 ص 409.

والإمام الصادق (ع) يرسم تلك الصورة الناصعة للشيعي المثالي التي ذكرناها آنفاً: (إنما شيعتنا من لا يهرُّ هريرَ الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولا يسأل الناس بكفه وإن مات جوعاً)[374].

والإمام علي الهادي (ع) في زيارته للمهدي (ع) يتحدثُ بلسان الموالين له: (... بأبي أنتم وأمي وأهلي ومالي وأسرتي، أُشهِدُ اللهَ وأُشهِدُكم أني مؤمنٌ بكم وبما أتيتم به، كافرٌ بعدوِّكم وبما كفرتم به، مستبصرٌ بشأنكم وبضلالةِ من خالفكم، موالٍ لكم ولأوليائكم، مبغضٌ لأعدائكم ومُعادٍ لهم، وسلمٌ لمن سالمكم، وحربٌ لمن حاربكم، محقِّقٌ لما حققتم، مبطِلٌ لما أبطلتم، مُطيعٌ لكم، عارفٌ بحقكم، مُقرٌ بفضلكم، محتملٌ لعلمكم، محتجبٌ بذمتكم، معترفٌ بكم، مؤمنٌ بإيابكم، مصدِّقٌ برجعتكم، منتظرٌ لأمركم، مرتقبٌ لدولتكم، آخذٌ بقولكم، عاملٌ بأمركم، مستجيرٌ بكم...)[375].

وبكلمة فإنّ الإمام الهادي (ع) يضعُ ميزاناً لشخصية المؤمن بولايتهم زمن الغيبة، ويضعُ له خطاً أحمراً لا يمكن تجاوزه:

فالميزان هو الإيمان بأن ما جاء به أئمة أهل البيت (ع) وبضمنهم المهدي (ع) هو من الله تعالى وليس منهم (ع)، ولذلك فقد اصبحوا في كل زمان منار الهداية، يأخذ المؤمن بقولهم، ويؤمن بما آمنوا به، ويطيعهم لأن طاعتهم هي من طاعة رسول الله (ص).

---

[374] الغيبة – النعماني ص 210 – 211.

[375] عيون أخبار الرضا (ع) ج 2 ص 275 – 278.

والخط الأحمر الممنوع الذي لا يمكن تجاوزه يتمثل في: الولاء لأعدائهم، ومداهنتهم. وبالنتيجة استحداث حالة عقلية برفض كل ما يشيعه هؤلاء الأعداء من أفكار مضادة لأهل البيت (ع).

ثم يقول (ع): (مُؤمنٌ بسرِّكم وعلانيتكم، وشاهدكم وغائبكم، وأوَّلكم وآخركم، ونُصرتي لكم مُعدَّةٌ حتى يُحيي اللهُ تعالى دينه بكم، ويرُدَّكم في أيامه ويُظهركم لعدله، ويمكنكم في أرضه... وجعلني ممن يقتصُّ آثاركم، ويُسلكُ سبيلكم، ويهتدي بهُداكم، ويُحشَرُ في زمرتكم، ويَكِرُّ في رجعتكم، ويُملَّكَ في دولتكم، ويُشرَّفَ في عافيتكم، ويُمكَّنَ في أيامكم، وتقرُّ عينُهُ غداً برؤيتكم...)[376].

هنا يُخصص الإمام الهادي (ع) كلامه عن صاحب الزمان (ع)، ويتناول بإسهاب طبيعة الإيمان به. فهو الغائب عن الأنظار، آخر أئمة أهل البيت (ع)، وهو الذي ينتظر من شيعته الإعداد لظهوره. ويدعو الله تعالى – معبّراً عن لسان المؤمن به – بأن يكون معه في أيامه، محشوراً في زمرته، مفتخِراً بكونه أحد أنصاره وجنوده، مساهِماً في إحياء الدين، مختبِراً العدل الذي سيحققه له إمامه (ع).

وتلك الزيارة اصبحت على مر السنين رمزاً لوصل زمن المكلف بزمن المهدي (ع)؛ فالذي يزوره بتلك اللغة الرائعة يتحسس، في عقله وقلبه، وجود الإمام (ع) شاخصاً ينتظر أمر الله تعالى.

---

[376] عيون أخبار الرضا (ع) ج 2 ص 275 – 278.

3 – الورع، والإجتهاد، والطمأنينة، والإنتظار:

سُئِلَ الإمام الصادق (ع) عمّا يعمله الإنسان زمن غيبة المهدي (ع)، فقال: (... الورع، والاجتهاد، والطمأنينة، والانتظار للقائم عليه السلام)[377].

وعنه أيضاً: (... من سرَّهُ أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر...)[378].

وفي ضوء هاتين الروايتين نشخّص بعض التكاليف التي يحملها المؤمن زمن غيبة الإمام (ع)، حيث تتلخص بأربعة هي: الورع، والاجتهاد، والطمأنينة، والانتظار. وتلك التكاليف تحتاج إلى تفصيل، نعرضه فيما يلي:

أ – الوَرْع: يطلق الورع على معانٍ عديدة أهمها: الكفّ عن المحارم، واجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات[379]. فلو عاش الإنسان في حالةِ ورعٍ يعني أنه عاش في تقوى ونُسكٍ مجتنباً المعاصي. والورِع هو الرجل التقي المتحرّج.

فما يطلبه الإمام الصادق (ع) من شيعته زمن الانتظار هو ترك المحارم، واجتناب الشبهات حتى لا يقع الفرد في المحرمات. أي أن

---

[377] الغيبة – النعماني ص 207.

[378] الغيبة – النعماني ص 207 ب11 ح 16.

[379] التعريفات – الجرجاني ص 252.

الموالي الحقيقي الذي يوالي المهدي (ع) هو الورِع، المتقي الذي لا يقدم على ارتكاب ما نهت الشريعة عنه.

وإذا كان الورَع هو ملازمة التقوى، وصيانة النفس، وإعمال الفكر في الله تعالى، وحسن التعامل مع خلقه، فإنّ الورِع هو الإنسان الذي يجمع فضائل الدين، ومعاني الاخلاق، ويكون مثالاً لما انطوت عليه رسالة الإسلام في الحياة. وقد ورد عن رسول الله (ص): (الحلال بينٌ، والحرامُ بينٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمُهنَّ كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشُبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام ...)[380]، فإن اتقاء الشبهات هو حفظٌ للعرض والدين، ومن اتقى الشبهات زمن الغيبة كان ورِعاً موالياً لإمام زمانه.

ب – الإجتهاد: أما الاجتهاد فالمقصود به الاجتهاد في العبادة او ربما في كل ناحية من نواحي الحياة. لأن الاجتهاد في الفقه والأصول خاص بنفرٍ من الناس من كل طائفة، بينما الاجتهاد في العبادة عام لجميع المكلفين.

وفي المأثور عن النبي (ص) أنه صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلّفٌ هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (أفلا أكونَ عبداً شكوراً)[381]، وفي رواية (حتى تفطرت رجلاه) أي تشققت. والشكر معرفة إحسان المحسن، والتحدث به.

---

[380] صحيح البخاري ج 1 ص 117. الإيمان – باب فضل من استبرأ لدينه.

[381] المعجم الأوسط – الطبراني ج 4 ص 138.

و" سُميت المجازاة على فعل الجميل شكراً، لأنها تتضمن الثناء عليه. وشكر العبدُ اللهَ تعالى اعترافُه بنعمهِ وثناؤه عليه، وتمام مواظبته على طاعته. وأما شكر الله تعالى أفعال عباده، فمجازاته إياهم عليها، وتضعيف ثوابها"[382].

والمجتهد في العبادة خصوصاً، يعدُّ من أصحاب القائم (ع)، ومن جنوده المخلصين. ذلك لأنَّ الإمام (ع) لا يريد اتباعاً كُسالى يتباطؤون في أداء مهماتهم، بل يريدُ موالين يتفجر منهم نشاط الإيمان وحيوية المعرفة. ولا يريد الإمام (ع) أُناساً يمتنّون على الله تعالى بعبادتهم، بل يريد موالين يعترفون بنعمة الله عزوجل، ويشكرونه على ذلك، ويواظبون على طاعته. وهذا هو معنى الإجتهاد الملازم للولاية، زمن الغيبة.

ج – الطمأنينة: في اللغة: الثقة وعدم القلق، وطمأنينة النفس: سكونها وثباتها. وفي المصطلح: استقرار القلب على المبدأ الذي آمن به المطمئِن، ومنه الطمأنينة في الصلاة أي استقرار أعضاء الركوع والسجود استقراراً تاماً.

وربما تعبّر الطمأنينة عن لونٍ من ألوان اليقين، وفي ذلك أشارة وردت في القرآن الكريم على لسان إبراهيم (ع): (... قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ

[382] شرح النووي على مسلم ج 1 ص 3.

بَلَى وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...)[383]. ويلخصه قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[384].

فاطمئنان القلب بذكر الله تعالى هو دليل على يقين المطمئِّن بوجوده تعالى. وهكذا يسري اليقين إلى بقية مفردات الرسالة الدينية، ومن ضمنها وجود النبي (ص) ووجود أئمة أهل البيت (ع)، وبضمنهم الإمام المهدي (ع). وبدون الطمأنينة القلبية بوجود المهدي (ع) لا يمكن للإيمان أن يستمر.

د – الإنتظار: الإنتظار لغةً هو الترقب والتوقع لشيء ما، وفترة الانتظار هي الفترة الزمنية بين بداية الانتظار وبين وصول المنتَظر.

وإذا كان الانتظار يعني الترقب الذهني للموعود، فإننا نعيش هذا الترقب الذهني لقيام المهدي (ع) الذي أخبر به رسول الله (ص)، وقيام دولته التي تملأ الأرض عدلاً وقسطاً.

ذلك الإنتظار يعني توقّدْ الذهن وشحذه للمنتظَر (ع). وهو نتيجة لمقدمة عقلية، وهي العلم بشخصية المنتظَر. إذ لا يمكن للإنسان أن ينتظر شخصاً وهو يجهل ماهيته أو طبيعته! ففترة الإنتظار هي فسحة زمنية لمعرفة المهدي (ع) وصفاته، وتثبيت شخصية الموالي له. ولذلك عُدَّ

---

[383] سورة البقرة: الآية 260.

[384] سورة الرعد: الآية 28.

الانتظار – بهذا المعنى – من أفضل الأعمال كما في الروايات. فعن رسول الله أنه قال: (أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عزوجل)[385].

والأفضلية هنا نابعة من أن الانتظار فترة زمنية لتهيئة عقل الإنسان وتمرينه بقبول فكرة المهدي (ع)، والإيمان به، والإعداد له بتهيئة النفس، وتربيتها على المصاعب والمشاق التي تحملها شروط الإنتظار.

4 – التكافل الإجتماعي:

عندما سُئِلَ الإمام الباقر (ع) عما يقوم به الناس زمن غيبة الإمام المهدي (ع)، أجاب: (لِيُقَوِّ شديدُكم ضعيفَكم، ولِيعُدْ غنيُكم على فقيرِكم...)[386].

والإمام الصادق (ع) يؤكد: (تواصوا وتبارُّوا وتراحموا، فوالذي فلق الحبةَ وبرأ النسمة ليأتين عليكم وقتٌ لا يجد أحدكم لديناره ودرهمه موضعاً...)[387]. يعني أنه لا يجد لماله موضعاً يصرفه وقت ظهور الإمام (ع) لاستغناء الناس عن ذلك بفضل الله تعالى.

إذن يريدُ أئمة أهل البيت (ع) من المؤمنين أن يكونوا أمة متعاونة، تتكاتفُ فيما بينها، خصوصاً في الأيام الصعبة التي يمر بها المؤمن بهم زمن غيبة الإمام (ع). وهذا يقودنا إلى بحث علاقة الفرد بالمجتمع، فهل

---

[385] بحار الأنوار ج 52 ص 123.

[386] الكافي ج 2 ص 222.

[387] الغيبة – النعماني ص 152 – 153.

يستطيع الإنسان أن يعيش بمفرده – زمن الغيبة – دون مساعدة الآخرين ودون التعاون معهم؟

في كون الإنسان إجتماعي بالفطرة: الإنسان إجتماعي الطبع، يؤيده الدليل الفطري حيث عاش في حالة تجمعات إنسانية منذ أقدم العهود، وقد قال القرآن الكريم في ذلك: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...)[388]، و(...نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ...)[389]، (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ...)[390].

ولاشك أن العلاقات الإنسانية بين الناس بعد آدم كانت علاقات بدائية بسيطة، إلا أنها تطورت وتكاملت بعد بعثة الأنبياء (ع) وإرشادهم الناس إلى الفضائل، خصوصاً وقد بدأت الاختلافات تدبُّ بينهم، كما قال تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ...)[391].

فكانت لتكاليف الإسلام صبغة اجتماعية واضحة، يقوم بها الافراد جميعاً حسب قدراتهم، وكان الخطاب الالهي شاملاً لجميع المكلفين، كما

---

[388] سورة الحجرات: الآية 13.

[389] سورة الزخرف: الآية 32.

[390] سورة الفرقان: الآية 54.

[391] سورة البقرة: الآية 213.

في قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)[392]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[393]، (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...)[394]، (...وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[395]، (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ...)[396]، (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...)[397]، (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[398]، (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...)[399]، (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...)[400].

وتستمر تلك الواجبات والتكاليف الشرعية مع الإنسان، كفرد ضمن جماعة، حتى نهاية الحياة على الأرض. والواجبات والنواهي في الإسلام

---

[392] سورة البقرة: الآية 43.

[393] سورة البقرة: الآية 183.

[394] سورة البقرة: الآية 195.

[395] سورة المائدة: الآية 35.

[396] سورة الحج: الآية 78.

[397] سورة آل عمران: الآية 104.

[398] سورة البقرة: الآية 179.

[399] سورة آل عمران: الآية 103.

[400] سورة الشورى: الآية 13.

جزءٌ لا يتجزأ من التركيبة العقلية للمسلم، ابتدأت مع خاتم الأنبياء محمد (ص) ولا تنتهي إلا بقيام الساعة بُعيد ظهور المهدي (ع) آخر الزمان، وقد وصف الإمام أمير المؤمنين (ع) مهمة المهدي فقال: (... يختم الله بنا الدين كما فتح بنا، بنا ينقذون من الفتنة كما أنقذوا من الشرك، وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة الفتنة، كما ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك، وبنا يصبحون بعد عداوة الفتنة إخواناً كما أصبحوا بعد عداوة الشرك إخواناً في دينهم)[401].

والملفت أن الموصوف في هذا النص جاء على صيغة الجمع، أي أن الحديث موجّهٌ بصيغة الجماعة والإجتماع الإنساني. وتتبؤ أمير المؤمنين (ع) بإقامة المهدي (ع) الدين الذي تفرق الناس فيه، مصداقٌ لقوله تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...)[402].

فالمهدي (ع) يرجع بالأمة إلى رسالة محمد خاتم الأنبياء (ص)، ويرجعهم إلى الاعتصام بحبل الله تعالى، كما أمر سبحانه: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ...)[403]، ويرجعهم إلى التكافل

---

[401] الإمامة والتبصرة ص 92.

[402] سورة الشورى: الآية 13.

[403] سورة آل عمران: الآية 103 – 105.

الإجتماعي عبر الإنفاق، كما قال تعالى: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)[404].

وبهذا الصدد نلحظ أن الإسلام جعل للأمة كياناً خاصاً، وحياةً وأجلاً، وفهماً وإدراكاً. قال تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[405]، (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[406]، (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)[407].

فكان من وظيفة المهدي (ع) أن يخلق الأمة التي تفرقت بعدم إقامتها الدين، وأن يؤلّف بين قلوبهم بعد عداوة الفتنة التاريخية التي مزقت تلك الأمة. فالمهدي عامل توحيد الأمة، لا تفريقها. خصوصاً إذا ما لحظنا أنه مسلحٌ بإرادة الله تعالى وقضائه.

ومن مصاديق تلك الوظيفة هو الحفاظ على شعائر الدين وحدوده، في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكافل الإجتماعي الذي يوصل الفرد والجماعة إلى السعادة الحقيقية. فإن الأرض

---

[404] سورة الحديد: الآية 7.

[405] سورة الأعراف: الآية 34.

[406] سورة الجاثية: الآية 28.

[407] سورة آل عمران: الآية 113.

(... يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)[408]، والمؤمنون العاملون للصالحات قد وعدهم (... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...)[409].

وإذا أعطى الإنسانُ لغرائره ما لا يعوقه عن معرفة الله تعالى وعبادته، وأخذَ بالإعتدال في تنظيم حياته، ونبذَ الرذائل التي أثّرت سلباً على الآخرين في نفس المجتمع كالطمع والبخل والأنانية والشر والعدوان، يكون قد وضع قدمه في الخطوة الأولى على بوابة الطريق الذي يعوّل عليه المهدي (ع) في خروجه.

الأمة وطريق الخير:

ولو نظرنا إلى تركيبة المجتمع زمن الغيبة لرأينا الناس يتبعون أحد طريقين: إما طريق الخير، وإما طريق الشر، فكيف تتبع الأمة طريق الخير والمهدي (ع) غائبٌ عنها بشخصه، حاضرٌ معها بعنوانه؟

نرجع إلى القرآن الكريم لنستلهم منه القواعد الكلية التي نسير عليها هنا، فنرى: أن القرآن الكريم يؤكد على أن اتباع الحق لا يوافق أهواء الأكثرية من الناس، فقال: (...بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ. وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ

---

[408] سورة الأنبياء: الآية 105.

[409] سورة النور: الآية 55.

أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)[410]، و(لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)[411].

فلابد أن نبني على أن اتباع الحق لا يكسب الأكثرية زمن الغيبة! أي أن الإمام (ع) يبحث عن نوعية الإنسان وجوهره لا عدد الأتباع وكثرتهم. ولذلك فإن عدد المخلصين له قليل بلحاظ النوعية، وصفاء الجوهر. وقد ذكرنا فيما مضى من روايات أفصحت بأن الناس تغربَل زمن الغيبة، حتى لا يبقى إلا القليل من أهل الطينة الطيبة الطاهرة، وأهل الإيمان الخالص.

وتلك النوعية الطيبة مجبولة على الفطرة الأصيلة التي لم تلوثها الرذائل: (... فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...)[412]، وهي مجبولة على اتباع الحق أيضاً، كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[413]، (وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ...)[414].

وهذا الإظهار العالمي للدين الحق هو الذي يختم الحياة البشرية على هذه الأرض. فقد وفد الإنسان إلى هذه الأرض الغريبة عليه، وهو موحِّدٌ لله تعالى؛ فكانت تلك البداية. وفي النهاية ستنعم الأرض ومن فيها

---

[410] سورة المؤمنون: الآية 70 – 71.

[411] سورة الزخرف: الآية 78.

[412] سورة الروم: الآية 30.

[413] سورة التوبة: الآية 33.

[414] سورة غافر: الآية 20.

بقائدٍ معصومٍ أوكله الله تعالى ليبسط العدل والتوحيد، ويُقيم الدين بين ربوعها.

وإذا كان أمرُ الإنسان إجتماعياً بالفطرة، فلابد للجماعة المؤمنة الموالية من إعداد نفسها من البداية – أي زمن الغيبة – عبر تقوية الضعيف من قبل القوي، ومساعدة الفقير من قبل الغني، والتواصي والتبارّ والتراحم الاجتماعي. وهذا ما نفهمه من حديث الإمام (ع): (تواصوا وتبارّوا وتراحموا...)[415]. بمعنى أن الإعداد لخروج المهدي (ع) لابد أن يكون من البداية تكافلاً إجتماعياً متكاملاً، حتى تستطيع تلك الأمة المؤمنة أن تنسجم مع نفسها ومع إمامها في إداء تلك الوظيفة الشاقة.

الطبيعة الإنسانية

كيف يتعامل الإمام المهدي (ع) مع الطبيعة الإنسانية للإنسان الموالي؟ بمعنى كيف يتعامل مع ذلك الإنسان بعقله، ونفسه، وجسده؟ تلك أسئلةٌ لا يمكن الإجابة عليها بسهولة. فأغلب الروايات تفرد قضية العدالة والقسط مساحة واسعة في مهمة المهدي (ع)، وتترك بقية شؤون الإنسان!

وكمقدمة لفهم طبيعة الإنسان، لابد من الإقرار بأن الطبيعة البشرية مكونة من عقل يدير شؤون الإنسان الفكرية، ونفسٌ تدير شؤونه الشعورية والوجدانية، وجسدٌ يعمل كمركبة تُسيَّر عليها الرغبات والغرائز.

حيث تتأثر الطبيعة الإنسانية بتلك العناصر:

---

[415] الغيبة – النعماني ص 152.

الأول: الفكر مرآة العقل، وهو الذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات. وبالفكر يرى الإنسان عظمة الخالق عزوجل، ويفهم علّة عبادته، وتسبيحه، وتمجيده.

الثاني: الأفعال المرتبطة بالجسد، وآليتها الوظائف التي يقوم بها الإنسان كالسمع، والنطق، والنظر، ونحوها. فالحواس الخمس مرتبطة بالوظائف. إلا أن ما يتحكم بها هو الشهوات والرغبات المرتبطة بالجسد الإنساني. وتلك الآليات مرتبطة بالعقل، والرغبة الداخلية.

الثالث: الشعور المرتبط بالنفس. وفيها الشعور بطعم الإيمان، والشعور بالحزن والفرح، والألم واللذة، فكيف يستطيع المهدي (ع) أن يمحو ألم الجوع، وألم المعاناة من تلك النفوس المعذَّبة؟ بل كيف يتعامل مع الإنسان في الحد من شهواته ورغباته في المال والجاه؟

ورد عن رسول الله (ص) قوله: (أبشركم بالمهدي... يملأ قلوب أمة محمد (ص) غنىً، فلا يحتاج أحدٌ إلى أحد...)[416]. وإذا افترضنا أن معنى القلوب: العقول، كما هو في القرآن الكريم، اتضح أن المهدي (ع) يُرجع الناس إلى رشدها في قضية الثروة والتملك، ويهذب شهوتها في جمعه وتكديسه.

وتلك مسألةٌ لها مغزى يُفصح عن أن المهدي يعلْم طبيعة الإنسان من زاوية تشخيص الداء ووضع الدواء للنفس الإنسانية. فإذا كان الإنسان

---

[416] مسند أحمد ج 3 ص 37، 52.

يحب المال حباً جماً، فإنه يهذّب شهوته نحو المال ويرجعه إلى رشده، وتلك القضية لا تتم إلا بإرادة آلهية.

ذلك أن الإنسانَ عاش في بداية حياته على الأرض متناغماً مع جريان الطبيعة، فكان يأكل مما أثمرته الأشجار، ويستفيد مما نبت على الأرض، ومما أضمرته تحتها من خيرات. إلا أنه لم يقنع بالقليل، فاصبح يمدَّ نظره إلى ما وراء إشباع حاجاته ورغباته، متجاوزاً حقوق الآخرين. وهكذا تملّكَ الطمع قلوب الناس.

واصبح النزوع للإقتناء، والحب في كنز المال جزءً من الطبيعة الإنسانية، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: (... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[417]، (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)[418]، (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)[419].

وبالإجمال فإنّ هناك صفتان تتحكمان في شخصية الإنسان، هما: الحاجة، والرغبة. فالإنسان يحتاج إلى إشباع حاجاته الأساسية من الغذاء، والسكن، والزواج، إلا أنه يرغب في أن يقتني أكثر مما يحتاجه. فقد يحتاج إلى تلك العناصر الأساسية في الحياة، إلا أن طمعه في التملك يحرّكه

---

[417] سورة التوبة: الآية 34.

[418] سورة الفجر: الآية 20.

[419] سورة الهمزة: الآية 2 – 3.

بتكديس الممتلكات لغايةٍ في نفسه. عندها يحرم الآخرين من خيرات الأرض التي خُلقت بالأصل للجميع.

وعندها يدبُّ الجشع في قلوب الناس، فيسعى كلٌّ منهم إلى التعدي على حقوق الآخرين، هنا تبدأ رذيلة الطمع ورذيلة البخل بالنمو، فتُدخل الناس في دائرة ظلم الآخرين، وسلب حقوقهم، والجناية عليهم.

فيتدخل الدين، ويأتي الأمر الاخلاقي الديني بحثّ الإنسان على أخذ المقدار الذي يحتاجه وترك الباقي للآخرين. وهذا لا يتم إلا عبر تداول الثروة الإجتماعية بين الناس، تداولاً عادلاً، فإذا كان المال فائضاً في جهة، كان من وظيفة الإمام (ع) أن ينقله الى الجهة الأخرى: جهة الفقراء ذوو الحاجة. ذلك أن المال أمانة واستخلاف ينبغي أن يوضع في موضعه الصحيح، كما قال تعالى: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)[420].

وتبديل الجشع والطمع عند الإنسان إلى غنىً في النفس قضية عملاقة تحتاج إلى تسديد رباني. قال (ص): (أبشركم بالمهدي يُبعث في أمتي على اختلاف الناس، وزلازل، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ويرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، ويملأ الله قلوب أمة محمد (ص) غنىً، فلا يحتاج أحد إلى أحد. فينادي منادٍ: من له في المال حاجة؟ قال: فيقوم رجل، فيقول: أنا، فيقال له:أئتِ السادن[421]، فقل

---

[420] سورة الحديد: الآية 7.

[421] السادن: الخادم، وسدنة الكعبة خدمتها.

له: إن المهدي يأمرك أن تعطي مالاً. فيقول له: إحث[422]، حتى إذا جعله في حجره وأبرزه، نَدِمَ. فيقول: كنت أجشع أمة محمد (ص) نفساً! أوَ عجز عني ما وسعهم؟!)[423].

وهذا السلوك الاخلاقي هو من آثار فهم الموازنة بين الحاجة إلى الشيء وبين الرغبة في جني المزيد منه، وهو ثمرة تربية النفس على اشباع الحاجة فقط وترك الرغبة الزائدة. هذا السلوك الراقي هو نتيجة وجود فكرة الإمام المهدي (ع) في قلوبنا وأذهاننا.

الطبيعة الإنسانية زمن غيبة الإمام (ع):

ما هي طبيعة الإنسان الموالي عندما يكون المولى (ع) غائباً بشخصه عن الأنظار؟ وما هي حدودها المقبولة؟

لاشك أن الإنسان متميزٌ – من الناحية الإجتماعية – عن غيره من الكائنات بالعقل، والنطق، والدين. فعندما يجتمع الناس في بيئة معينة بلحاظ تلك العناصر تتشكل معالم المجتمع عبر: الفكر (الذي هو نتاج العقل)، واللغة (التي هي نتاج النطق)، والاخلاق (التي هي نتاج الدين). عندها تستحدث الأجيال ثقافة متميزة بها. والتلازم الأبدي بين الدين والأخلاق يعني أن الدين يعلّم الإنسان أخلاقية التعامل مع الله تعالى،

---

[422] حثى له: أعطاه.

[423] مسند أحمد ج 3 ص 37، 52.

ويعلم النفس أخلاقية تهذيبها، ويعلم الإنسان اخلاقية التعامل مع النظام الاجتماعي، ومع الناس الذين يعيشون تحت ظلّه.

تلك طبيعةٌ متميزةٌ للإنسان خاطبها القرآن الكريم عبر قوله: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ...)[424]، (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[425]، (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)[426]، (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...)[427].

إلا أن أهم ما يميّز الإنسان زمن غيبة الإمام (ع) هو أن دوافع الخير عنده تحتاج إلى من يوقظها من ركودها، وأن دوافع الشر عنده تحتاج إلى من يدفنها، كما أشار القرآن الكريم: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[428]، تلك النفس التي يمكن التأثير عليها وتغييرها بتأثير خارجي، سلباً أو إيجاباً .

وإذا كان السؤال: كيف تتغير طبيعتنا الإنسانية في عصر غيبة المهدي (ع)؟ كان الجواب هو أن التغيير ينبع من فهم طبيعة أنفسنا نحن، وفهم فكرة أن الجزاء الاخلاقي: عقوبةً وثواباً يساهم في تعديل سلوكنا. فالتغيير المنشود في طبيعة الإنسان يتم عن طريق تغيير علاقتنا مع أنفسنا أولاً، وتهذيبها ثانياً.

---

[424] سورة البقرة: الآية 31.

[425] سورة يوسف: الآية 2.

[426] سورة القلم: الآية 4.

[427] سورة آل عمران: الآية 159.

[428] سورة الشمس: الآية 7 – 8.

والإمام (ع) يتعامل مع جانب مهم من جوانب شخصية الإنسان زمن الغيبة، وهو جانب النفس المطمئنة، وهي النفس التي تتربى على الاطمئنان واليقين، وتتعود على الفضائل بحيث تكون قادرة على التعامل الأخلاقي، والعقلي مع الله عزوجل ومع المجتمع.

أن القدرة على اختراق النفس الإنسانية، وتهذيبها، وتربيتها بحيث تتحرك نحو هدفها المرسوم في اليقين والإطمئنان والسعادة هو أفضل ما يستطيع أن يفعله المؤمن في عصر الغيبة.

ذلك ان الصراع الدائر في النفس الإنسانية هو صراع بين القلق والإطمئنان، وصراع بين الشقاء والسعادة، وصراع بين الشك واليقين، وما يتبعه من إنكار أو إثبات. وتلك مسألة متأصلة في جوهر الإنسان ونفسه الأمّارة، وتفكيره ومشاعره.

بمعنى: أن الطبيعة الإنسانية في حب الخير التي عبّر عنها القرآن الكريم: (... فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...)[429]، تقابلها الطبيعة الإنسانية القابلة للتقوى أو للإنحراف التي عبّر عنها القرآن: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)[430]. وما يحرّك القابلية على الانحراف هو الرغبة في الشر أو الحاجة التي لا يسدها المجتمع. وهذا هو الداء الذي نواجهه في عصر الغيبة.

---

[429] سورة الروم: الآية 30.

[430] سورة الشمس: الآية 7 – 8.

فنحن بين عنصرين: برد النفس الخيّرة، ونار النفس الفاجرة. فهل نستطيع بالرياضة الروحية أن نرجع إلى الفطرة التي فطر الله تعالى الناسَ عليها؟ وهل نستطيع أن نهذب انفسنا بحيث نكون قادرين على تطويعها بالشكل الذي نريده؟ نعم، نستطيع عمل ذلك، ولكن نحتاج إلى رياضة روحية، وتعفف، وتقوى، وفهم، وعلم، وهو عين ما يريده الإمام المهدي (ع) في شيعته زمن غيبته.

وخلاصة المطلب، أنه يفترض أن نضع النقاط التالية نصب أعيننا، ونحن ننظر إلى مجتمع الغيبة:

الأول: تهذيب النفس الإنسانية وتربيتها على أساس القناعة بما يسد حاجاتها فحسب، والإرتقاء بها نحو معرفة الله سبحانه، وعبادته عبادة حقيقية.

فالتخفيف عن آلام الجسد الإنساني يؤدي بالضرورة إلى تخفيف الضغط عن عقله. أي أن إزاحة الألم عن الجسد يفتح العقل نحو آفاق جديدة لمعرفة خالقه، ونحو التدبر في حاجة الإنسان وفعله.

الثاني: الإحساس بالمسؤولية الجماعية تجاه الجماعة ككل، فهنا ينتهي حب الأنا، وتبدأ المسؤولية الجماعية تجاه كل فرد في المجتمع.

أي إذا رُفع مستوى الإنسان من كائن حيواني يفكر بمصلحته فقط إلى كائن أسمى يفكر بمصلحة الآخرين، ارتفعت أغلب مشاكل البشرية، وتبددت معضلاتها. ومن هنا فإن المجتمع الإنساني لا يمكن أن يعيش بسلام وطمأنينة إلا إذا ارتقى الإنسان بالتفكير بمصلحة الأمة الواسعة الكبيرة.

الثالث: إذا رُفعت قيود الإنانية وحب الذات عن الإنسان ارتقت نفسه إلى حب الخير، والطمأنينة، والسعادة. ذلك أن الأنانية تُفسد النفس الإنسانية، وتدمر الأرض وما فيها من نظام في الثروات، والخيرات، وما قدره الله تعالى لكل إنسان منذ ولادته وحتى وفاته.

سعادة الإنسان بالمهدي (ع)

لو تصورنا أن مجرد التفكير بالمهدي (ع) يجلب السعادة للإنسان، وإن كان غائباً عن الأبصار، فكيف نستطيع أن نستثمر ذلك الشعور الجميل في العبادة؟ أي كيف يمكننا أن نجعل التفكير بالمهدي (ع) عبادةً تسرّنا؟

ورد عن النبي (ص) قوله، وهو يتحدث بما سيحصل زمن ظهوره: (تنعم أمتي في زمن المهدي نعمة لم ينعموا مثلها قط ، ترسل السماء عليهم مدراراً، ولا تدع الأرض شيئاً من النبات إلا أخرجته، والمال كدوس...)[431]. ويشرح لنا الإمام الباقر (ع) في تفسير قوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ...)[432] كيف أن الله يحيي الأرض بالعدل، فيقول (ع): (يحييها الله بالقائم فيعدل فيها، فيحيي الأرض بالعدل بعد

[431] الفتن – ابن حماد ج 1 ص 360.

[432] سورة الحديد: الآية 17.

موتها بالظلم)[433]. ويضيف الإمام الصادق (ع) إلى ذلك، فيقول: (أما والله ليدخلنَّ عليهم عدله جوف بيوتهم كما يدخل الحرّ والقرّ)[434].

وكي نفهم تلك الروايات، فلنتصور أولاً طبيعة الحياة التي يؤسس لها المهدي (ع). فهي حياة آمنة، مليئة بالعدل والإنصاف، فيها خيرات وفيرة تشبع الناس، ويسمع الناس فيها قول الحق، وتُرفع فيها راية الدين، فتقلّ دوافع الشر عند البشر، فلا طمع، ولا ظلم، ولا تعدي. ومجرد قرائتنا تلك السطور ونحن في زمن الغيبة نحسُّ بسعادة داخلية تغمرنا. ذلك أن الشعور أو الاعتقاد بالمهدي (ع) يمنحنا اطمئناناً قلبياً بعدم استمرار الظلم، بل حتمية زواله. وتلك سعادة نفسية عظيمة؛ ذلك أن الشعور بالعدالة الواقعية يتلازم مع سعادة الإنسان.

ولاشك أن الإنسان إذا شَبعَ، وحُفظت له كرامته، وتوجَّهَ إلى خالقه وبارئه تعالى بالعبادة أصبح سعيداً. فالسعادة هدفٌ يصبو له الإنسان. فالتاجر يعتقد أن سعادته تكمن بالتجارة وجني الربح، والعالِم يعتقد أن سعادته باكتساب العلم. والفلاح يعتقد أن سعادته بجني المحصول الوفير. فكلٌّ يكدح في مسعاه إلى نهاية معينة، وعندما ينظر هؤلاء الكادحون إلى ورائهم فإن صاحب المال وجد في زيادة ماله راحةً وسعادةً، ووجد صاحب العلم في زيادة علمه راحةً وسعادةً، ووجد الفلاح في زيادة محصوله راحةً وسعادةً. فصاحب كل صنعة يجد في صنعته انشراحاً وسعادةً. ولكن تلك

---

[433] كمال الدين ص 668.

[434] الغيبة – النعماني ص 159.

سعادة مؤقتة طارئة لا سعادة دائمية، فالسعادة الدائمية التي تأخذ قلب الإنسان ونفسه هي السعادة النابعة من كونه يعيش حياةً آمنةً، لها معنى وهدف.

وإذا توقفنا قليلاً هنا نجد أن السعادة الحقيقية للإنسان تكمن في العيش في حياة أخلاقية فاضلة، فيها نكرانٌ للذات، ومساهمةٌ في الخير، وعبادةٌ للخالق عزوجل. وذلك العيش الفاضل ممكن في زمن غيبة المهدي (ع).

والصبر على الإنتظار يمنح الإنسان سعادةً بقدر ما يمنحه السلوك الفاضل. فالإنسان المظلوم يستطيع أن يعيش حياة عبادية فاضلة متستراً في زوايا بيته، إذا منعه الظالم مثلاً من ممارسة حقه الطبيعي في العبادة في المسجد. ويستطيع المنتظِر أن يكون أكثر كرماً، وجوداً في مساعدة الفقراء حتى يخرج الإمام (ع). ويستطيع العالِم أن يثبت علمه أملاً في ظهور الإمام (ع). وفي كل تلك الحالات يشعر الإنسان بسعادة ما لأداء وظيفته.

وما يجعل الإنسانُ سعيداً بالمهدي (ع) أيضاً، وإن لم يره بعد، هو شعوره بأن هناك نهاية سعيدة للعالم، وأن هناك أملاً في إزالة آلام الفقر والجوع والجهل من على وجه الأرض.

السعادة الإنسانية:

نستلهم من الأحاديث المروية حول الإمام المهدي (ع) أن في خروجه هدفٌ واضحٌ هو إسعاد الإنسان، عُبِّرَ عنه بالعدل والقسط، ووفرة

الخيرات، وعدم الإكتراث بالمال. والسعادة لا تتم إلا بالعدالة، والأمان، والعلم، والعبادة. ولاشك أن سعادة الروح والعقل لا تكتمل إلا بإشباع الجسد بالطعام، واشباع العقل بالتفكر. فالسعادة الواقعية اذن تمرُّ بطريقين. الأول: اشباع الجسد وإروائه. والثاني: سعادة النفس بإرجاعها إلى التفكر بخالقها، وعبادته، وحسن السير مع السالكين لمعرفته تعالى.

ومن هنا انجذب الناس – على اختلاف مشاربهم الفكرية – إلى فكرة الإمام المنقِذ على مدى التاريخ، لأن الإنسان يبحث دوماً عن السعادة الحقيقية: سعادة النفس، وسعادة العقل.

وبإعتبار سمو هذا الكائن عند الله تعالى، أراد سبحانه سعادة الإنسان في أواخر حياته على الأرض. وأعلن الإسلام على لسان خاتم الأنبياء (ص) ذلك المبدأ بأن يظهر في آخر الزمان رجلٌ له جميع مواصفات الحاكم العادل، الذي يستمد عدالته وحكمه من قوة غيبية هائلة تسدده في مهمته التي هي أقرب إلى المحال منها إلى الواقع فيما لو كان إنساناً عادياً. ولكن القوة الآلهية جعلت ذلك الأمر ممكناً.

والرؤية الدينية للعالم في تلك الحقبة الزمنية عبارة عن تصوير للوجود الإنساني وهو في أقصى حالات السعادة من الرفاه، والخير، والعلم، والعبودية لله تعالى. تلك رؤية بعيدة المدى تكون فيها الحياة مبنية على العلم، والعبادة، والإيثار. فتنمو الأخلاق، وتموت البدع، وترجع العلاقات الإنسانية إلى سابق أصلها في التعاون وحب الخير.

أن ما يضع الإنسان في منحدر الهاوية هو الجهل بالنفس، وبالوجود، وبخالق الوجود؛ فالجهل هو الحجاب الذي يحجب عنه أنوار

المعرفة، ولذلك فإن أول ما قام به أهل البيت (ع) هو محاربة الجهل وتسليح الناس بالعلم والمعرفة. وقد ذكرنا سابقاً أن المهدي (ع) يضع يده على رؤوسهم فتكتمل بها أحلامهم واخلاقهم[435]. وفيها دلالة رمزية على دور العلم الفاضل في تكوين الشخصيات الفاضلة المؤمنة، وبنائها.

وقريبٌ من ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في خطبة له: (اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيّناته، وكم ذا؟ وأين أولئك؟ أولئك – والله – الأقلّون عدداً، والأعظمون قدراً، يحفظ الله بهم حججه وبيّناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ معلّقة بالمحلّ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه)[436].

إذن، فالسعادة عند المؤمن الموالي للمهدي (ع) هي ثمرة البصيرة، واليقين، والأمل بالمحل الأعلى وهو الله سبحانه وتعالى. وهي ثمرة الإيمان العملي بأحكام الدين.

والزهد (العقلي) مثلاً أمرٌ صعب المنال للمترف المعتاد على ملاذ الحياة ونعمها، والعبادة في مصاديقها من صومٍ وصلاةٍ في ظروف البرد القارص أو الحر القائظ أمرٌ صعبٌ للجاهل بأمر الدين. ولكن المؤمن

---

[435] الكافي ج 1 ص 25.

[436] نهج البلاغة – خطبة 147.

السعيد يستلطف الزهد، ويحب العبادة والصوم على صعوبتهما. يلحظ المرء في هؤلاء المؤمنين السعداء، على قلتهم في العدد: رقي النفس، وسمو الأخلاق، ورقة القلب، واليقين.

وكأن تلك السعادة الإيمانية مستَمدَّة من سعادة المعصوم (ع) نفسه. فنفس الإمام (ع) سعيدةً، راضيةً بما قسم الله تعالى لها، لا تبتغي غير مرضاته. فكل شيء فيه رضىً لله تعالى تكون له بهجة لا متناهية، في هذه الدنيا.

وهذا ما يشرحه حديث الإمام الرضا (ع) في صفة المعصوم: (إنّ العبد إذا اختاره الله لأمور عباده شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً فلم يعي بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيد موفّق مسدّد، قد أمن من الخطأ والزلل، والعثار، يخصّه الله بذلك ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[437].

يرسم لنا الإمام الثامن من أئمة أهل البيت (ع) صورة المهدي (ع) بهذه الطريقة: أن الله تعالى صانه من الخطأ والزلل، فتجافى عن معصيته تعالى، فكان معصوماً مؤيداً، موفقاً مسدداً، ليكون حجة الله على عباده. وهذا الفهم يضعنا على أبواب فهم السعادة الروحية من باب عدم الوقوع في مستنقع الجهل والمعصية. فلابد من معرفة السعادة من جميع وجوهها، ولنبدأ في معناها باللغة والاصطلاح.

---

[437] الكافي ج 1 ص 390.

السعادة في اللغة والإصطلاح: وإذا رجعنا إلى كتب اللغة، وبحثنا عن معنى (السعادة) فإننا نجد أن: السعادة أصلٌ يدلُّ على الخير والسرور. والسعودة خلاف النحوسة. والسعادة خلاف الشقاوة[438]. وقد وصف الله تعالى أهل الجنة بالسعادة، فقال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ...)[439]، وتلك صفة أهل الجنة. وذكرهم في منازل الناس يوم القيامة، فقال: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)[440].

أما الرضا، فلغةً: ضد السخط. واصطلاحاً: سرور القلب بمرِّ القضاء[441]. قال الراغب الاصفهاني (ت 565 هـ): "الرضى: رضا العبد عن الله: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد: هو أن يراه مؤتمراً لأمره منتهياً عن نهيه، قال تعالى: (... هَـذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[442]. والرضوان: الرضا الكثير. ولما كان أعظم الرضا: رضى الله تعالى. خص لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى"[443].

---

[438] لسان العرب ج 3 ص 21، والقاموس المحيط – الفيروزآبادي ج 1 ص 301.

[439] سورة هود: الآية 108.

[440] سورة هود: الآية 105.

[441] التعريفات ص 125.

[442] سورة المائدة: الآية 119.

[443] مفردات ألفاظ القرآن – الاصفهاني ص 356.

وتطبيقاً لما ورد من المعاني القرآنية واللغوية، نستنتج بأن الناس يمكن أن يُسعدوا بحُسن أعمالهم وأخلاقهم، وحُسن استعدادهم لمساندة المهدي (ع). وثمرة سعادتهم في غيبته: الرضا النفسي والقلبي بوجود المهدي بعنوانه، لا بشخصه فيما بينهم، يحكم بالعدل والقسط.

ومن الطبيعي فإنَّ السعادة على الأرض تتم عن طريق رضا النفس وسرورها، واطمئنانها على سلامة المنقلب. نعم أن الإنسان ينبغي أن يوازن في تفكيره الآخروي بين الخوف والرجاء، أي الخوف من حساب الله تعالى وعقابه، والرجاء بثوابه ونعيمه.

إلا أن تطبيق الفضائل عموماً يُسعد الإنسان، وقد تنبه الفلاسفة الأغريق إلى ذلك قبل آلاف السنين، فآمن سقراط (ت 469 ق.م.)، وأفلاطون (ت 427 ق.م.)، وأرسطو (ت 384 ق.م.) بأن السعادة لا تتحقق إلا عن طريق السعي نحو الفضيلة، وعمل الخير، وسلامة النفس.

وهو لا يختلف كثيراً عما رآه من بعدهم من فلاسفة المسلمين كالكندي (ت 185 هـ)، وابن سينا (ت 370 هـ)، وابن مسكويه (ت 330 هـ) الذين قالوا بأن السعادة هي الرضا، والقناعة، والأخذ بما يحتاجه البدن دون زيادة، وأن اللذات المعنوية أفضل من اللذات الجسدية[444].

نعم أن سعادة العقل من أعلى درجات السعادة، لأن فيها إشباع العقل بلذة العلم والمعرفة. فالعلم الذي يفضي إلى معرفة النفس، وتشخيص الفضيلة، ونفع الآخرين إنما يمنح الإنسان الرتبة العليا في السعادة.

---

[444] الموسوعة الفلسفية العربية ج 1 ص 478 .

والمختار من الآراء أن السعادة الحقيقية التي ينبغي أن يشعر بها الإنسان زمن الغيبة هي السعادة الفاضلة، وهي المتعلقة بالنفس عن طريق السلوك الفاضل كالرضا بقضاء الله تعالى، والإطمئنان بصحة المعتَقد، واليقين بالمهدي (ع)، وإشباع ما تريده الروح لا ما يريده الجسد فحسب.

وتلك السعادة ثمرة من ثمرات التقوى، والبعد عن المعاصي، والطاعة التامة لتعاليم الدين الحنيف. فلا ريب أن تكون السعادة الداخلية مصداقاً لإيمان المرئ وتفانيه في سبيل مبدأه ومعتقده.

وإذا كانت السعادة تعني التلبس بالحال الحسن التي يتلبس بها الإنسان السعيد، نتسائل: هل أن السعادة من صنع الإنسان نفسه، أو أنها نعمةٌ من الله تعالى لا دخل للإنسان فيها؟

مظاهر السعادة:

نفهم من مظاهر السعادة وعلامتها أنها من تقدير الله تعالى وعلمه من طرف، وأنها من جهد الإنسان في الإيمان والإدراك العقلي من طرف آخر. فالسعادة ليست لها ماهية معينة، وإنما هي أثرٌ للإطمئنان القلبي، واليقين بفكرة المنقِذ المخلِّص الذي ينشر العدل، وترضى عنه الكائنات. ومن مظاهر السعادة: الرضا الداخلي، والسرور بالفكرة.

1 – الرضا القلبي: عن رسول الله (ص): (أبشروا بالمهدي رجل من قريش يرضى لخلافته ساكن السماء وساكن الأرض)[445]. وعنه (ص) أيضاً: (... فيبعث رجلاً من أمتي يحبه ساكن الأرض وساكن السماء)[446]. فالرضا الداخلي لساكن الأرض يعكس حالة السعادة التي يشعر بها في وجوده مع المهدي (ع).

فالسعادة الحقيقية هي الرضا الداخلي، ولذلك وصف الله تعالى أهل الجنة بأنهم: (... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...)[447]، (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[448].

وقال تعالى يصف ظروف أهل الجنة: (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)[449]، (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ)[450]، (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)[451].

نستنتج بأن الرضا القلبي زمن الغيبة يعبر عن شعور الإنسان بالسعادة لفكرة وجود المهدي (ع) بين الناس.

---

[445] إثبات الهداة ج 3 ص 524، ينابيع المودة ص 431.

[446] فردوس الأخبار ج 4 ص 496.

[447] سورة المائدة: الآية 119.

[448] سورة التوبة: الآية 72.

[449] سورة الحاقة: الآية 21 – 22.

[450] سورة الغاشية: الآية 8 – 9.

[451] سورة الفجر: الآية 27 – 28.

2 – السرور بالفكرة: عن الإمام الرضا (ع): (فإذا خرج (ع) أشرقت الأرض بنور ربها...)[452]. وفكرة الخروج تعبّر عن الفرح والسرور.

والفرح نقيض الحزن، وهي صفة خارجية تعبر إما عن الغبطة (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[453]، (... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ...)[454]، وإما عن البطر، كما في قوله تعالى بخصوص قارون: (... إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)[455].

والسرور صفة داخلية يشعر بها الناس: (وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا)[456]، (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)[457].

والمحصل أن اللفظين: (الفرح)، و(السرور) ينطبقان على جميع صفات انشراح الصدر، دنيوياً كان في عملٍ صالحٍ ونحوه أو آخروياً كان في ثوابٍ على عملٍ ونحوها.

---

[452] كمال الدين ص 372.

[453] سورة آل عمران: الآية 170.

[454] سورة الروم: الآية 4 – 5.

[455] سورة القصص: الآية 76.

[456] سورة الإنشقاق: الآية 9.

[457] سورة الإنسان: الآية 11.

والمؤمنون عموماً يفرحون لفضائل النفس، فهم لا يريدون مالاً. لأنهم يعلمون أن السعادة ليست في المال. بل سعادتهم بالحكمة، والصلاح، ورفع الشحناء، ودفع التباغض. وفي الرواية عن النبي (ص): (إذا خرج المهدي (ع) ألقى الله الغنى في قلوب العباد، حتى يقول المهدي (ع): من يريد المال؟ ولا يأتيه أحد)[458]. وتتضافر روايات أهل البيت (ع) حول ذلك المعنى:

فالإمام الباقر (ع) يقول: (... وتؤتون الحكمة في زمانه، حتى أن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى، وسنّة رسول الله (ص))[459].

والإمام الرضا (ع) يقول: (فإذا خرج (ع) أشرقت الأرض بنور ربها، وهو الذي تطوى له الأرض، ولا يكون له ظل)[460]. أشرقت بنور ربها هو معنى مجازي يدل على إشراق الأرض بنور الله تعالى في العلم، والحكمة، والقناعة، والخشوع، والعبادة، والإيثار، والمحبة.

وتلك السعادة سعادة عقلية، ودرجاتها تتباين من شخص إلى آخر بمقدار استيعابه العقلي لحقائق الوجود، وإدراكه الفعلي لحقائق الدين.

فالسعادة في الآخرة: نعيم ولذات عقلية وجسدية كالخلود، وعدم المرض، وعدم التكليف، والمتع الأخرى.

---

[458] الملاحم – ابن طاووس ص 71.

[459] بحار الأنوار ج 52 ص 352.

[460] كمال الدين ص 372.

والسعادة في الدنيا: سعادة النفس، وسعادة العقل، وهي سعادة واقعية، على عكس سعادة الجسد في المال والمتعة فهي مؤقتة، وزائلة. وسعادة النفس والعقل هي التي قصدتها الروايات المذكورة آنفاً. لأن النفس إذا سُعدتْ بالعلم، والعدل، والأمان كرهتْ المال، وابتعدتْ عن كل ما يتعلق به من طمع، وظلم، واعتداء.

فلاشك أن التمرد على القيود الخارجية في الطبيعة، كالجاذبية الأرضية، وقيد المكان أو الجغرافيا ونحوها، لا يعني أن الإنسان قد وصل إلى نهاية السعادة. بل أن مظاهر الغنى والراحة باستخدام الوسائل التقنية المتطورة لا تمنح الإنسان السعادة الداخلية دائماً. بل أن التطور التقني قد يؤدي بالإنسان إلى العبثية، وسيطرة القوي على الضعيف، وتدمير الموارد الطبيعية التي خلقها الله للإنسان.

أن التخلص من قيود الجاذبية عبر السفر في الفضاء، والتخلص من جشوبة المكان عبر تحويل الصحارى القاحلة إلى واحات عذبة لا يؤدي بالضرورة إلى السعادة الروحية. تلك السعادة الروحية تتم فقط عبر إشباع الجانب النفسي والعقلي. والإيمان بالخالق عزوجل وبرسله وأوصياء رسله (ع) هو الذي يجلب السعادة القلبية الدائمية للإنسان.

قيود النفس الأمّارة:

قيود النفس هي الصفات التى تكبل الإنسان وتجعله قابعاً بذلٍ في زنزانتها. وأكثرها يتمحور حول اللذة الجسدية، وحب التملك، والبخل، ونحوها.

يتعامل الإمام (ع) مع قيود النفس الإنسانية، فيكسرها واحدة تلو الأخرى. فتحقيق العدالة والقسط يكسر: قيد الجوع، وقيد الطمع، وقيد الرغبة. فإذا كُسرت تلك القيود، وأُشبعت الرغبات مالَ الإنسانُ إلى معرفة الله تعالى، والتزم بأوامره ونواهيه، عندها أحس بالسعادة الحقيقية.

من الناحية العملية، يعالج الإمام (ع) قيود النفس البشرية، عبر النقاط التالية:

1 – التملك والطمع. قال تعالى واصفا قيد حب المال الذي يكبّل الإنسان: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)[461]. يعالجه الإمام (ع) بهذه الطريقة: عن النبي (ص): (إذا خرج المهدي (ع) ألقى الله الغنى في قلوب العباد، حتى يقول المهدي (ع): من يريد المال؟ ولا يأتيه أحد)[462].

2 – الجهل. قال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)[463]. يعالجه الإمام بهذه الطريقة: عن الإمام الباقر (ع): (... وتؤتون الحكمة في زمانه، حتى أن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى، وسنّة رسول الله (ص))[464].

3 – الغفلة. قال تعالى: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)[465]. يعالجه الإمام (ع)،

---

[461] سورة الفجر: الآية 20.

[462] الملاحم – ابن طاووس ص 71.

[463] سورة الأنفال: الآية 22.

[464] بحار الأنوار ج 52 ص 352.

[465] سورة الأعراف: الآية 205.

كما ورد عن رسول الله (ص) في ذكر الملاحم: (... لا يزال ذلك البلاء على أهل الزمان حتى إذا أيسوا وقنطوا وساؤا الظن ألاّ يُفرَّج عنهم إذ بعث الله رجلاً من أطايب عترتي وأبرار ذريتي عدلاً، مباركاً، زكياً، لا يغادر مثقال ذرة، يعزُّ اللهُ به الدين والإسلام وأهله، ويذلّ به الشرك وأهله ... يمحو اللهُ به البدع كلها، ويميتُ به الفتن كلها، يفتح اللهُ به كل باب حق، ويغلق به كل باب باطل)[466]. فتذهب الغفلة عن الناس، وتستيقظ ضمائرهم، فتُمحى البدع، وتموت الفتن، ويرجع نظام الأرض إلى سابق عهده.

4 – الضغينة. قال تعالى يصف الفائزين في دخول الجنة: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)[467]. يعالجه الإمام (ع)، كما ورد عن النبي (ص): (... ويرفع الشحناء والتباغض)[468]، وعن الإمام الحسن (ع): (يبعث الله رجلاً في آخر الزمان... ولا يبقى طالحٌ إلا صَلُح)[469]، وعن أمير المؤمنين (ع): (إذا قام قائمنا... لذهبت الشحناء من قلوب العباد)[470].

---

[466] الملاحم ص 132.

[467] سورة الحجر: الآية 47.

[468] المصنف – عبد الرزاق ج 11 ص 402، الفتن – ابن حماد ص 162، الملاحم ص 152.

[469] إثبات الهداة ج 3 ص 524 نقلاً عن الإمام علي (ع).

[470] الخصال ج 2 ص 154.

فتذهب الضغائن والأحقاد، وتنعم الناس بنعمة الأخوة، وحسن الجيرة، وحسن التعارف، وترجع الإنسانية إلى رقيها في الصلاح والإستقامة.

بين قيود النفس والسعادة الإنسانية:

والخلاصة أن السعادة حالة متعلقة بالنفس المطمئنة الراضية التي لا تقبل بديلاً عن الرضا بما قسم الله تعالى. إلا أن مقدماتها عقلية. فالسعادة منشؤها عقلي. وطالما كان العقل يتعامل مع الحقائق والبراهين، فإن إثبات البراهين الدالة على حقائق الوجود تمنح القلب إيماناً وتصديقاً، وسعادةً وسروراً. ومصاديقها: البراهين في التوحيد، والنبوة، والإمامة.

وما يجعل الإنسانُ سعيداً هو مقدار الأخلاق والإيثار اللذان يتحلى بهما. فالسعادة ثمرة من ثمرات عمل الخير؛ والرضا مرآة لرضا النفس؛ والسرور أثرٌ من آثار مد يد العون إلى الآخر. وهذا بحد ذاته لا يأتي إلا من خلال استقرار السلام والطمأنينة في النفس؛ ولا يثمر إلا من خلال تحقيق العدل مع الآخرين؛ ولا يتحقق إلا من خلال معرفة حق الخالق عزوجل.

وبذلك تكون رغبات الإنسان هي سجنه التي تحبسه بين جدرانها، فالشهوة، والطمع، والجموح نحو الشر إنما هي جدران تحبس النفس وتمنعها من الإنطلاق والتحرر. وحتى لو أشبع الإنسان تلك الغرائز بطريق الكسب الحرام، فإنه يبقى شقياً لا يحس بالسعادة. بل أن السعادة الحقيقية إنما يشعرها عندما يكسر قيود تلك اللذات الجسدية، ويحطم سلاسل الجهل

التي تقيّد فكره وعقله، فيعيش حياة الإيثار والمعرفة والتقوى؛ عندها يكون أسعد الناس.

وأحسن مثال يُضرب على كسر قيود النفس: مثال الإمام الحسين (ع)، عندما كسر قيود النفس في حب الحياة فعاش أسعد اللحظات داخل نفسه وهو يرى أنه يسير نحو الموت سيراً حثيثاً. ويصدقه قوله: (أني لا أرى الموت إلا سعادةً، والحياة مع الظالمين إلا برماً)[471].

وأكثر ما يجلب الشقاء إلى الإنسان هو الثروة الواسعة القادمة عن كسب حرام، وكذلك الفراغ الذهني والنفسي، والغريزة التي لا ضوابط لها ولا حدود.

بينما تأتي السعادة الحقيقية عن طريق العقل والإيمان. فهي كالبراعم تتفتح مع الربيع ناشرةً معها العطر الزكي، والمنظر الخلاّب.

أننا قد نخطأ بتقدير جوهر دولة الإمام (ع) إذا اعتبرنا أن السعادة فيها تأتي فقط عن طريق الرخاء، وزيادة ثروات الأرض، وزيادة الثمرات! ونتناسى أن نشر الفضائل في المجتمع هو الذي يؤدي إلى السعادة الحقيقية. ولا نعلم لماذا أهتمَّ أغلب المفكرين بالروايات التي اهتمت بالسعادة الجسدية ولم يهتموا بالروايات المتعلقة بالسعادة النفسية والروحية!

أن اللذة الجسدية في الأمان، والعدل، والثروة لا يمكن لوحدها أن تكون مصدراً للسعادة في مجتمع الفضائل. وحتى أن الروايات التي أشارت إلى لذة الجسد كالقوة العضلية للمجاهد، وكثرة المال، والرخاء لا يمكن أن

---

[471] تحف العقول – ابن شعبة ص 174.

نأخذها لوحدها كمصدر للسعادة، بل لابد أن نقرن معها الروايات التي نفهم منها أن السعادة الحقيقية لا تتحقق إلا بمعرفة النفس لخالقها وبارئها، وإطمئنانها بحسن الوفود عليه سبحانه.

وما يزيد شعورنا بالسعادة الحقيقية هو انتظارنا للمهدي (ع) الذي بظهوره سينشر العبادة الأصيلة دون إضافات، والعدل الواقعي بين الناس، فيُرجعنا بفضل الله تعالى إلى طبيعتنا السعيدة، وفطرتنا الأولى التي فطر الناس عليها.

الفصل السابع

النتائج المستخلصة من بحوث الكتاب

مقدمة

لما كانت قضية الإمام المهدي (ع) أمراً من الله تعالى، حيث تطوي في ثناياها غيبةٌ طويلةٌ بات موضوع اليقين والشك من المواضيع التي ينبغي أن تُبحث بتفصيل. خصوصاً أن الشك في قضية الإمام الغائب تُهبط بالإنسان من نور الإسلام وهدايته إلى ظلام الجاهلية وضلالها، كما هو المشهور من حديث رسول الله (ص): (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية)[472].

في قضية اليقين:

فالنبوة والإمامة أسباب بين الله تعالى وبين عباده. ولا يقطع الله سبحانه تلك الأسباب بينه وبين خلقه. والمهدي (ع) هو آخر أئمة أهل البيت (ع)، وهو آخر الأسباب التامة بين الله عزوجل وبين خلقه، وهو باقٍ بإرادته تعالى ما بقي إنسانٌ على وجه الأرض.

فشخص المهدي (ع) قد يغيب عن ناظريه في زمن ما، ولكن تبقى أفكاره شاخصة لهم، ترافقهم طول حياتهم. وفيه قول الإمام أمير المؤمنين (ع): (اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحجةٍ إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حججُ اللهِ وبيناته)[473].

---

[472] وسائل الشيعة ج 20 ص 287.

[473] شرح نهج البلاغة – محمد عبده ج 4 ص 37.

ذلك أن اليقين المنطقي عند الإنسان بوجود المهدي (ع) حيّاً غائباً إنما هو إيمانٌ جازمٌ بأن ما يعتقده يطابقُ الواقع، ولا يمكن أن يخطر بباله شيء آخر غير المطابقة الحقيقية. فيخرج هنا الظن وهو عدم الترجيح بين طرفين، ويخرج الجهل المركب الذي هو اعتقادٌ جازمٌ غير مطابق للواقع.

وحجية اليقين في المهدي (ع) حجية ذاتية، فكما أننا لا نستطيع أن نفكك بين النار والحرارة المنبعثة منها كذلك لا نستطيع التفكيك بين المهدي ووجوده الفعلي، ففي كليهما قطع ذاتي، وحجة ثابتة.

ذلك القطع الذاتي يجعلنا نؤمن بأن اليقين بالمهدي (ع) قلبياً هو قبول حقيقة وجوده وغيبته دون أدنى شك؛ وفعلياً هو الوثوق بصحة ذلك الجزء من المعرفة، ودقته. وبالإجمال فهو يقين معرفي يستند على أسس عقلية معرفية.

وتأكيد الروايات المتواترة عن الإمام المهدي (ع) من قبل رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع) جعلت للعقل الشيعي مناعة دائمية ضد الشك في قضية وجوده، ووضعت لذلك العقل ضوابط للتعامل الديني والأخلاقي مع غيبته.

فجعلت الدعاء بعد الصلاة المفروضة وسيلة من وسائل الارتباط بالإمام (ع)، وإحياء المناسبات الخاصة بالمهدي وسيلة للإستقرار والطمأنينة، والثبات على مبدأ الإمامة.

ولليقين بالإمام المهدي (ع) أربعة أشكال:

الأول: اليقين عن طريق الدليل الحسي وهو الشهادة بولادته، ومصاديقها شهادة الإمام الحسن العسكري (ع) بولادة ابنه (ع) في الخامس عشر من شهر شعبان سنة 255 هـ، وتلك شهادة لوحدها تورث اليقين من إمام صادق كُتبت له العصمة والطهارة من آل محمد (ص).

الثاني: اليقين بالتصديق بالغائب بإزالة جميع الشكوك، ويتحقق بإقامة إستدلال معرفي بنقض الشكوك والأوهام المُثارة. ولعل أهمها التواتر المستفيض للروايات الخاصة بالمهدي (ع) الواردة عن رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع).

الثالث: اليقين عن طريق رؤية الأشياء بالبصيرة. فالمهدي (ع) وفكرته، وغيبته، وظهوره هو أمرٌ من الله تعالى وقد تضافرت أقوال رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع) على إعطاء صورة المهدي (ع) في صفاته، وطبيعة غيبته وظهوره، ولم يكن يتسلل أدنى تعارض أو تناقض في أقوالهم. وهذا الدليل، الذي هو يقين البصيرة، يمنحنا إطمئناناً وجدانياً بصحة ادعائهم.

الرابع: اليقين عن طريق الإيمان بالغيب وتصديقه. وإذا كان الإيمان بالله تعالى، وبمحمد (ص)، وبالوحي، وبالآخرة، وبالملائكة إيماناً بالغيب، كان الإيمان بالمهدي (ع) إيماناً بالغيب أيضاً. ومعنى الإيمان بالغيب هو الإيمان بكل شيء غير محسوس أو بشيء لا يمكن رؤيته.

وهذا اليقين بالغيب هو أعلى درجات اليقين، فالإيمان بأمر غائب عن الأنظار يعبّر عن قوة اليقين، ويعبّر عن حُسن استخدام العقل في البحث عن الدليل.

وإذا كان هذا شأن اليقين، فما بال الشك يدخل في هذا الأمر؟ جواب ذلك أن الشك هو من قبيل التصورات لا التصديقات، فإذا وقع الشك فلابد أن يكون ناتجاً عن الوهم. فالتصور يمكن أن يُخطئ، لكن الاعتقاد الصحيح غالباً ما يكون ناتجاً عن علم ودليل، فيكون اعتقاداً ثابتاً. ولو استحضرنا أحاديث رسول الله (ص) المتواترة، وأقوال أئمة الهدى (ع) المتضافرة، والشواهد التاريخية لكان اليقين في المهدي أمراً مسلَّماً يثبته الدليل.

لكن الشك والاضطراب في الفكر سنّة من سنن الحياة، فهو نظامٌ لغربلة الناس، وتمحيص ثباتهم، وقوة اعتقادهم. فمن ثبت على الحق، وتيقن بالمبدأ فقد ثبت على المنهج، وهذا عين ما وصفه الإمام الباقر (ع): (لا يكونُ فرجنا حتى تغربلوا، يقولها ثلاثاً، حتى يُذهبَ اللهُ تعالى الكدَرَ ويُبقي الصفوَ)[474].

شروط اليقين في المهدي (ع):

ولا يتحقق اليقين إلا بوجود شروط موضوعية خمسة:

الأول: فعلية اليقين بوجود الإمام المهدي (ع) حياً غائباً عن الأنظار. ولا عبرة باليقين التقديري. أي أن الذي يقول: على تقدير وجود الإمام (ع) لآمنتُ به، فإنّ هذا لا يعتبر يقيناً فعلياً بل أنه يقين تقديري لا يصلح لموضوعنا. والإسهاب في ذكر صفات محمد بن الحسن المهدي (ع) من قبل

[474] الغيبة – الطوسي ص 339.

النبي (ص) وأهل البيت (ع) يعدُّ مصاديقَ لفعلية اليقين بوجوده حياً غائباً عن الأبصار.

الثاني: اتصال زمن اليقين بظهور الإمام (ع): ويعني استمرارية اليقين بوجوده، بحيث تستوعب حياة الإنسان كلها زمن الغيبة. وبمعنى آخر أن المخلصين المباشرين لروح اليقين يصممون منهج حياتهم بشكل يكون الانتظار فيه هو محور نظرتهم المستقبلية للحياة.

وقد حاول أئمة أهل البيت (ع) جميعاً قبل ولادة المهدي ربط الأزمنة بعضها ببعض، وحاولوا العيش في عالم الإمام المهدي (ع)، كدعاء الإمام السجاد (ع) مثلاً في المهدي (ع): (وأصلح لنا إمامنا واستصلحه، وأصلِح على يديه، وآمِن خوفه، وخوفنا عليه، واجعله اللهم الذي تنتصرُ به لدينك)[475].

الثالث: اتحاد قضية اليقين في المتعلَّق: وهو اتحاد موضوع اليقين بالمحمول. بمعنى أن يحصل اليقين بشخص الإمام محمد بن الحسن المهدي (ع)، وهو متعلَّق القضية. فربما هناك يقين بفكرة المهدي، كما هو الحال في المذاهب الأخرى، لكنها تختلف في المتعلق وهو شخصية الإمام المهدي (ع)، فهذا يقينٌ غير تام ولا قيمة له، لاختلاف الموضوع عن المحمول.

الرابع: بناء اليقين بالمهدي (ع) على قاعدة (المانع والمقتضي): لو أخذنا بقاعدة (المانع والمقتضي) من زاوية تعلقهما بإرادة الله تعالى، لكان

---

[475] مصباح المتهجد ص 639 – 640.

المقتضي (وهو ظهور الإمام المهدي عليه السلام) بإذن الله تعالى، وكان المانع (وهو عدم الإذن له بالظهور لأجلٍ معينٍ). أي أننا فهمنا هذه القاعدة على أساس اليقين بإرادة الله تعالى.

وفي حديث الإمام الصادق (ع) عن المهدي (ع) وغيبته ما يشير إلى هذا المعنى، قال: (... إن هذا الأمرَ أمرٌ من الله تعالى، وسرٌ من سر الله، وغيبٌ من غيب الله، ومتى علمنا أنه عزوجل حكيم صدّقنا بأن أفعاله كلها حكمةٌ، وإن كان وجهها غيرَ منكشف)[476].

الخامس: وجود الأثر العملي لليقين: إن اليقين بوجود المهدي (ع) يؤدي إلى شعور المكلّف بتكليفه الشرعي من زاوية بناء شخصيته الدينية في العبادة، وحسن المعاملة مع الناس. ولاشك أن اليقين إذا ثبت لا يرتفع بما هو دونه مثل الشك أو الوهم، لأنهما أضعف وأوهن من اليقين. نفهم ذلك من كلام الإمام الباقر (ع): (... ولا يُعذَر الناسُ حتى يعرفوا إمامهم، ومن مات وهو عارفٌ لإمامه لا يضرُّهُ تقدمُ هذا الأمرِ أو تأخرُهُ...)[477].

ان التصريح بوجود المهدي (ع) أقوى في التعبير من التشكيك بدلالة الحال، وهي التي عبّر عنها الإمام الصادق (ع): (... ويصفو الإيمان من الكدر بإرتداد من كانت طينته خبيثة من الشيعة الذين يُخشى عليهم النفاق والأمن المنتشر في عهد القائم عليه السلام)[478].

---

[476] كمال الدين ص 482.

[477] المحاسن ص 155.

[478] كمال الدين ص 355

فإذا كان التصريح مخالِفاً لما يُفهم من دلالة الحال لا يبقى لتلك الدلالة قيمة؛ ذلك لأن دلالة التصريح (بوجود القائم بالحق عليه السلام) يقينية قاطعة، ودلالة الحال (ارتداد من كانت طينته خبيثة) ليست القاعدة، بل استثناءً يمثل أفراداً ممن كانت طينته خبيثة من الذين يُخشى عليهم النفاق إذا أحسوا بالاستخلاف.

شخصية الإمام المهدي (ع):

لاشك أن معرفة الصفات الشخصية للمهدي (ع) هي خطوة أولى لاستيعاب فكرة الغيبة، والإنتظار، والظهور. وغياب شخص الإمام (ع) قد يكون مدعاة لتقمص شخصيته من قِبل أناس مزيفين، لا فضل لهم، ولا منزلة تميزهم عن غيرهم.

صفات المهدي – بإعتباره أحد أئمة أهل البيت (ع) – نعلمها من خلال دراسة رسالته إلى أحد سفرائه، حيث وضع الإمام (ع) ست صفات أساسية: (... عصمهم من الذنوب، وبرأهم من العيوب، وطهرهم من الدنس، ونزههم من اللُبس، وجعلهم خزان علمه، ومستودع حكمته، وموضع سره، وأيدهم بالدلائل، ولولا ذلك لكان الناس على سواء، ولادعى أمر الله عزوجل كل أحد، ولما عرف الحق من الباطل، ولا العلم من الجهل...)[479].

[479] الغيبة – الطوسي ص 191.

الفضائل الشخصية للإمام المهدي (ع):

ففي تلك الرسالة جملة من الفضائل التي لابد منها في شخصية الإمام (ع):

الأولى: العصمة من الذنوب: وصفٌ جميلٌ لشخصية المهدي (ع)، وهي تعني أمرين، الأول: طاعة الله تعالى وعدم الوقوع في المعصية. والثاني: الكمال في المعرفة، فيكون ذلك الكمال مصدراً بعدم الوقوع في الخطأ أو السهو أو الجهل.

والعصمة لطفٌ من الله تعالى على النبي (ص) أو الوصي (ع)، فيختار عنده الإمتناع عن فعل القبيح، وقد وصف تعالى أنبياءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب (ع) بالقول: (وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ)[480].

ولو عُهد من النبي (ص) أو الإمام (ع) السهو والخطأ والنسيان لارتفعت الثقة بإخباراتهم ونفرت العقول من متابعتهم. ولذلك وصفهم أمير المؤمنين (ع): (هم عيشُ العلم، وموتُ الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم...)[481].

وطالما كان المهدي (ع) مؤتمَناً على رسالة الإسلام بعقائده وأحكامه، فإن العصمة تطمئننا على أنه يأمر بتطبيق الإسلام كما أُنزل على رسول الله (ص). وفي كونه لا يرتكب المعصية خلال مئات السنين

---

[480] سورة ص: الآية 47.

[481] شرح نهج البلاغة ، خطبة 234.

يجعله قائداً تذعن له البشرية بجميع أطيافها، ومكوناتها في نشر العلم والعدل والأمان.

الثانية: البرأ من العيوب: مقتضى الإمامة الكبرى أن يكون الإمامُ مبرّأً من جميع العيوب العقلية والنفسية والجسدية.

والعيوب بأشكالها المختلفة لا تناسب مقام الإمامة؛ فالعيوب العقلية: كالاضطراب العقلي، وشرود الذهن، وخلط الحقائق بالأوهام، والعيوب النفسية: كالكآبة، والمزاجية، والغضب، وعدم تمالك الأعصاب، والعيوب الجسدية: كالعاهات، والأمراض المزمنة كلها تعدُّ نواقص لا تصلح لمن أُبتلي بها لقيادة الأمة.

والمعيار في سيرة الإمام (ع) هو قدرته على الفصل بين الحق والباطل، وفرز الصواب عن الخطأ، وتبيين الحلال عن الحرام، فلابد أن يكون مبرّأً من كل عيب، متكاملاً في سيرته الفكرية والجسدية.

الثالثة: الطهارة من الدنس: هي طهارة معنوية من الخلاعة، والفجور، والفسق، وتعني إزالة كل ما يلوث الروح والعقل من أدران فكرية أو مادية. وتلك الشخصية المطهَّرة من الدنس يشهدُ لها أهل البيت (ع) شهادة حدسية، فقد شهد الإمام الرضا (ع) للمهدي بأنه: (لم يذنب ذنباً، ولا أتى حوباً، ولم يرتكب معصية...)[482].

[482] مصباح المتهجد ص 366.

ولا يُفسّر ذلك إلا بالإيمان بأن طهارة أهل البيت (ع) هي طهارةٌ في جوهرهم ومعدنهم، وهذا مصداقٌ لقوله تعالى: : (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[483].

وجوهر طهارة الإمام (ع) من الدنس لا يقتصر على الطهارة المادية فحسب، بل يشمل الطهارة العقلية من الفسق والفجور. فالإخلاق عند أهل البيت (ع) هي الحكمةُ بعينها. والحكمة هي المعرفة التامة التي تترجم إلى عمل وسلوك.

بمعنى أن الطهارة العملية لأهل البيت (ع) تبرز في التطبيق. وطهارتهم من الدنس هي أخلاق عملية يقرأها كل إنسان يلحظ سلوكهم وسيرتهم. فطهارة المهدي (ع) هي الحكمة العملية التي تُغنينا عن كمٍّ هائلٍ من الألفاظ.

الرابعة: التنزيه عن اللُّبْس: هو التنزيه من الالتباس، والشبهة، وعدم الوضوح. واللُّبس هو احتمال إرادة اللفظ أو العبارة لأكثر من معنى. ومنها: الشبهة، وهو ما التبس أمرُه فلا يدري أحلالٌ هو أو حرامٌ، حقٌ هو أو باطلٌ. قال أمير المؤمنين (ع): (إنما سُميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق. وأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين)"[484].

---

[483] سورة الأحزاب: الآية 33.

[484] المصباح المنير ج 1 ص 358.

للشبهة آثار خطيرة على المجتمع، فلا مفرَّ للقائد إلا التنزه عنها. ذلك أن التباس الأمر وعدم معرفته أحلالٌ هو أو حرامٌ، حقٌ هو أو باطلٌ يقوّض مقام الإمامة. ولذلك قال الإمام المهدي (ع) أن من صفات الإمام التنزه من اللُّبْس.

ومن مصاديق الشبهات هو المتشابه في القرآن الكريم. ومن وظيفة الإمام المهدي (ع) هو معرفة معاني القرآن الكريم من خلال المحكم والمتشابه، ومعرفة التأويل وهو إرجاع الشيء إلى حقيقته.

نفهم من ذلك أن المهدي (ع) عالمٌ بمتشابه القرآن ومحكمه، عارفٌ بالتأويل، طاهرٌ في الذهن. فهو من قومٍ أراد الله تعالى تطهيرهم، كما قال تعالى: (...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[485].

وهذا الإدراك للمتشابهات، والمحكمات، والتأويل الذي تدور عليه رحى معارف القرآن الكريم هو أحد المعجزات الحقيقية للمهدي (ع)، فلا يستطيع شخص تقمُّصْ الشخصية العلمية للإمام (ع). لأن الذي يدرك المتشابهات، والمحكمات، والتأويل هو من الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه، وطهرهم وأزال عنهم الرجس، وتلك عقولٌ واعيةٌ، ونفوسٌ راقيةٌ لا ينهض إلى مستواها من هو دون ذلك.

---

[485] سورة الأحزاب: الآية 33.

الخامسة: خزانة العلم واستيداع الحكمة: خزن العلم، واستيداع الحكمة من الصفات الكبرى للإمام المهدي (ع) أيضاً، فهي تعني الكمال في العلم، والقدرة على العمل بالحكمة المستودَعة في قلب المعصوم (ع).

وأهل البيت (ع) خزّان العلم، لأن العلم المستودَع عندهم هو علمٌ تلقوه مشافهةً من النبي (ص). فهم الحافظون لعلم النبوة دون زيادة أو نقصان.

ومن منابع العلم أيضاً: العلمُ بالقرآن الكريم. وإذا جمعنا الروايات الخاصة بالمهدي الواردة عن رسول الله (ص) لاستنتجنا بأن شخصية الإمام (ع) هي قرانٌ ناطقٌ، وفكره معاني الآيات وأسرارها، وسلوكه ترجمة عملية لجميع مفاهيم القرآن الكريم، كي يكون قدوةً للناس، وإماماً يرشدهم إلى الهداية والصلاح.

فإذا كان المهدي (ع) من خزنة العلم، وهو كذلك، فلابد أن يعلم الفارق بين الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمحكم والمتشابه، وأن يعلم المستحب من الواجب، والحلال من الحرام، ونحوها. ولابد أن يكون محيطاً بأسباب التنزيل، وأسباب التقديم والتأخير؛ وأن يعلم مبادئ القضاء والقدر، وأن يعلم طبيعة السياق القرآني، وتركيبة الجمل والمعاني، ومواضيع الحلال والحرام. وهذا أمرٌ لا يقدرُ عليه إلا الذين طهرّ الله قلوبهم، وفتح عقولهم لتلك المهمة الشاقة.

أما استيداع الحكمة، فتعني أن المعرفة أو الحكمة تستقر في شخصيته، وتُحفظ كي لا تصلها يد التلاعب أو الأهواء.

وطالما كانت الحكمة أعلى درجات المعرفة، خصوصاً إذا ارتبطت بالسلوك، أضحت تلك المعرفة مرآةً لمعرفة الإنسان بنفسه، وبالمجتمع المحيط به، وبخالقه عزوجل. فالحكمة هي علمٌ مرتبطٌ بالأخلاق، ومعرفةٌ مرتبطةٌ بالفضائل.

والحكمة تعني أيضاً إرشاد الإنسان إلى معرفة عالَمه، ومعرفة العوامل التي تؤثر على ذلك العالَم عبر العلم، والتبصر بحقائق الأمور وكُنهها وجوهرها، قال تعالى: (...وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...)[486].

فلا ريب أن يكون المهدي (ع) مستودَعاً للحكمة، لأن الحكمة من الفضائل التي تربط المعرفة الدينية بالسلوك العملي، فالحكيم إنما يكون حكيماً بتصرفه في الأمور الدينية، وفي تعامله مع الناس وقضاياهم. فهو مع معرفته بالله تعالى، يمتلك نفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به.

السادسة: التأييد بالدلائل: وهي تعني أن الإمام المهدي (ع) مؤيدٌ بالدلائل العقلية والنقلية التي تدعم إمامته الكبرى، وتساند مهمته في إحياء الدين آخر الزمان.

---

[486] سورة البقرة: الآية 269.

ودلائل الإمامة هي العلامات المستلزِمة لإمامة أهل البيت (ع)، وصدق دعواهم. والدليل يستلزم الإختصاص بالمدلول عليه. أي أن إمامة أهل البيت (ع) تستلزم الإختصاص بهم دون غيرهم.

الموالاة للإمام المهدي (ع):

قضية الإمام المهدي (ع)، وغيبته وظهوره، مرتبطة بموضوع الموالاة التامة له. فوظيفة الإمام (ع) تقتضي وجود موالين له، مخلصين، مؤمنين، أقوياء يفدونه بالنفس والمال، وبالفكر والمشاعر. وبدون تحقق الموالاة الصادقة من قبل القلّة المؤمنة المخلصة، فإن قضية الظهور تبقى مفتوحة إلى أجل يقدره الله تعالى.

والولاء يعدُ عقداً ضمنياً بين المُوالي والمولى، حيث يلتزم فيه الموالي بالطاعة والمحبة لمولاه، ويلتزم المولى بإرشاده إلى طريق الحق لفظاً وعملاً. وهذا الحد المنطقي يُخرج الولاء العشائري، والأسري، والسياسي ونحوها من التعريف.

والولاء الصادق للمهدي (ع) يشمل ثلاث شُعب، هي:

1 – الولاء العقلي: وهو الولاء الذي يحرّكه الدافع العقلي عن طريق البحث عن الدليل، ثم الالتزام بالمولى. فالموالاة العقلية هي أرقى رتب الولاء لأنها تعتمد على الدليل والبرهان.

والثراء الفكري الذي ولدته المصادر الروائية عن الإمام المهدي (ع)، والتنبؤ بظهوره آخر الزمان من قبل رسول الله (ص) وأئمة أهل البيت (ع) هو دليلٌ عقلي على صحة الفكرة المهدوية ومصداقيتها. فاعتقادنا

بصدق رسول الله (ص) وأمانته في نقل رسالة الدين السماوي يجعلنا نعتقد بصدق ما قاله (ص) في الإمام المهدي (ع)، وفي كونه من أئمة أهل البيت (ع)، وهو التاسع من ولد الحسين (ع)، وهو الذي يحقق للإنسانية ما تتمناه من عدلٍ وأمانٍ، وخيرٍ وسعادةٍ.

2 – الولاء الشرعي: وهو الإلزام الذي يأمر به الدين لتوثيق الرابطة بين الإنسان وبمن يعتقد به. ويتميز الولاء الشرعي بكونه ولاءً جماعياً، حيث ترتبط الجماعة برابط الإشتراك في الولاء لإمامها، وهي فخورة بذلك. فالولاء لأهل البيت (ع) يحمل أمرين: الفكرة الجماعية المشتركة للموالاة، والإعتزاز بتلك الموالاة.

هذا الولاء الشرعي ولاءٌ صادقٌ لا يخون الإنسان. فلربما والى المرء في حياته حاكماً ظالماً، ثم ندم على ذلك الولاء الكاذب! لكن الولاء الشرعي صادقٌ دائماً، لأن مصدره الدين الصادق. وهكذا الولاء الشرعي للمهدي (ع) فهو ولاءٌ أمر به رسول الله (ص)، وسدده الله تعالى قبل ذلك.

3 – الولاء العاطفي: هو الولاء المشحون بالعاطفة والمشاعر الإنسانية، المشحون بألم معاناة الإمام المهدي (ع) على تلك الفترة الطويلة وهو ينتظر أمر الله تعالى، عابداً، متقياً، صابراً على الوحدة والغربة.

ومصداق ذلك الولاء العاطفي ما ذكره الإمام السجاد (ع) وهو يتوسل إلى الله تعالى: (اللهم اشتري نفسي الموقوفة عليك، المحبوسة لأمرك بالجنة، مع معصومٍ من عترة نبيك (ص)، محزونٍ لظلامته،

منسوبٍ بولادته، تملؤ به الأرض عدلاً وقسطاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً...)[487].

أسس الولاء:

وحتى يكتمل الولاء الصادق عند الإنسان هناك أسس وقواعد ينبغي مراعاتها، منها:

1 – موضوع الولاء: موضوع الولاء في الإسلام هو الله تعالى، ورسوله (ص)، وأهل بيته (ع)، قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...)[488]. وقد حدد رسول الله (ص) طبيعة الولاء للمهدي (ع)، عندما ربطه بنفسه الشريفة وقال (ص): (... من أنكره في غيبته فقد أنكرني، ومن كذّبه فقد كذّبني، ومن صدّقه فقد صدّقني...)[489].

وولاءنا للمهدي (ع) ينبع أيضاً من حبنا لرسول الله (ص) ولأهل بيته (ع). فنحن نحب في أئمة أهل البيت (ع): شخصياتهم المتكاملة من زوايا العلم، والتقوى، وعدم المعصية، وحسن الأخلاق، والتضحية والإيثار في سبيل الدين.

وقد انتقل حب شخصيات أهل البيت (ع) إلى حب القضية التي يحملونها، وهي قضية الدين. وأصبح الولاء الشخصي لأئمة أهل البيت

---

[487] مصباح المتهجد ص 375.

[488] سورة المائدة: الآية 55.

[489] كمال الدين ج 2 ص 411.

(ع) في زماننا إلى ولاء للقضية التي يحملها الإمام المهدي (ع) بالخصوص.

2 – هدف الولاء: أن الهدف من موالاة المهدي (ع) هو طلب الوصول إلى مرضاة رسول الله (ص)، وبالتالي مرضاة الله تعالى. فهو طلبٌ للوصول، وموالاةٌ للقدوة الحسنة المتمثلة برسول الله (ص) التي أمرنا الله تعالى بالإقتداء بها في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[490].

فالإلزام الأخلاقي بموالاة الإمام بمواصفاته الكمالية هو الإلتزام بالقضية التي بذل حياته من أجلها. والهدف من موالاة شخص الإمام (ع) – وباعتبار عصمته في الدين – هو الوصول إلى الولاء للفكرة التي يحملها.

وعندما يقرر العقل موالاة المهدي (ع) فإنه لا يقوم به إلا بعد تيقنه بصحة ما يحمله المولى من أفكار وإلزامات. ولو لم يقتنع الموالي قلبياً وعقلياً بالفكرة لما حصلت الموالاة. ولذلك فإنّ الولاء هو اعتراف ضمني بصحة الخصائص والصفات التي يمتلكها المولى. وهذا الاعتراف بصحة الخصائص هو هدفٌ من اهداف الولاء. فالولاء مدرسة يتعلم فيها الإنسان طبيعة النظام، وأصول الطاعة لصاحب الزمان (ع).

3 – التبرير العقلي للولاء: يمثل قول الإمام السجاد أفضل مصداق للتبرير العقلي للولاء: (إن أهل زمان غيبته، القائلين بإمامته، والمنتظرون لظهوره

---

[490] سورة الأحزاب: الآية 21.

أفضل من أهل كل زمان، لأن الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة...)[491].

فالعقل يبرر صحة الولاء للنبي (ص) ولأهل البيت (ع)، والدليل الشرعي يؤكد أيضاً على صحة الإلتزام بالأحاديث المروية عن المهدي. وقد وصف رسولُ الله (ص) أهلَ البيت (ع) بالقول: (فلا تسبقوهم فتفرقوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلمُ منكم)[492]. أن فهم آثار أهل البيت (ع)، ومعرفة فضائلهم ومكارم أخلاقهم مبررٌ عقلي لإظهار الولاء لهم.

4 – عالمية الولاء: الولاء للإمام المهدي (ع) عالميٌّ بطبيعته أي يشمل الدنيا كلها. وهذا الولاء العالمي للمهدي (ع) يسهّل له الخروج، لأن اتباعه يقطنون جميع أنحاء الأرض. وفي ذلك حكمةٌ بالغةٌ، وهي أن الله تعالى يهيأ الأرض الصالحة، والوقت المناسب كي يظهر الإمام، ويفتح للمؤمنين آفاقاً من الأمل بتثبيت الدين، وتحقيق العدالة بين الناس.

الإنسان زمن الغيبة:

يرد هذا السؤال دائماً: ما هي نوعية الإنسان الذي يبحث عنه المهدي (ع) في إعمار الأرض ونشر العدالة الواقعية بين الناس؟ يجيب الإمام الصادق (ع) على ذلك، ويقول: (...إنما شيعتُنا من لا يهرُّ هريرَ

---

[491] الإحتجاج ص 122.

[492] الإرشاد – الشيخ المفيد ص 180.

الكلب، ولا يطمعُ طمَعَ الغُرابِ، ولا يسألُ الناسَ بكفِّهِ وإن ماتَ جُوعاً)[493].
فهو يضع للإنسان الشيعي المثالي أربع صفات، هي:
الأولى: الصبر على الأذى والألم والمعاناة، فهو من لا يهرُّ هريرَ الكلب، أي يتحمل المعاناة بصبرٍ تامٍ، دون أن يُسمِعَ صوتَ ألمهِ أحداً من الناس.
الثانية: الزهد في الدنيا، وعدم الطمع في ثرواتها ومفاتنها، فهو لا يطمع طمع الغراب صاحب الرغبة الشديدة في الإستحواذ على الشيء.
الثالثة: التعفف عما في أيدي الناس، فهو عفيفٌ لا يسأل الناس بكفه وإن مات جوعاً.
الرابعة: الثبات على العقيدة، فلا تختلف آراؤه عن آراء إخوانه. فهي متطابقة مع المنبع الأصيل.

وبطبيعة الحال فإنَّ الإنسان مقدَّمٌ رتبةً على بقية المخلوقات بعقله وإدراكه، وقوة اختياره للخير. قال تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)[494].

وموضوعٌ بتلك الأهمية لابد أن يشغل اهتمامات الإمام المهدي (ع)، فتكون له الأولوية في دعوته. وليس هناك أدنى شك بأن المهدي في غيبته وظهوره ينظر إلى الإنسان بعقله، وقيمه الأخلاقية. يؤيد ذلك رواية عن الإمام الباقر (ع) تقول: (إذا قام قائمنا (ع) وضع يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم)[495].

---

[493] الغيبة – النعماني ص 210 – 211.
[494] سورة البلد: الآية 10.
[495] الكافي ج 1 ص 25.

ولما كان المهدي (ع) هو رائد العدالة الواقعية بين الناس، فإنه يولي (الإنسان) في منهجه أعظم الإهتمام؛ فما قيمة النظام بدون أصالة هذا الكائن الشريف؟ وما معنى الغيبة والظهور دون أن يضع المُنقِذُ في خطته: (الإنسان) محوراً لإهتماماته؟ وما قيمة الحرب والسلم إذا لم يضع منهجاً في بناء الإنسان، وتقوية إيمانه، وسد حاجاته، وغرس بذرة العلم والتعفف في شخصيته؟

وظيفة الإنسان زمن الغيبة:

يتوقع الإمام المهدي (ع) من الإنسان زمن الغيبة أن يتحلى بالصفات التالية:

1 – الإقرار القلبي به (ع) وجوداً، وفكراً، وإمامةً. والإقرار بالمهدي هو إقرار بجميع الأنبياء (ع)، كما يشير رسول الله (ص) إلى ذلك ويقول: (... من أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني، ومن أنكره في غيبته فقد أنكرني، ومن كذّبه فقد كذّبني، ومن صدّقه فقد صدّقني...)[496].

2 – الإرتقاء بمستوى الولاء للإمام (ع): يُقصد به رياضة النفس كي تكون بالمستوى اللائق لموالاة صاحب الزمان (ع)، فلابد للنفس من أن تستقر على خصائص: الصبر، والزهد، والأباء. ولابد للقلب من الإيمان بما جاء به رسول الله (ص)، ونقلها لنا أهل بيته (ع). فلابد للإنسان من الإقرار بفضلهم وعلمهم، وما يترتب عليه في ذلك من طاعةٍ وولاءٍ.

---

[496] كمال الدين ج 2 ص 411.

3 – الورع، والإجتهاد، والطمأنينة، والإنتظار: تلك فضائل ينبغي على الإنسان الإلتزام بها زمن الغيبة:

أ – الورع: فالورع هو الكف عن المحارم. حيث يطلب أئمة أهل البيت (ع) من شيعتهم زمن الإنتظار ترك المحارم واجتناب الشبهات حتى لا يقع الفرد في المحرمات. أي أن الشيعي الحقيقي الذي يوالي المهدي (ع) هو الورِع، المتقي الذي لا يقدم على ارتكاب ما نهت الشريعة عنه.

ب – الإجتهاد: هو الإجتهاد الملازم للعبادة، أو الإجتهاد في أمور الحياة إطلاقاً. فالمجتهد في العبادة، يعدُّ من أصحاب القائم (ع)، ذلك لأن الإمام لا يريد اتباعاً كُسالى يتباطؤون في أداء مهماتهم، بل يُريد موالين يتفجر منهم نشاط الإيمان، وتتدفق عنهم حيوية المعرفة.

ج – الطمأنينة: هي الثقة وعدم القلق، كما قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[497]، واطمئنان القلب بذكر الله تعالى هو دليل على يقين المطمئن بوجوده تعالى. وهكذا يسري اليقين إلى وجود النبي (ص)، ووجود أئمة أهل البيت (ع) وبضمنهم الإمام المهدي (ع). وبدون الطمأنينة القلبية بوجود المهدي لا يمكن للإيمان أن يستمر.

د – الإنتظار: هو الترقب والتوقع لشيء ما. والإنتظار يعني توقدُ الذهن وشحذه للمنتظَر. وهو نتيجة لمقدمة عقلية، وهي العلم بشخصية المنتظَر. إذ لا يمكن للإنسان أن ينتظر شخصاً وهو يجهل ماهيته أو طبيعته! ففترة

---

[497] سورة الرعد: الآية 28.

الإنتظار هي فسحة زمنية لمعرفة المهدي (ع)، ومعرفة صفاته، وتثبيت شخصية الموالي له. ولذلك عُدَّ الإنتظار – بهذا المعنى – من أفضل الأعمال كما ورد عن رسول الله (ص): (أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عزوجل)[498].

4 – التكافل الإجتماعي: وظيفة الجماعة المؤمنة زمن الغيبة هو التكافل والتعاون والتبارّ، كما يؤكد الإمام الصادق (ع): (تواصوا، وتبارُّوا، وتراحموا ...)[499].

وطالما كان الإنسانُ إجتماعيٌّ بالطبع، فغالباً ما يطلق القرآن الكريم على المؤمنين بفكرة ما بالأمة: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[500].

هنا لابد للجماعة المؤمنة أو الأمة الموالية من إعداد نفسها زمن الغيبة عبر تقوية الضعيف من قبل القوي، ومساعدة الفقير من قبل الغني، والتواصي، والتبارّ، والتراحم. بمعنى ان الإعداد لخروج المهدي (ع) لابد أن يكون من البداية تكافلاً إجتماعياً متكاملاً، حتى تستطيع تلك الأمة المؤمنة أن تنسجم مع نفسها، ومع إمامها (ع) في أداء تلك الوظيفة الشاقة.

---

[498] بحار الأنوار ج 52 ص 123.

[499] الغيبة – النعماني ص 152 – 153.

[500] سورة الأعراف: الآية 34.

ولابد أن نبني على أن اتباع الحق لا يكسب الأكثرية زمن الغيبة! أي أن الإمام (ع) يبحث عن نوعية الإنسان وجوهره لا عدد الأتباع وكثرتهم. ولذلك فإن عدد المخلصين له قليل بلحاظ النوعية، وصفاء الجوهر، وقد أشار القرآن الكريم بصورة إجمالية إلى صفات البشر: (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)[501]. وهناك العديد من الروايات التي تفصح من أن الناس تغربَل زمن الغيبة، حتى لا يبقى إلا القليل من أهل الطينة الطيبة الطاهرة، وأهل الإيمان الخالص من المؤمنين بالمهدي (ع) في غيبته.

الطبيعة الإنسانية زمن الغيبة:

هناك صفتان تتحكمان في شخصية الإنسان، هما: الحاجة، والرغبة. فالإنسان يحتاج إلى إشباع حاجاته الأساسية من الغذاء، والسكن، والزواج، إلا أنه يرغب في أن يقتني أكثر مما يحتاجه. فقد يحتاج إلى تلك العناصر الأساسية في الحياة، إلا أن طمعه في التملك يحرّكه بتكديس الممتلكات لغايةٍ في نفسه. عندها يحرم الآخرين من خيرات الأرض التي خُلقت بالأصل للجميع.

يتدخل الدين هنا، ويأمر الإنسان بأخذ المقدار الذي يحتاجه، وترك الباقي للآخرين. وهذا لا يتم إلا عبر تداول الثروة الإجتماعية بين الناس تداولاً عادلاً، فإذا كان المال فائضاً في جهة، كان من وظيفة الإمام (ع)

---

[501] سورة الزخرف: الآية 78.

أن ينقله إلى الجهة الأخرى وهي جهة الفقراء. ذلك أن المال أمانة واستخلاف ينبغي أن يوضع في موضعه الصحيح، كما قال تعالى: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ...)[502].

وإذا كان السؤال: كيف تتغير طبيعتنا الإنسانية في عصر الغيبة؟ كان الجواب هو أن التغيير ينبع من فهم طبيعة أنفسنا نحن، وفهم فكرة أن الجزاء الأخلاقي: عقوبةً وثواباً يساهم في تعديل سلوكنا.

والقدرة على اختراق النفس الإنسانية، وتهذيبها، وتربيتها بحيث تتحرك نحو هدفها المرسوم في اليقين، والإطمئنان، والسعادة هو أفضل ما يستطيع أن يفعله المؤمن في عصر الغيبة.

يُضاف إلى ذلك أن الأمة الموالية للمهدي (ع) تستطيع أن تهذّب وجودها المعنوي، عندما تمارس تلك الرياضة الروحية في التعفف، والتقوى، والفهم، والعلم. وهذا عين ما يريده الإمام (ع) في شيعته زمن غيبته. هنا ثلاث نقاط:

الأولى: تهذيب النفس الإنسانية، وتربيتها على أساس القناعة بما يسد حاجاتها فحسب، والإرتقاء بها نحو معرفة الله سبحانه، وعبادته عبادة خالصة.

الثانية: الإحساس بالمسؤولية الجماعية تجاه الأمة أو الجماعة ككل، فهنا ينتهي حب الأنا، وتبدأ المسؤولية الجماعية تجاه كل فرد في المجتمع.

---

[502] سورة الحديد: الآية 7.

الثالثة: إذا ارتفعت قيود الإنانية وحب الذات عن الإنسان إرتقت نفسه إلى حب الخير، والطمأنينة، والسعادة. ذلك أن الأنانية تُفسد النفس الإنسانية، وتدمر الأرض وما فيها من خيرات.

سعادة الإنسان بالمهدي (ع):

يؤسس الإمام المهدي (ع) لحياةٍ آمنةٍ، مليئةٍ بالعدل والإنصاف، فيها خيرات وفيرة تشبع الناس، ويسمع الناس فيها قول الحق، وتُرفع فيها راية الدين، فتقلّ دوافع الشر عند البشر، فلا طمع، ولا ظلم، ولا تعدي. يمنحنا ذلك الشعور، عندما نقرأ تلك الكلمات إطمئناناً قلبياً بحتمية زوال الظلم والجهل والفقر، وتلك سعادة نفسية عظيمة بالفكرة المهدوية.

والسعادة تكمن أيضاً في العيش في ظل حياة أخلاقية فاضلة، فيها نكرانٌ للذات، وفيها مساهمةٌ في الخير، وفيها عبادةٌ للخالق عزوجل. وذلك العيش الفاضل ممكن في زمن غيبة المهدي (ع).

إذن يمكن تحقيق سعادة الإنسان في غيبة الإمام المهدي (ع) وفي ظهوره. فما يجعل الإنسانُ سعيداً بالمهدي، وإن لم يره بعد، هو شعوره بأن هناك نهاية سعيدة للعالم، وأن هناك أملاً في إزالة آلام الفقر والجوع والجهل من على وجه الأرض.

تمر السعادة الواقعية بطريقين: الأول: اشباع الجسد وإروائه. والثاني: سعادة النفس بإرجاعها إلى التفكر بخالقها، وعبادته، وحسن السير مع السالكين لمعرفته تعالى.

ومن هنا انجذب الناس – على اختلاف مشاربهم الفكرية – إلى فكرة الإمام المنقِذ على مدى التاريخ، لأن الإنسان يبحث دوماً عن السعادة الحقيقية: سعادة النفس، وسعادة العقل.

وسعادة المؤمن بالمهدي (ع) هي ثمرة البصيرة، واليقين، والأمل بالمثل الأعلى وهو الله سبحانه وتعالى، وهي ثمرة الإيمان العملي بأحكام الدين.

وكأن تلك السعادة الإيمانية مستَمدة من سعادة المعصوم (ع) نفسه. فنفس الإمام (ع) سعيدةٌ راضيةٌ بما قسم الله تعالى لها، لا تبتغي غير مرضاته، ويمثله قول الإمام الحسين (ع): (أني لا أرى الموت إلا سعادةً ...)[503].

مما ذكرناه آنفاً نستنتج بأن الناس زمن الغيبة يمكن أن يُسعدوا بحسن أعمالهم وأخلاقهم، وحُسن استعدادهم لمساندة المهدي. وثمرة سعادتهم في غيبته: الرضا النفسي والقلبي بوجوده بعنوانه، لا بشخصه فيما بينهم، يرشدهم بالعلم، ويحكمهم لاحقاً بالعدل والقسط.

وبكلمة، فإن السعادة الحقيقية التي يمكن أن يشعر بها الإنسان زمن الغيبة هي السعادة الفاضلة. وهي المتعلقة بالنفس عن طريق السلوك الفاضل: كالرضا بقضاء الله تعالى، والإطمئنان بصحة المعتَقد، واليقين بالمهدي (ع)، وإشباع ما تريده الروح لا ما يريده الجسد فقط.

---

[503] تحف العقول – ابن شعبة ص 174.

والمؤمنون عموماً يفرحون لفضائل النفس، فهم لا يريدون مالاً، لأنهم يعلمون أن السعادة ليست في المال. بل سعادتهم بالحكمة، والصلاح، ورفع الشحناء، ودفع التباغض.

وتلك السعادة سعادة عقلية، ودرجاتها تتباين من شخص إلى آخر بمقدار استيعابه العقلي لحقائق الوجود، وإدراكه الفعلي لحقائق الدين.

وقد نخطئ إذا اعتبرنا أن السعادة في دولة الإمام المهدي (ع) تأتي فقط عن طريق الرخاء، وزيادة ثروات الأرض، وزيادة الثمرات، ونتناسى أن نشر الفضائل في المجتمع هو الذي يؤدي إلى السعادة الحقيقية. فلابد من المسك بالعصا من طرفين: الرخاء، والفضيلة، من أجل إكمال الصورة المشرقة لفكرة الإمام المهدي (ع) ودولته المنصورة.

والحمد لله رب العالمين.

مصادر التوثيق

1 – القرآن الكريم.
2 – إثبات الهداة. محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104 هـ). قم المشرفة: المطبعة العلمية، بدون تاريخ.
3 – أجود التقريرات (تقريراً لأبحاث الشيخ محمد حسن النائيني ت 1355 هـ). السيد أبو القاسم الخوئي (ت 1413 هـ). قم المشرفة: دار العلم.
4 – الإحتجاج. أحمد بن علي الطبرسي (من علماء القرن السادس الهجري). النجف الأشرف: منشورات الشريف الرضي، 1380 هـ.
5 – إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين. المقداد عبد الله السيوري الحلي (ت 826 هـ). قم المشرفة: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، بدون تاريخ.
6 – الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد. محمد بن محمد بن النعمان الكعبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع)، 1413 هـ.
7 – الإشاعة لاشراط الساعة. محمد بن رسول الحسيني البرزنجي (ت 1103 هـ). تحقيق: حسين شكري. بيروت: دار المنهاج، 2005 م.
8 – الأصول الستة عشر. تحقيق ضياء المحمودي وآخرون. قم المشرفة: دار الحديث، 1423 هـ.
9 – إقبال الأعمال. علي بن موسى بن طاووس (ت 664 هـ). بيروت: الأعلمي، 1417 هـ.
10 – أمالي الصدوق. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت 381 هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 2009 م.

11 – الإمامة والتبصرة. علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت 329 هـ). تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي (ع)، قم المشرفة، 1404 هـ.
12 – أوائل المقالات. محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). قم المشرفة: دار المفيد، 1414 هـ.
13– بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار. محمد باقر المجلسي (ت 1111 هـ). بيروت: مؤسسة الوفاء.
14 – بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (ص). محمد بن الحسن بن فروخ الصفار القمي (ت 290 هـ). قم المشرفة: مكتبة المرعشي النجفي، بدون تاريخ.
15 – تاج العروس من جواهر القاموس. محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي (ت 1205 هـ). الكويت: دار الهداية، بدون تاريخ.
16 – تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر). عبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ). بيروت: دار الفكر، 2001 م.
17 – تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة. شرف الدين الحسيني الاسترابادي (من أعلام القرن العاشر الهجري). قم المشرفة: مدرسة الإمام المهدي، 1407 هـ.
18 – تجريد الإعتقاد. نصير الدين الطوسي (ت 672 هـ). تحقيق: عباس سليمان. مصر: دار المعرفة الجامعية، 1996 م.

19 – تحرير القواعد المنطقية، لقطب الدين محمد بن محمد الرازي في شرح الرسالة الشمسية لنجم الدين علي القزويني (ت 675 هـ). قم المشرفة: انتشارات بيدار، 1426 هـ .

20 – تحف العقول عن آل الرسول (ص). الحسن بن علي بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع الهجري). بيروت: مؤسسة الأعلمي، 2002 م.

21 – تصحيح اعتقادات الإمامية. محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). قم المشرفة: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، 1413 هـ .

22 – التعريفات. علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت 816 هـ). بيروت: المكتبة العلمية، 1983 م.

23 – تمهيد الأصول في علم الكلام. محمد بن الحسن بن علي المعروف بالشيــخ الطوسي (ت 460 هـ). طهـران: انتشارات جامعة طهران، 1394 هـ.

24 – تهذيب الأحكام في شرح المقنعة. محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). طهران: دار الكتب الإسلامية، بدون تاريخ.

25 – تهذيب الكمال في أسماء الرجال. أبو الحجاج المزي (ت 742 هـ). تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983 م.

26 – جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع. رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسيني (ت 664 هـ). قم المشرفة: مؤسسة الآفاق، 1371 هـ .

27 – الخرائج والجرائح. قطب الدين بن سعد بن هبة الله الراوندي (ت 573 هـ). قم المشرفة: مؤسسة الإمام المهدي (ع)، 1408 هـ .
28 – الخصال. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين.
29 – دلائل الإمامة. محمد بن جرير الطبري (الإمامي) (من أعلام القرن الخامس الهجري). طهران: مؤسسة البعثة، 1413 هـ .
30 – رسائل الشريف المرتضى. علي بن الحسين بن موسى المعروف بالشريف الرضي (ت 436 هـ). تحقيق: أحمد الحسيني. قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1405 هـ .
31 – الرسالة السعدية. جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر المعروف بالعلامة الحلي (ت 726 هـ). تحقيق: عبد الحسين بقال. قم المشرفة: دار الصفوة، 1410 هـ .
32 – سنن الترمذي. محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي (ت 279 هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي. مصر: البابي الحلبي، 1975 م.
33 – شرح أصول الكافي. محمد صالح المازندراني (ت 1081 هـ). طهران: المكتبة الإسلامية، بدون تاريخ.
34 – الشرح الكبير على متن المقنع. عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (ت 682 هـ). بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
35 – شرح مختصر المنتهى الأصولي. أبو عمر عثمان بن الحاجب (ت 646 هـ). شرحه الأيجي (ت 756 هـ)، وعلى المختصر حاشية التفتازاني

(ت 791 هـ)، وحاشية الجرجاني (ت 816 هـ)، وعلى حاشية الجرجاني حاشية الفناري (ت 8886 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 2004 م.
36 – شرح نهج البلاغة (وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام). (ابن أبي الحديد). عز الدين بن هبة الله الحسين المدائني (ت 655 هـ). القاهرة: مطبعة البابي الحلبي.
37 – شرح نهج البلاغة (صبحي الصالح – ت 1986م). بيروت: دار الكتاب اللبناني، 2004 م.
38 – شرح نهج البلاغة (شرح محمد عبده – ت 1323 هـ). بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
39 – شرح النووي على مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج). يحيى بن شرف النووي (ت 676 هـ). بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1392 هـ .
40 – صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ). دمشق: دار ابن كثير، 2002 م.
41 – صفات الشيعة. أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: مكتبة المجتبى، 2008 م.
42 – الصواعق المحرقة. أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي (ت 974 هـ). تحقيق: عبد الرحمن وكامل خراط. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997 م.

43 – الصحيفة السجادية الجامعة. جمع وتحقيق: محمد باقر الأبطحي. قم المشرفة: مؤسسة الإمام المهدي (ع)، 1411 هـ .
44 – الطبقات الكبرى. محمد بن سعد بن منبع الهاشمي المعروف بابن سعد (ت 230 هـ). تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968م.
45 – (كتاب) العين. الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي (ت 170 هـ). تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت: الكتب العلمية، 2003 م.
46 – عيون أخبار الرضا (ع). محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). تحقيق: حسين الأعلمي. بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1404 هـ .
47 – غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر. ابن نجيم المصري (ت 969 هـ). شهاب الدين الحموي (ت 626 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م.
48 – الغيبة. أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). قم المشرفة: مؤسسة المعارف الإسلامية، 1411 هـ .
49 – الغيبة. محمد بن إبراهيم النعماني (من أعلام القرن الرابع الهجري). تحقيق: علي أكبر غفاري. طهران: مكتبة الصدوق، بدون تاريخ.
50 – الفتن – أبو عبد الله نعيم بن حماد المروزي (ت 288 هـ). بيروت: دار الفكر، 1414 هـ .
51 – الفتوحات المكية. ابن عربي محمد بن علي (ت 638 هـ). بيروت: دار صادر، بدون تاريخ.

52 – فرائد الأصول (الرسائل). الشيخ مرتضى الأنصاري (ت 1281 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1416 هـ .
53 – فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب. شيرويه بن شهردار الديلمي (ت 509 هـ). بيروت: دار الكتاب العربي، 1987 م.
54 – فرق الشيعة. الحسن بن موسى النوبختي (من أعلام القرن الثالث الهجري). بيروت: منشورات الرضا، 2012 م.
55 – الفهرست. محمد بن اسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعروف بابن النديم (ت 438 هـ). تحقيق: إبراهيم رمضان. بيروت: دار المعرفة، 1997 م.
56 – قرب الإسناد. أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري (من أعلام القرن الثالث الهجري). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، 1413 هـ .
57 – الكافي (في الأصول والفقه والروضة). محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت 329 هـ). طهران: دار الكتب الإسلامية، بدون تاريخ.
58 – كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. محمد بن علي بن القاضي محمد حامد التهانوي (ت 1158 هـ). تحقيق: علي دحروج. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996 م.
59 – كشف الحق أو الأربعـون. محمد صادق الخاتون آبادي (ت 1272 هـ). تحقيق: ياسين الموسوي. النجف الأشرف: الدراسات التخصصية، 1426 هـ .

60 – كفاية الأثر في النص على الأئمة الإثني عشر. الخزاز القمي أبو القاسم علي بن محمد بن علي (من علماء القرن الرابع الهجري). قم المشرفة: انتشارات بيدار.
61 – الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. أيوب بن موسى الكفوي أبو البقاء الحنفي (ت 1094 هـ). تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري. بيروت: مؤسسة الرسالة، بدون تاريخ.
62 – كمال الدين وتمام النعمة. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). تحقيق: علي أكبر غفاري. قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1405 هـ .
63 – لسان العرب. محمد بن مكرم ابن منظور (ت 852 هـ). قم المشرفة: نشر أدب الحوزة، 1405 هـ .
64 – اللوامع الالهية في المباحث الكلامية. المقداد بن عبدالله السيوري الحلي (ت 826 هـ). قم المشرفة: مجمع الفكر الإسلامي، 1424 هـ.
65 – المجموع شرح المهذب. يحيى بن شرف النووي (ت 676 هـ). تحقيق: محمد نجيب المطيعي. جدة: مكتبة الإرشاد، بدون تاريخ.
66 – المحاسن. أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت 274 هـ). قم المشرفة: دار الكتب الإسلامية، بدون تاريخ.
67 – المحصول. محمد بن عمر بن الحسن الرازي (ت 606 هـ). تحقيق: طه العلواني. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997 م .
68 – مسند أحمد. أحمد بن حنبل (ت 241 هـ). تحقيق: شعيب الأرناؤط وآخرون. بيروت: مؤسسة الرسالة، بدون تاريخ.

69 – المصباح. نقي الدين إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي (ت 905 هـ). بيروت: مؤسسة النعمان، 1992م.
70 – مصباح الزائر. علي بن موسى بن طاووس (ت 664 هـ). قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث. 1416 هـ .
71 – مصباح المتهجد وسلاح المتعبد. أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ). بيروت: مؤسسة فقه الشيعة، 1411 هـ .
72 – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت 770 هـ). بيروت: المكتبة العلمية، بدون تاريخ.
73 – المصنف. أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 211 هـ). بيروت: المكتب الإسلامي، بدون تاريخ.
74 – معاني الأخبار. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). تحقيق: علي أكبر غفاري. بيروت: دار المعرفة، 1979 م.
75 – المعجم الأوسط. أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت 360 هـ). القاهرة: دار الحرمين، 1415 هـ .
76 – معجم مقاييس الغة. أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت 395 هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت: دار الفكر، 1979 م.
77 – المُغني. عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت 620 هـ). مصر: مكتبة القاهرة، 1968 م .
78 – مفردات ألفاظ القرآن. الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 425 هـ). تحقيق: صفوان الداودي. دمشق: الدار الشامية، 2009 م .

79 – المفردات في غريب القرآن. الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 425 هـ). تحقيق: صفوان الداودي. دمشق: الدار الشامية، 1412 هـ .

80 – الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر (ع). رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت 664 هـ). قم المشرفة: منشورات الرضي، 1978 م.

81 – الملل والنحل. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت 548 هـ). تحقيق: محمد كيلاني. القاهرة: البابي الحلبي، 1975 م .

82 – المناقب. الموفق بن أحمد بن محمد الخوارزمي (ت 568 هـ). تحقيق: مالك المحمودي. قم المشرفة: جماعة المدرسين، 1411 هـ .

83 – مناقب الشافعي. محمد بن الحسين بن إبراهيم الآبري (ت 363 هـ). تحقيق: جمال عزون. الدار الأثرية، 2009 م .

84 – منتخب الأثر في المقام الثاني عشر (ع). لطف الله الصافي الكلبايكاني. طهران: مكتبة الصدر، بدون تاريخ.

85 – من لا يحضره الفقيه. محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت 381 هـ). قم المشرفة: جماعة المدرسين، بدون تاريخ.

86 – منهاج السنّة النبوية. أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت 728 هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

87 – الموسوعة الفلسفية العربية. معن زيادة وآخرون. معهد الإنماء العربي، بدون تاريخ.

88 – الميزان في تفسير القرآن. السيد محمد حسين الطباطبائي (ت 1402 هـ). بيروت: الأعلمي، 1997 م .
89 – النكت الإعتقادية. محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت 413 هـ). قم المشرفة: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، 1413 هـ .
90 – النهاية في غريب الحديث والأثر. المبارك بن محمد الجرزي بن الأثير (ت 606 هـ). تحقيق: علي بن حسن. دار ابن الجوزي، 1421 هـ.
91 – وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة. محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104 هـ). تحقيق: محمد الرازي وأبو الحسن الشعراني. بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
92 – ينابيع المودة. سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت 1294 هـ). الكاظمية: دار الكتب العراقية، بدون تاريخ.

المصطلحات الواردة في الكتاب

(حسب ترتيب ورودها في الكتاب)

اليقين المنطقي: اعتقاد الشيء بصورة معينة، مع اعتقاده بأنه لا يمكن أن يكون إلا بتلك الصورة، اعتقاداً مطابِقاً لنفس الأمر، غير ممكن الزوال. ويشمل القَطْع في مباحث أصول الفقه. وقيل في التعريف: (اعتقاد) فأخرج به (الظن) من التعريف، وقيل: (... مطابقاً لنفس الأمر) فأخرج به الجهل المركّب، الذي هو اعتقاد جازم غير مطابق للواقع.

حجية القطع (الحجية الذاتية): يمثَّلُ لتلك الحجية بالنار والحرارة المنبعثة منها. فكما أننا لا نستطيع التفكيك بين النار والحرارة المنبعثة منها كذلك لا نستطيع التفكيك بين القَطْع وحجيته الذاتية. وهذا هو اليقين في بحوث علم المنطق. ونأخذ اليقين عند المناطقة في الأمور الاعتقادية، ومنها غيبة الإمام المهدي (ع)، ووجوده الفعلي، لأنها تعني القَطْع الذاتي.

حجية القطع (الحجية المجعولة): هي حجية مجعولة من قبل الله تعالى، وقد أمَرَنا الله تعالى باتباع الظن في مورد البينّة واليقين، فقد جَعَلَ تعالى الحجيةَ لليمين والبينّة مع أنهما لا توجبان القَطْع، ولكن الله عزّوجلّ ألغى احتمال الخلاف، وتمّم الكشف الناقص على الطريقة التعبدية. وإنما يحصل بقول الثقة ظنّ، لا علم ويقين. ولكنه نصٌّ يجب العمل به. كشهادة الشهود

وهو بيّنة شرعية، فإنها في نظر الشرع يقين، لكنها في الواقع خبر آحاد يجوّز العقل فيها مخالفة الواقع كالسهو أو إنكار الحقيقة.

صحرُ الحقَ عن محضه: تنقية الأرض الخصبة من الشوائب. وظاهر المعنى يشير إلى أن غيبة الإمام (ع) ومحنها تستخلص القلّة النادرة من أهل اليقين عن غيرهم.

صفو الإيمان من الكدر: تنقية الناس من أهل الإيمان والإخلاص عن غيرهم من رواسب البشر.

اليقين: لغةً هو: العلم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر. فاليقين اذن هو الثبوت والاستقرار، وسكون النفس، وطمأنينة القلب على حقيقة الشيء. ولا يدخل اليقين إلى قلب الإنسان وعقله إلا بعد علمٍ ناتجٍ عن نظرٍ واستدلالٍ.

الشك (في اللغة): الشك مقابل اليقين، وهو: التداخل الذي يؤدي إلى الجهل وعدم الوضوح، ذلك لأن الأمر يستوي عند الشّاك، فلا يجزم ولا يظنّ، بل هو في موقف الحيرة والتردد.

الشك (في علم الكلام): التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك. وهو ضربٌ من الجهل وأخصّ منه، لأن الجهل قد

يكون عدم العلم بالنقيض رأساً، أو العلم بهما، مع عدم إدراك الراجح. فكل شك جهل ولا يصح العكس. والشك هو من قبيل التصوّرات لا التصديقات.

الشك (في علم الفقه): التردد بين وجود الشيء وعدمه، بحيث يتساوى الإحتمالان فيتساقطان. وتوضيحه أنه إذا شكَّ فقد تعارضَ عنده الأمران، فيجب سقوطهما، كالبينتين إذا تعارضتا، ويرجع إلى اليقين، ولا فرق بين أن يغلب على ظنه أحدهما، أو يتساوى الأمران عنده؛ لأن غلبة الظنّ، إذا لم تكن منضبطة بضابط شرعي لا يلتفت إليها، كما لا يلتفت الحاكم إلى قول أحد المتداعيين إذا غلب على ظنه صدقه، بغير دليل.

قاعدة (المانع والمقتضي): يتعلق اليقين بوجود المقتضي، والشك بوجود المانع من تأثيره، ويُمثّل لها بوجود النار في خشب يقتضي الاشتعال، وأن يُشكّ في وجود مانع من اشتعاله، وهو رطوبة الخشب مثلاً، فلا يقين بحصول الاشتعال لتوقفه على عدم المانع وهو أمر مشكوك فيه !

دلالة الحال: دلالة استثنائية تشرح حالاً مفترضاً يمكن أن يتبدل. وهي أضعف من دلالة التصريح.

دلالة التصريح: دلالة يقينية قاطعة، تستند على دليل واقعي. والتصريح هو الذي يكون المراد منه ظاهراً ظهوراً بيّناً وتاماً ومعتاداً.

العصمة من الذنوب: تعني الامتناع عن المعصية، بلطف الله تعالى، وبإرادة الإنسان المطيع له سبحانه. والفرق بين المنع والإمتناع هو: أن المنع يأتي لحفظ الإنسان من فاعل خارجي كالجبل في مثال ابن نوح. والإمتناع يأتي لحفظ الإنسان من فاعل داخلي وهو إرادة النفس بلطف الله تعالى، وقوة إلتزام الإنسان بمعرفته تعالى وإتقاء غضبه، كما في قصة يوسف (ع) في القرآن الكريم. ولو اعتبرنا الجهل عند القائد ذنباً، لاستقامت فكرة العصمة بكونها امتناعاً عن المعصية اطلاقاً. ذلك أن العصمة عن المعصية متلازمة أيضاً مع العصمة عن الجهل أو الخطأ عند الإمام (ع).

البرأ من العيوب: السلامة من كل عيب باطن أو ظاهر. والعيوب المعروفة هي: إما جسدية، وإما عقلية. فالعيوب الجسدية مثل: تلف عضوٍ من أعضاء الجسد، أو عاهة تصيب الإنسان، أو مرض مزمن، فتجعله عاجزاً. والعيوب العقلية مثل: الاضطراب العقلي، وشرود الذهن، وخلط الحقائق بالأوهام، والكآبة، ونحوها.

والحكمة من برأ الإمام (ع) من العيوب هو أن سلامة العقل، والروح، والجسد من مقومات الإمامة ومقتضياتها. لأن خللاً في العقل يؤدي إلى عدم إدراك مفردات الدين، وخللاً في الروح يؤدي إلى ضعف الاتصال بالله عزوجل، وخللاً في الجسد يؤدي إلى ضعف العبادة، والإدارة.

الطهارة من الدَنَس: السلامة من الخلاعة، والفجور، والفسق. والدَنَس: صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت، من دنِسَ، والدَنِس هو: الخليع، الفاجر، الفاسق. ورجلٌ دَنِسٌ: متلطخٌ بالقبيح. والطهارة من تلك الرذائل هي طهارة أخلاقية تتعلق بإزالة كل ما يلوث الروح والعقل من أدران فكرية أو مادية.

التنزيه من اللُّبْس: السلامة من الالتباس، ومعناه: السلامة من الشبهة وعدمُ الوضوح. وهو احتمال إرادة اللفظ أو العبارة لأكثر من معنى. ولبسَ الأمرَ عليه: اختلط واشتبه بغيره وعمّاه حتى لا يعرف حقيقته.

الشَبْهَةُ (في الشرع): ما التبس أمرُه فلا يدري أحلالٌ هو أو حرام، وحقٌ هو أو باطل. والجمع: شُبهَةٌ. وفي (أصول الفقه): الشبهة الحكمية: هو المشكوك الذي لم يَعرف حكمه. وفي علم (الفقه) فإنّ الشبهة: ما يشبه الشيء الثابت وليس بثابت في نفس الأمر. وهي ما لم يتيقن كونه حراماً أو حلالاً. ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) القول: (وأنه إنما سُميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق. وأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين).

خَزَانةُ العلمِ: الخَزَانَة في اللغة: مكان الخزْن. وخِزَانَةٌ جمع خَزَائنُ. وقيل للغيوب خزائنُ لغموضها على الناس واستتارها عنهم. والخِزانةُ حرفةُ الخازن التي تقتضي الأمانة. وتلك صفة مهمة في خزّان العلم. والخازن للعلم هو الحافظ للعلم، وناشره دون زيادة أو نقصان. وأهل البيت (ع) خزّان العلم،

لأن العلم المستودع عندهم هو علمٌ تلقوه مشافهة من النبي (ص). فهم الحافظون لعلم النبوة دون زيادة أو نقصان.

مُستودَعُ الحكمةِ: مُستودَعٌ: اسم مفعول من استودعَ، وأيضاً اسم مكان من استودعَ: مكان الوديعة: مكان الحفظ. والحكمة: أعلى درجات المعرفة. فهي مرآة لتفكر الإنسان بنفسه، وبالعالم المحيط به، وبخالقه عزوجل.

الموالاة في الشريعة: الولاء بمثابة عقدٍ ضمني بين المُوالي والموالى له. فالمُوالي يلتزم بالطاعة والمحبة لمولاه، والموالى له يلتزم بارشاده إلى النهاية لفظاً وفعلاً. وبهذا الاعتبار فالموالاة قضية دينية إعتبارية بين طرفين: المؤمن الموالي، وإمامه العابد المطيع لله تعالى. وهذا الحد المنطقي يُخرج الولاء العشائري، والأسري، والسياسي ونحوها من التعريف.

البراءة: اصطلاح ضد الموالاة. والبراءة في اللغة: البعد والتنزه، قال تعالى: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [المجادلة: 22].

الفهرست

مقدمة الكتاب..... 7
محتويات الكتاب 13

الفصل الأول: االيقين في الإمام المهدي (ع) 15
اليقين في ألفاظ الإمام (ع) 17
الدلالات 18
إخراج الظن والجهل المركب 23
بين اليقين المنطقي واليقين الفقهي 25
اليقين بالحقيقة 27
اليقين بوجود الإمام (ع) غائباً 32
أنواع اليقين: 33
أولاً: اليقين عن طريق رؤية العين بالمشاهدة 33
ثانياً: اليقين عن طريق إزالة جميع الشكوك 36
ثالثاً: اليقين عن طريق رؤية الأشياء بالبصيرة..... 40
رابعاً: اليقين عن طريق الإيمان بالغيب وتصديقه 41
من موارد اليقين 42
فلسفة الشك: نقض الشكوك المُثارة 48
تداخل الحقيقة مع الوهم 50

النصوص المتواترة التي تُحكِم اليقين 53
من شروط اليقين في وجود الإمام المنتظر (ع): 59
1 – فعلية اليقين بوجود الإمام (ع) 59
2 – اتصال زمان اليقين بظهور الإمام (ع) 61
3 – اتحاد قضية اليقين في المتعلَّق 66
4 – بناء اليقين على قاعدة (المانع والمقتضي) 67
5 – وجود الأثر العملي لليقين 69

الفصل الثاني: معرفة صفات الإمام المهدي (ع) 73
مقدمة 75
رسالة الإمام المهدي (ع) إلى الشيخ الصدوق..... 75
الدلالات 77
فضائل الإمام المهدي (ع) على لسانه: 78
1 – العصمة من الذنوب 80
الحكمة من عصمة الإمام المهدي (ع) 82
2 – البرأ من العيوب 94
العيوب العقلية والنفسية 95
الحكمة من البرأ من العيوب..... 96
3 – الطهارة من الدَنَس 100
الشخصية المطهَّرة من الدَنَس 102
4 – التنزيه من اللُّبْس 106

الشُبهة وخطورتها على مباني الدين 107
5 – خزانة العلم واستيداع الحكمة 116
أ – خزانة العلم 116
ب – إستيداع الحكمة 119
6 – التأييد بالدلائل 124

الفصل الثالث: في معاني الولاء للإمام (ع) 127
مقدمة 129
الموالاة للمهدي (ع) 129
معنى الموالاة 129
شُعب الولاء للإمام المهدي (ع): 131
أولاً: الولاء العقلي 131
ثانياً: الولاء الشرعي 133
ثالثاً: الولاء العاطفي 135
أسس الولاء: 137
1 – موضوع الولاء 137
2 – هدف الولاء 139
3 – التبرير العقلي للولاء 141
4 – عالمية الولاء 142
الإمام الحاضر دائماً: 143
أولاً: الأدعية الموقوتة 143

ثانياً: الأدعية التي يدعى بها في كل وقت 146

الفصل الرابع: الإنسان في عصر الغيبة 151
مقدمة 153
أصالة الإنسان 156
العقل الإنساني زمن الغيبة 159
خلق الإنسان والخلافة الربانية 160
وظيفة الإنسان زمن غيبة المهدي (ع): 163
1 – الإقرار القلبي بالإمام (ع) 164
2 – الإرتقاء بمستوى الولاء للإمام (ع) 166
3 – الورع، والاجتهاد، والطمأنينة، والإنتظار 168
4 – التكافل الإجتماعي 173
في كون الإنسان إجتماعي بالفطرة 173
الأمة وطريق الخير 178
الطبيعة الإنسانية 180
الطبيعة الإنسانية زمن غيبة الإمام (ع) 184
سعادة الإنسان بالمهدي (ع) 187
السعادة الإنسانية 190
السعادة في اللغة والإصطلاح 193
مظاهر السعادة: 196
1 – الرضا القلبي 196

2 – السرور بالفكرة 197
قيود النفس الأمّارة 200
بين قيود النفس والسعادة الإنسانية 203

الفصل الخامس: النتائج المستخلصة من بحوث الكتاب..... 207
مقدمة 209
في قضية اليقين 209
شروط اليقين في المهدي (ع) 212
الفضائل الشخصية للإمام (ع) 216
الموالاة للإمام المهدي (ع) 221
أسس الولاء 224
الإنسان زمن الغيبة 226
وظيفة الإنسان زمن الغيبة 228
الطبيعة الإنسانية زمن الغيبة 231
سعادة الإنسان بالمهدي (ع) 233

مصادر التوثيق 237
المصطلحات الواردة في الكتاب 251
الفهرست 257